

جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

٢٠٠٩ / ١٤٣٠ هـ

عنوان البحث

# الجاليات الأوروبية في ولاية حلب

(١١١٢ - ١٢١٥ هـ / ١٧٠٠ - ١٨٠٠ م)

الجلال

بحث لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب الحديث والمعاصر

إشراف

أ.د. يوسف نعيمة

إعداد

الطالب: مهنا المحمد

للعام الدراسي: ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م



التقسيمات الادارية لسوريا تحت الحكم العثماني (١)

(١) - طربين ، أحمد: تاريخ المشرق العربي المعاصر، منشورات جامعة دمشق ، ط ٧ ، ٧٠٠٠ م ، ص ٦٤٧.

## مقدمة:

يتناول البحث فترة مهمة من تاريخ ولاية حلب خلال الحكم العثماني ٩٢٢ - ١٣٣٧ هـ / ١٥١٦ - ١٩١٨ م ، حيث يتحدث عن أوضاع الجاليات الأوروبية (البندقية - الفرنسية - الإنكليزية - الهولندية) من النواحي الادارية والاقتصادية والاجتماعية والدينية في ولاية حلب ، خلال القرن الثامن عشر ١١١٢ - ١٢١٥ هـ / ١٧٠٠ - ١٨٠٠ م ، التي أقامت في الولاية المذكورة ، منذ النصف الأول من القرن السادس عشر ، حيث توافدت من أوروبا ، ونظمت نفسها في مستعمرات مستقرة ، وذلك بحصول الدول الأوروبية على معاهدات وامتيازات تسهل إقامة وحياة رعاياها في معظم أنحاء السلطنة العثمانية. ولم تكن تلك الجاليات في الواقع سوى مظهر من مظاهر الاستعمار الأوروبي الذي أراد السيطرة على البلاد ونهب خيراتها وثرواتها.

وجاء هذا البحث استكمالاً لبحث سابق ، قامت بإعداده الدكتورة ليلى الصباغ بعنوان (الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين / السادس عشر والسابع عشر الميلاديين).

وتم اختيار هذا البحث للأسباب التالية:

١- الرغبة في الكشف عن بداية الاستعمار الأوروبي الحديث ، الذي تم بالسيطرة على أجزاء من الوطن العربي في القرنين التاسع عشر والعشرين للميلاديين. فهذه الجنود أبعد غوراً من هذين القرنين.

فمن خلال الاستعمار الاستكشافي الذي قامت به الدول الأوروبية في القرن السادس عشر ، بدأ يتبلور اهتمام الغرب الأوروبي بالشرق الأدنى عامة وبلاد الشام خاصة ، لأنها منطقة ذات أهمية اقتصادية وذات موقع استراتيجي توصلهم إلى مناطق القوايل والتحرير والمواد الخام اللازمة لتغذية المصانع الأوروبية، وسوقاً لتصريف البضائع الأوروبية بعد قيام الثورة الصناعية في أوروبا في القرن الثامن عشر الميلادي.

٢- الرغبة في تسليط الضوء على الدور الذي قامت به الجاليات الأوروبية ، كونها بسواير تسلسل استعماري غربي أوروبي نحو بلاد الشام ، فكانت بمثابة العيون الساهرة والأذان المنصتة لدولهم الأوروبية ، والتي بدأت بإرسالهم في النصف الأول من القرن السادس عشر ، وزاد نشاطهم في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين.

٣- الرغبة في توضيح أهمية ولاية حلب - كونها من أهم ولايات بلاد الشام - بالنسبة للسلطنة العثمانية ، والدول الأوروبية لأنها تتمتع بأهمية اقتصادية ، حيث شكلت سوق واسعة للبضائع اللازمة للثورة الصناعية الناهضة في أوروبا خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر وطوال

القرن الثامن عشر ، وأهمية إستراتيجية بسبب موقعها المميز على مفترق الطرق التي تصلها بآسيا من الشرق ، وآسيا الصغرى من الشمال وجنوب بلاد الشام ومصر وشبه الجزيرة العربية من الجنوب ، وبالبحر المتوسط الذي يؤدي إلى أوروبا من الغرب ، كذلك وقوعها على طريق الحرير التجاري العالمي بين الشرق والغرب.

٤- كشف الأسلوب الأوروبي الذي تغير من الحالة العسكرية الحربية ، إلى تسليح سلمي هادئ عبر إرسالياتهم التبشيرية إلى بلاد الشام ، لنشر النفوذ الأوروبي الاستعماري عن طريق استغلال رجال الدين وحتى الدين نفسه ، وذلك من خلال جذب رعايا السلطان العثماني المسيحيين إلى بابا روما وأحضار الدول الأوروبية ، ومسارعة فرنسا ليمسك حمايتها على مسيحيي الشرق من أجل استغلالهم ، عن طريق إعلان حمايتها عليهم للتدخل في الشؤون الداخلية للسلطنة العثمانية. بغية تحقيق مصالحها الاستعمارية فصارعت الدول الأوروبية لإرسال إرسالياتها في النصف الأول من القرن السابع عشر إلى ولاية حلب ، لنشر المذهب الكاثوليكي بين أبناء مسيحيي الشرق الأرثوذكسي، وداعية إلى الاتحاد مع كنيسة البابا والارتباط بها. فعملت تلك الإرساليات على تثبيت نفوذ الغرب، ونجحت في بذور الشقاق بين المسيحيين ، وجلب بعضهم إلى الكثلكة والبروتستانتية.

ومن أبرز الصعوبات التي واجهت البحث هي قلة المصادر والمراجع، فهي نادرة ولا مبالغة في ذلك ، فلم يكتب في هذا الموضوع في سوريا سوى الدكتورة ليلي الصباغ في أطروحتها سابقة الذكر ، وللحصول على الوثائق الأصلية التي يحتاجها البحث لا بد من التنقل بين مجموعة من الدول الأوروبية للاطلاع على ما لديها من وثائق. ولا بد من معرفة اللغات المكتوبة بها ، لذلك ما توفر لي من تلك الوثائق والكتب الأجنبية استعنت ببعض الأشخاص على ترجمتها.

قسم البحث إلى تمهيد وأربعة فصول ، حيث تم التعرف في التمهيد على موقع حلب الجغرافي وأهميته ، ودخولها ضمن السلطنة العثمانية بعد معركة مرج دابق ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م. وبداية وجود الجاليات الأوروبية فيها من خلال الامتيازات التي حصلت عليها من السلطنة العثمانية.

الفصل الأول قد خصص للحديث عن النظام الإداري للجاليات الأوروبية ، بدءاً من السلطات الوطنية المشرفة عليها من أوروبا ، ثم السفراء في إسطنبول، ثم القناصل وبقية الجهاز الإداري للقنصلية في ولاية حلب.

بينما الفصل الثاني تحدث عن النشاط الاقتصادي للجاليات الأوروبية في ولاية حلب ، من خلال استعراض الأوضاع العامة للتجارة ، وكذلك التعرف على النشاط التجاري لكل جالية على حده ، بالتعرف على مود التبادل التجاري (الصادرات والواردات) التي حصلت عليها الجاليات عن طريق الوسطاء (الروم

والأرمن واليهود). والنقود التي تعاملوا فيها ، وتناول البحث الصعوبات التي واجهت تجارة الجاليات ، وانتهى الفصل بالحديث عن الطرق التجارية والموانئ البحرية لولاية حلب على البحر المتوسط.

والفصل الثالث فتناول الحديث عن الحياة الاجتماعية للجاليات الأوروبية ، بالتعرف على الحياة الخاصة لها ، وعلاقتها مع بعضها البعض ، وعلاقتها مع القوى الاجتماعية في ولاية حلب ، وعلاقتها مع الإدارة العثمانية الحاكمة.

أما الفصل الرابع والأخير فتعرض للعلاقة بين الجاليات الأوروبية والإرساليات التبشيرية ، من خلال التعرف على الإرساليات التبشيرية وأنواعها ، ووسائلها المتبعة لجذب أهالي حلب المسيحيين إلى بابا روما ، عن طريق نشر المذهب الكاثوليكي ، وبين الإرساليات التبشيرية والسلطات العثمانية ، وتناول العلاقة بين الإرساليات والدول الأوروبية الداعمة لها بكل ما تملك من قوة وطاقة في سبيل تحقيق مصالحها.

وبعد أن أنهيت جولتي ورحلتي العلمية المتواضعة منتقلاً بين بطون كتب التاريخ المهمة التي وقعت بين يدي ، لا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر الخالص لكل أساتذة قسم التاريخ في جامعتي دمشق وحلب ، الذين علموني ورشدوني ، وأخص بالذكر منهم أستاذي الفاضل الدكتور يوسف نعيسة ، الذي رعاني ووجهني التوجيه السديد ، فكان لتوجيهاته وتشجيعه الأثر الكبير في إعداد هذا العمل وإخراجه إلى النور.

وهذا - وفقني الله وإياكم - ما كتبت من سطور ، أرجو أن أكون غير مقصر فيما اخترت من صناعته وأردت من كتابته ، فإن وقع على الحال الذي أردتم وبالمنزلة التي أملت ، فهذا كله بتوفيق من الله ، وحسن تأييده ، وإن وقع بخلافها فيعلم الله أني ما قصرت بالاجتهاد ولعل حرمت التوفيق ، والله أعلم.

نعتذر مما طغى به القلم أو زل به الفكر على أنه قد قيل في المثل السائر " ليس الفاضل من لا يغلط بل الفاضل من يعترف بغلطه ".

وإن تجد عيباً فسد الخلا  
وجل من لا عيب فيه وعلا

والله ولي التوفيق

## المُدخل:

الأهمية الاستراتيجية لموقع حلب الجغرافي وبيئتها الطبيعية.

توسع السلطنة العثمانية في بلاد الشام وأوضاع ولاية حلب.

الامتيازات الأجنبية الممنوحة من السلطنة العثمانية للدول الأوروبية

(Capitulation).

أسباب اهتمام الأوروبيين ببلاد الشام عامة وحلب خاصة.

بداية وجود الجاليات الأوروبية في ولاية حلب.

## ١ - الأهمية الاستراتيجية لموقع حلب الجغرافية وبيئتها الطبيعية:

تقع مدينة حلب على ارتفاع يتراوح بين (٣٧٥ - ٣٩٠) متراً فوق مستوى سطح البحر في منخفض مستو من الأرض أغلبه إلى الشرق من مجرى نهر قويق الذي تجاوزه العمران إلى غربه اليوم.

وهو موقع فريد من نوعه ، لا نجد له مثيلاً في شمال سورية ، عند تقاطع خط عرض شمالي خط الاستواء (٣٦) درجة و (١٢) دقيقة و (١٣) ثانية مع خط طول شرقي غرينتش (٣٧) درجة و (٩) دقائق و (٣٠) ثانية ، ويتمتع هذا الموقع بالكثير من الخصائص والميزات أبرزها:

١- يبعد مسافات متقاربة عن مجرى نهر الفرات وواديه في الشرق وعن البحر المتوسط في الغرب، وعن أقدم جبال طوروس في الشمال ، وعن بدايات الجبال الوسطى في الجنوب ، حيث يحوم معدل المسافات (٨٠ - ١٠٠) كم.

٢- يحل مكاناً استراتيجياً مهماً ، إذ قامت للمدينة في منخفض من الأرض يشبه وعاء ترتفع حول حافته تلالاً كلسية تعلو حتى (٤٢٠ - ٤٣٠) متراً فوق سطح البحر ما عدا حافته الجنوبية المنخفضة التي يعبرها وادي نهر قويق الذي يشق أرض المنخفض قائماً من الشمال إلى الجنوب. ويرأوح فرق الارتفاع العام بين أرض المنخفض والهضاب المطلة عليه والمحيطه به بين (٤٠ - ٤٥) متراً تقريباً. لكن ذلك لا يعيق المواصلات من حلب وإليها لكثرة الممرات والمعابر بين أرض المنخفض والهضاب. ويتوسط هذا المنخفض تلة كبيرة تعرف بـ (تلة القلعة) ارتفاعها (٤٣٧) متراً فوق سطح البحر ، وارتفاعها فوق أرض المنخفض (٤٥) متراً تقريباً.

إن هذا الموقع الجغرافي له خاصيته الدفاعية الطبيعية جعلت من حلب ملجأ للسكان بحميمهم عبر عصور التاريخ. وقد أكد المؤرخون والباحثون في المدن على الأهمية الطبيعية الدفاعية لموقع حلب ، وقدموها على الأهمية التجارية والصناعية. فوجود حلب واستمرار هذا الوجود والبقاء نتيجة أساسية لأهمية الموقع ذي الأهمية الاستراتيجية الكبيرة التي وفرت لحلب الحماية الطبيعية والدفاع السهل (١).

٣- تقع حلب عند تقاطع الطرق المتجهة من الجنوب إلى الشمال ، أي باتجاه الأناضول وأوروبا ، فضلاً عن الطرق المتجهة نحو الجنوب ، أي نحو الحجاز واليمن ، ومنها نحو المحيط الهندي ، وذلك التي تتجه من الشرق إلى الغرب ، الواصلة بين الخليج العربي والبحر المتوسط. وإن عقدة طرق كهذه مؤهلة بحكم طبيعة موقعها ، لتكون مركز توزيع دولي منذ فجر التاريخ ، هذا فضلاً عن اتصال المعمورة على هذه الطرق المختلفة ، حيث يتوفر الماء وتكثر المراكز الحضرية ، فضلاً عن سهولة المواصلات فوق هذه الطرق المتشعبة من حلب ، التي تؤدي دور العنكبوت وسط شبكتها، بسبب ندرة الجبال المرتفعة التي تؤلف

(١)- عبد السلام ، عادل: الموقع الجغرافي لحلب ، مجلة التحقيقات الأثرية العربية السورية ، العدد ٤٣ ، وزارة الثقافة، دمشق ، ١٩٩٩

حواجز طبيعية في وجه المواصلات، أضف إلى ذلك توفر الممرات الجبلية المنخفضة كممر بيلان المؤدي إلى ميناء إسكندرونة، أو منخفض إنطاكية والذي يقود بكل سهولة إلى ميناء السويدية عند مصب العاصي<sup>(١)</sup>

٤- كان لموقع حلب الاستراتيجي وغنى محيطها الجغرافي بمنتجاته الاقتصادية، الأثر الأكبر في تطور هذه المدينة وإعطائها دوراً في النشاط التجاري بكل معانيه على الصعيدين الداخلي والخارجي، وبحكم موقع حلب الاستراتيجي، مثلت هذه المدينة نقطة مهمة في تجارة القوافل مع العراق وفارس، يضاف إلى ذلك أن حلب كانت نقطة التقاء وتقاطع للطرق التجارية الأبعد، سواء كانت طرقاً بحرية قادمة من الصين والهند عبر الخليج العربي أو الطرق البرية القادمة من وسط آسيا، فتفرعات هذه الطرق كانت تصل إلى حلب في طريقها إلى البحر الأبيض المتوسط<sup>(٢)</sup>.

٥- المواقع الجغرافي والاستراتيجي لحلب، حيث كانت تشكل القلب النابض بالحياة بين مجموعة كبيرة من الممالك والمدن المهمة في التاريخ القديم والوسيط، وكانت قبلة أهالي المدن المجاورة كونها حلقة مهمة بين أقاليم كثيرة ومفتوحة على معظم المنافذ البشرية، وهذه الخاصة جعلت من حلب واحدة من أهم المدن ولؤلؤة بلاد الشام الشمالية. وكانت السيطرة عليها تعني الإشراف على الطريق الواصلة ما بين ممرات طوروس شمالاً ومصر جنوباً وما بين البحر المتوسط غرباً<sup>(٣)</sup>.

**مناخ حلب:** لمدينة حلب مناخ قاري وصحي أي شتائها بارد وصيفها حار وتهبط درجة الحرارة شتاءً في بعض الأحيان من (٥) إلى (١٥) درجة مئوية تحت الصفر ويتجمد الماء داخل المنازل وتتجعد أنابيبها الرصاصية، في بعض الأحيان وترتفع الحرارة صيفاً إلى (٣٦) درجة في الظل. ويدوم الشتاء القارس من شهر كانون الأول حتى منتصف شباط، وكذلك يستمر الحر الشديد مدة شهرين ونصف بين تموز والنصف من أيلول، وتتراوح درجة الحرارة ما بين (٢٠ - ٣٦) درجة في الظل، بينما مناخ المدينة في بقية أشهر السنة معتدل ولطيف.

تبدأ الأمطار من شهر تشرين الأول وتستمر حتى شهر نيسان، ويسقط البرد في هذه الفترة أيضاً. وتقدر نسبة الأمطار السنوية بـ (٣٥٠) مم ورياحها عاتية بشكل عام، وتبدأ على الأغلب من الجهة الشمالية الغربية من أطراف جبال الأمانوس، التي تكون رطبة وباردة في الشتاء. بينما الرياح الشمالية الشرقية ليست حارة فحسب بل تجلب معها رمال الصحراء<sup>(٤)</sup>.

(١)- حميدة، عبد الرحمن: حلب وطريق الحرير، مجلة الحوايف، المرجع السابق، ص ٢٠٣.

(٢)- جبران، نعيان: التجارة وغرفة التجارة في حلب، مجلة الحوايف، المرجع السابق، ص ١٦٣.

(٣)- زبود، محمد: النشاط التجاري في حلب خلال القرنين العاشر والحادي عشر، مجلة الحوايف، المرجع السابق، ص ١٤٦.

(٤)- لودفازد، هورمليان: تاريخ حلب، ت: ألكسندر كشييلان، دار النهج حلب، ٢٠٠٣ م، ص ٢٤.



مياه حلب: يتفق الوضع للمائي مع الوضع المناخي والتضاريسي والجيوولوجي ، إذ تعتبر مدينة حلب فقيرة بالمياه السطحية والتي لا تعتبرى ما كان يجري من مياه نهريْن داخليين هما (فويق، والذهب) ، إضافة إلى مياه السيول المطرية في عدد من الأودية الجافة المنتهية في أحواض ومنخفضات مغلقة. أما نهر الفرات فهو أكبر مصدر مائي عذب، لكنه يجري على الهامش الشرقي لإقليم حلب. وفيما عدا ذلك يعتمد الإقليم على المياه الجوفية التي ترفع من الآبار قديماً، وتسحب بواسطة المضخات الآلية في الوقت الراهن. وقنوات الري من الفرات وأنابيب جر المياه إلى مدينة حلب، وترفع المياه الجوفية من حوض حلب الهيدروجيولوجي الذي يقدر مخزونه نحو (٤٨٠) مليون متراً مكعباً<sup>(١)</sup>.

نبات حلب: أحاطت بمدينة حلب مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة الصالحة للزراعة ، فامتدت وراءها ولا سيما إلى الغرب والجنوب الغربي بساتين أشجار الزيتون والتوت المنتشرة على الهضبة. في حين شكلت المناطق الواقعة في كل من الشمال والشرق والجنوب ، حيث تتراعى السهوب المتاخمة للصحراء ، موطن قدام شعوب القبائل من البدو والأكراد والتركمان الذين اعتادوا ارتيادها سعياً وراء المراعي الصالحة لتربية مواشيهم<sup>(٢)</sup>.

وأما المناطق الزراعية الخصبة التي تحيط بها فقد جعلتها مصدراً كبيراً للمواد الغذائية من زيت وحبوب وغيرها من المنتجات<sup>(٣)</sup>. (فإذا نظرت إلى المدينة (حلب) وأنت مقبل عليها من أي جهة تراعت لك عروساً من عرائس البلدان قد حفتها البساتين من غربها وبعض شمالها ، وكروم العنب وبساتين التين والفسنق والزيتون من بقية جهاتها)<sup>(٤)</sup>.

وأخيراً فمدينة حلب جديرة أن تعتبر في مقدمة المدن العظيمة لحسن منظرها وحصانيتها وتمول أهلها وكثرة تجارتها وعمرانها ، وكانت ولم تزل محط رحال قوافل دمشق والبصرة وإستانبول وأصفهان وهي من أمهات المدن في بر الشام وإحدى المدن الأصلية في غرب آسيا ، وقد قامت في وسطها قلعتها المشهورة كملك عظيم ، حفت به الجوارح الحسان التي هي منارات المدينة البديعة المنظر ، خصوصاً في ليالي المواسم الدينية ، حيث تكون منورة بالمصابيح التي تحاكي النجوم للزواهر<sup>(٥)</sup>.

(١) - عبد السلام، عادل؛ المرجع السابق ، ص ٢٨.

(٢) - ماسترزل ، بروس: المدينة العثمانية بين الشرق والغرب حلب ولزمير واسطنبول ، ت: زلي ديبان ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ص ٧٢.

(٣) - أنطاكي ، سمير: صورة حلب لدى الزوار والرحالة ، مجلة عاديّات حلب ، مطبعة جامعة حلب ، ٢٠٠٣ م ، ص ١٧١.

(٤) - الغزي ، كامل لبالي الحلبي: نهر الذهب في تاريخ حلب ، ٣ أجزاء ، دار الفلم العربي ، حلب ، ط ٢ ، ١٩٩٩ ، ص ٣١.

(٥) - الغزي: المصدر نفسه ، ص ٣٠.

## ب - توسع السلطنة العثمانية في بلاد الشام وأوضاع ولاية حلب:

كانت بلاد الشام تحت حكم السلاطين الأيوبيين ثم أصبحت تحت حكم السلاطين المماليك الذين حكموا بلاد الشام ومصر والحجاز واليمن ، وقد بدأت السلطنة المملوكية بالضعف. ومن الأسباب الرئيسية لذلك اكتشاف البرتغاليين رأس الرجاء الصالح الذي ساعدهم على الالتفاف حول قارة إفريقية ، مما أدى إلى تغيير مسار الطرق التجارية التي كانت تمر في البلاد العربية التابعة للمماليك .

لقد كان لاكتشاف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح ، وتهديدهم لمصالح المسلمين ، واحتلالهم لبعض المناطق في جنوب شبه الجزيرة العربية والخليج العربي آثار عميقة في مصر وبلاد الشام ، لأنها أدت إلى اضطراب الأمور وضعف الاقتصاد وفقر السكان ، ولم يعد السكان يرغبون باستمرار حكم المماليك لهم ، وذلك لفشلهم في حمايتهم من البرتغاليين ، وترافقت هذه الأوضاع مع المشكلات التي بدأت تظهر بين السلطنة المملوكية والسلطنة العثمانية عقب التوسع الصفوي في العراق ، فاصطدم الجيشان العثماني والمملوكي في ٨ شعبان ٩٢٢ هـ / ٢٣ آب ١٥١٦ م ، في معركة مرج دابق قرب حلب ، التي انتصر فيها العثمانيون ، ثم اتجه السلطان سليم الأول نحو حلب ودخلها بموافقة أهلها، وأصبح يذكر اسم السلطان العثماني على المنابر في مساجد حلب، ثم سار العثمانيون باتجاه الجنوب ، حيث تمت السيطرة على حماة وحمص ، ووصلوا دمشق التي قدم زعمائها الخضوع للعثمانيين<sup>(١)</sup>.

وبعد ذلك استكمل العثمانيون السيطرة على بلاد الشام عن طريق بعض الأمراء الذين أعلنوا الولاء وقدموا فروض الطاعة للسلطان العثماني ، وبعد تمرد جان بردي الغزالي ٩٢٧ هـ / ١٥٢٠ م قسّم العثمانيون بلاد الشام إلى ثلاث ولايات هي: الشام وحلب وطرابلس ، وقسمت السلطنة العثمانية ولاية حلب إلى الصناجق التالية: حلب مركز الولاية ، أضنة ، كلس ، بيرو جك ، بالس ، منبج ، معرة النعمان ، تركمان حلب وإعزاز ، ولم تكن هذه التقسيمات نهائية ، إذ كثيراً ما كان يلغى صنجق ما ، أو يدمج بآخر أو يؤسس صناجق جديد<sup>(٢)</sup>.

وقسمت الشام في بداية القرن الثامن عشر الميلادي إلى خمس باشويات: باشوية الشام، باشوية صيدا، باشوية فلسطين، باشوية طرابلس الشام، باشوية حلب<sup>(٣)</sup>. و ولاية حلب بحسب تخطيطها الأصلي، واسعة الأرجاء متراصة الأطراف، فهي تمتد غرباً من شرق خليج إسكندرونة حتى ضفاف نهر الفرات، وشمالاً إلى جنوب أربعين ميلاً من حلب حتى خمسين ميلاً إلى جنوب الشرق. لكن رقعتها في الواقع تقلصت كثيراً عما كانت عليه من قبل، فكّس، كانت من ولايتها، انسلخت عنها وأضحت ولاية قائمة بذاتها، بعد أن استقل

(١) - رافق ، عبد الكريم: المشرق العربي في العهد العثماني ، منشورات جامعة دمشق ، ط ٦ ، ١٩٩٩ م ، ص ٤٦ .

(٢) - رافق للمرجع نفسه ، ص ٦٨ .

(٣) - الحسني ، علي: تاريخ سورية الاقتصادي ، مطبعة بدائع الفنون دمشق ، ت ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٣ م ، ص ١٤٨ .

شر الأكراد البارلين في جبالها، وكثرة تعرضهم للقوائل بالسلب والنهب. والسبب فيه انفصلت عنها بيلار أيضاً منذ سنة ١١٦٦ هـ / ١٧٥٢ م، وأصبحت مع قرى موت والإسكندروية وبيس والجبال المحيطة بها، حكومة مستقل بديرها وجيه من أبناء بيلان، لذلك رفع إلى مقام الباشوية ذات الطوحيين<sup>(١)</sup>

**حدود ولاية حلب:** أصبحت حدود ولاية حلب سنة ١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م كما يلي:

شمالاً: قرية بايلاق الواقعة على طريق عيّناب. وشرقاً: لبادية. و جنوباً: تحدها الصحراء. وأقصى بقاع الولاية وأكثرها عمراناً وسكناً واقعة بين تحوم هذه البادية والعرب، وتعتبر سمرمين آخر مدينة أهلة في جنوب الولاية. أما في الغرب فتعتبر إبطاكية وملحقاتها آخر الحدود، وهي للحدود التي كانت إلى بصع سدير حلت تمتد حتى البحر، إذ كانت تنتهي بالإسكندرونة وبيس للتيين ألحقاً بحكومة بيلار<sup>(٢)</sup>

ومن القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر الميلاديّين تسمى لمدينة حلب، أن تكون واحدة من أهم مدن الشرق لأدنى التابعة للدولة العثمانية، ولم يفقها في الكبر إلا إسطنبول والعااهرة.

فلم يجلب الحكم العثماني لولاية حلب أي فتور على الإطلاق بل على العكس تماماً، إذ استطاعت حلب أن تفتح على أسواق جديدة في آسيا الصغرى، وأن تنشط تجارتها مع أوروبا فتحولت إلى أهم مركز تجاري في شرق البحر المتوسط<sup>(٣)</sup>

وبذلك تحولت حلب من مدينة حدودية في العهد المملوكي إلى مدينة في قلب دولة كبرى (الدولة العثمانية)، مما كان يعني توفر سوق داخلية واسعة (العراق في الشرق والأناضول في الشمال وبلاد الشام في الجنوب)<sup>(٤)</sup>

**سكان مدينة حلب:** سكنها عدد كبير من النّس يتكلمون اللغة العربية، وربما وصل تعدادهم إلى مائة وعشرين ألفاً في القرن الثامن عشر، كان معظمهم من العرب المسلمين الذين اشتركوا مع حوالي عشرين ألف مسيحي وثلاثة أو أربعة آلاف من اليهود، أما للطبيب الإنكليزي راسل فقد عدد سكان حلب في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي بـ / ٢٣٥ / ألف نسمة، أما للرحالة الفرنسي فولني الذي رار المدينة، قدر عدد سكانها بـ / ٢٠٠ / ألف نسمة، لذلك لا تتوفر إحصائيات دقيقة عن عدد السكان. لقد مير حجم السكان وحدة حلب على أنها المدينة الأم البارزة في هذه المنطقة، حيث كانت مركزاً للأعمال والتعليم،

(١) - ذات الطوحيين. يمثل السلطة العثمانية في مركز ولاية حلب شخص يلقب بالقوالي أو الباش، وعلامة رتبته طوحي (بيل حصان) يطلق على الرتبة أمامه.

(٢) - تيسون، ديمع لإعرج في حلب في القرن الثامن عشر، مطبعة المصدا، حلب، ١٩٦٩، ص ١٦٤

(٣) - غاوم، هايسر وهيرت، لويغ- حلب، ترجمة صحر علي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق،

٢٠٠٧، ص ٢٤ - ٥٢ - ٥٣

(٤) - J. sauvaget، alep، paris، ١٩٤١، p. ٢١١.

ومحطة مشهورة للتجارة الإقليمية والشرقية ، منذ اندماجها في السلطنة العثمانية عام ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م أصبحت العاصمة الإدارية لمنطقة كبيرة وشاسعة في شمال سوريا<sup>(١)</sup>

نظام الإدارة العثماني في ولاية حلب: على الرغم من أن العثمانيين تركوا في الولايات الجديدة التي فتحوها التقسيمات الإدارية التي تركها لهم المماليك نفسها ، فقد عمدوا إلى تعزيز جهاز الإدارة بشكل دائم ، فكان الباشا (الوالي) لا يعين إلا لعام واحد فقط ، وكان يعين إلى جانبه قاض ومدير مالية وفدان من إستانبول مباشرة مع الوالي ذاته. وكان الهدف لتباعد من تلك السياسة انقاء للثورات ، وذلك بمنع الباشوات من التمتع بسلطة واسعة في ولاياتهم والانفصال عن السلطة المركزية. وهكذا نجد أنه تابع على حكم ولاية حلب خلال العرون السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، أي بين ٩٢٣ - ١١٠٠ هـ / ١٥١٧ - ١٦٨٨ م ستة وسبعون والياً، وبلغ عددهم من الاحتلال العثماني حتى سنة ١٢٤٧ هـ / ١٨٣١ م أكثر من (٢٠٠) والي<sup>(٢)</sup>

وكان الباشوات (الولاة) يأتون من وسط الإداريين الأقوياء ، والسياسات العسكريين الذين كانوا قواد الجيوش في المعارك ، وواجهوا الكثير من المكائد السياسية والعنف في مسيرة عملهم الرسمي.

لقد استغلت حلب ولاة برهنوا على طاعة كبيرة تجاه الباب العالي ، الذي لم يسمح بقيام سلطة صاعدة في المدينة نظراً لقرب هذه الولاية من قلب العاصمة إستانبول، ولوقعها الاستراتيجي الذي يحكم المواصلات مع العراق وفلسطين والحجاز ومصر وسوريا.

وانصرف هم الولاة إلى المحافظة على الوضع القائم، وبالتالي تحرير التحالفات التي تؤمن الاستقرار ، وهو ما كان يتطلب الجمع بين قوة عسكرية حاصلة بالوالي وسياسة حازمة قاعدتها النبطش والعنف. وقد بلغ عدد الولاة في حلب خلال القرن الثامن عشر سبعين والياً.

وكان هناك عدد من الموظفين المرتبطين شخصياً بالوالي، وأبرزهم القائم مقام أو المتسلم، الذي يسوب عن الوالي في أمور الحكم في حال غيابه ويبدو أن تعيين المتسلم يتم بناءً على رغبة الوالي، إلا أن تثبت هؤلاء كان يتم في العاصمة.

وبالرغم من أن الباشوات يمثلون السلطان في ولاياتهم ، إلا أن سلطتهم لم تكن مطلقة من الناحية النظرية، فقد مارس الباب العالي رفادته من خلال نظام مؤلف من أربعة عناصر هي: الباشا، والقاضي، والعسكر، والنفتردار. فقد كان تنفيد أحكام الشريعة وحل النزاعات المدنية والإشراف على شؤون الحياة اليومية بأيدي الفضلاء الذين يعيرون من إستانبول، كان هؤلاء يمارسون صلاحياتهم باستقلالية تامة عن الوالي.

(١) - ماركوس ، إبراهيم الشرق الأوسط عشية لحدثة حلب في فتر الثامن عشر ، ت. هيثم حمام، مطبعة جامعة حلب ، ٢٠٠٦ م.

(٢) - حميدة ، عبد الرحمن: محافظة حلب ، منشورات وزارة ثقافة ، دمشق ، ١٩٩٢ ، ص ٤٢.

أما الدفتر فإن فقد كل بشرف على حسابات الولاية، ويتولى وظيفته بمقتضى فرمان من العاصمة ، وعندما كان يتم نقل الولاية أو عزلهم كان للدفتر دالر يجري الحسابات اللازمة لتسوية الدمة أو للمصادرة إذا ما منع ذلك ، لقد تمكن أصحاب هذا المنصب بعبود كبير ، كما كان في الولاية فرق من الانكشارية مكلفة بمهمات محددة من الباب العالي<sup>(١)</sup>

## ج - الامتيازات الأجنبية المنوحة من السلطنة العثمانية للدول الأوروبية (Capitulation):

كان أول عمل قام به العثمانيون بعد استخلاص مصر وبلاد الشام من المماليك الذين عجزوا عن مقاومة البرتغاليين ، هو إرسال الأساطيل العثمانية إلى البحار العربية في عدة حملات وصلت إلى الهند وإلى البصرة عن طريق مباء السويس والبحر الأحمر والبحار العربية ، لغك الحصار الذي فرضه البرتغاليون ولاخترق تطويقهم للسواحل العربية<sup>(٢)</sup> . إضافة إلى تشجيع التجارة الأوروبية في البلاد العربية، وإعادة أسباب التجارة إليها عن طريق تقديم السلطنة مجموعة من التسهيلات والإغراءات لجذب التجار الأوروبيين، لإعادة النشاط الاقتصادي للبلاد العربية. ولقد أصبحت البلاد العربية التي دخلت تحت السيادة العثمانية منذ القرن السادس عشر ولايات تابعة لها ، وترتب على هذا الوضع القانوني للولايات العربية، حرمانها من ممارسة سيادتها في الخارج ، إلا عن طريق الدولة العثمانية التي تتولى تمثيلها وتقوم على تصريف الشؤون الخارجية. وتقرم الولايات العربية بتعديد المعاهدات التي تعقدها الدولة العثمانية مع الدول الأجنبية<sup>(٣)</sup>.

وكان من بين النظم السائدة في الدولة العثمانية النظم الخاصة بالأجانب من رعايا الدول الأوروبية، وعلى وجه الخصوص للتجار الأجانب المقيمون في إسطنبول، ولقد وصفت الدولة العثمانية نظاماً خاصاً لهم يعرف باسم نظام الامتيازات (Capitulation)، وعاشت مجموعة من هؤلاء الأجانب طبقاً لما نصت عليه المعاهدات الرسمية التي أبرمتها السلطنة مع حاكم الدولة التي تنتمي إليها هذه المجموعة فقامت السلطنة ومنذ البداية على تنظيم إقامة هؤلاء الأجانب في داخل السلطنة العثمانية ، حيث عقد كل من السلاطين (بايزيد الأول ومحمد الأول ومراد الثاني) اتفاقيات مع البندقية وجوه لتنظيم المسألة<sup>(٤)</sup>.

(١) - عبد الحفي ، عماد. السلطة في بلاد الشام في القرن الثامن عشر، دار النفائس بيروت ، ص ٦١ - ٦٢ - ٦٣ - ١٠٢.

(٢) طريبي ، أحمد- تاريخ المشرق العربي المعاصر ، منشورات جامعة دمشق ، ط ٧ ، ٢٠٠٠ م ، ص ٢٢.

(٣) - الشاذلي ، عبد العزيز. الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٢ ١٩٨٦ م ، ص ٧٧٧.

(٤) - عمر ، عبد العزيز. عمر تاريخ المشرق العربي ١٥١٦ - ١٩٢٢ م ، دار النهضة ، بيروت ١٩٨٥ ، ص ٦١.

والامتيازات الأجنبية: هي للمعاهدات المتضمنة المبادئ القانونية لإقامة المستأمنين<sup>(١)</sup> من رعايا الدول الأجنبية في ممتلكات الدولة العثمانية، لممارسة نشاطهم التجاري المشروع فيها، وتقرير حق رعايا الدولة العثمانية المقيمين في أراضي تلك الدول في مزايا هذه المبادئ عليهم<sup>(٢)</sup>، لذلك بدأت الامتيازات في السلطنة إبان عظمها ، وكانت في بداية الأمر بمثابة تسهيلات يمنحها السلطان العثماني من جانبه وطواعية إلى التجار الأجانب. وكان باستطاعته سحبها في أي وقت شاء<sup>(٣)</sup> لذلك عقد السلطان سليم الأول معاهدة مع البندقية ٢٢ محرم ٩٢٣ هـ / ١٤ شباط ١٥١٧ م وجاء بعده ابنه السلطان سليمان القانوني فحظا خطوات مهمة في سياسة لفتح الدولة العثمانية تجارياً على عدد من الدول الأوروبية، فعقد مع فرانسوا الأول<sup>(٤)</sup> ملك فرنسا معاهدة عام ٩٤٢ هـ / ١٥٣٥ م. جددت فيها للدولة العثمانية الامتيازات التي سبق أن منحها سلاطين المماليك للفرنسيين وأهل كاثولونيا. وكانت المعاهدة الجديدة تكفل لتجار فرنسا ورعاياها الأمن والطمأنينة على أرواحهم وأموالهم ومتاجرهم في إنشاء وجودهم في أراضي الدولة العثمانية ، وتكفل لهم حرية التجارة والنقل براً وبحراً دون أن يمسهم سوء ، ودون أن يتعرضوا لمصادقات من السلطات العثمانية، وقطعهم إقامتهم في خانات خاصة بهم ، وعدم المساس بكنائسهم ، وعدم فرض ضرائب عقارية عليها ، ومنع السفن العثمانية التي تقوم برحلات بحرية بين إسطنبول وموانئ الشام ومصر من عرقلة نشاط السفن الفرنسية التي تعمل على هذه الخطوط للملاحة<sup>(٥)</sup>.

وكانت معاهدة عام ٩٤٢ هـ / ١٥٣٥ م. مبدأ لعقد معاهدات أكثر شمولاً بين فرنسا والدولة العثمانية، نتيجة للعلاقة الجيدة بين الملك فرانسوا الأول والسلطان سليمان القانوني ، عرفت باسم (معاهدة صداقة وتجارة بين السلطنة العثمانية وفرنسا)، وتقرر فيها منح تجار فرنسا وسائر رعاياها الذين يسافرون إلى أقاليم الدولة العثمانية منى الامتيازات في مقابل منح للرعايا العثمانيين امتيازات معادلة لها تقريباً<sup>(٦)</sup> وتفسير قبول السلطان سليمان القانوني للتحالف مع الملك فرانسوا الأول ، أنه أراد أن يعهم الملوك المسيحيين الذين كانوا يعادونه بدافع الدين، أن صداقته معيدة وأن من يتقرب منه يلق حباً ورجس مبالغ

(١) - المستأمنين مصطلح فقهي إسلامي ، وهم من رعايا الدول الأجنبية في أراضي سلطنة العثمانية لممارسة نشاطهم التجاري المشروع فيها، بأمان معتمد لمدة لهم وعلى خلاف المستأمنين لا يحترق المنيون أجانب عن الجماعة الإسلامية. لأنهم يقومون في دار الإسلام بأعمال موبد

(٢) - للشدوي: المرجع السابق ، ص ٧٢١.

(٣) - نوتسكي ، غلامير ، تاريخ الأقطار العربية الحديث ، دار الفقه ، موسكو ، ١٩٩٢ م ، ص ٢١

(٤) - فرانسوا الأول ملك فرنسا / ١٤٩٤ - ١٥٤٧ م / تولى الحكم / ١٥١٥ م ، حصص مجموعة حروب بسبب بدعائه أن له حقوق على ولاية ميلان وبيطاني. حارب شارلوكلي ملك اسبانيا وتحالف مع سلطان سليمان القانوني مما هيج الرأي العام الأوروبي ضده.

(٥) - المحامي ، محمد هريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ب. إحصان حقي ، دار الفقه ، ط ٨ ، بيروت ، ١٩٩٨ م ، ص ٢٢٤

(٦) - للشدوي. المرجع السابق ، ص ٧١٨.

وامتيازات كثيرة. فكان في هذا بعيد النظر، واسع الحيلة، فقلب للتوازن الأوروبي القديم رأساً على عقب ودخل المحافل الدولية من أبوابها للوسعة، كما أراد السلطان سليمان القانوني من تحالفه مع الملك فرانسوا الأول، منع فرنسا من الانضمام إلى التحالف الأوروبي ضد الدولة العثمانية، فأصبحت السلطة العثمانية دولة لها كلمتها المسبوبة، ورأيها المحترم في تقرير السياسة العامة وفي استقرار الأوضاع الأوروبية أو تغييرها<sup>(١)</sup>

كما أراد السلطان سليمان القانوني أن يعيد الطريق التجاري إلى البحر المتوسط، بعد أن تحول إلى رأس الرجاء الصالح وذلك بإعطاء امتيازات، وعقد معاهدات مع الإيطاليين ثم الفرنسيين والإنكليز ليشجعهم على الإبحار على هذه الطريق، ولكن أولئك الأوروبيين جميعاً كانوا يبدون للسلطان رغبتهم في التحول، ويعملوا على الكيد له في الحفاء. لقد لبس السلاطين العثمانيون أنه لا قيمة لهذه الاتفاقيات ما دامت القوة بأيديهم، حيث يلغونها متى شاؤوا، ويمحوها متى أرادوا. وهذا ما حصل فعندما بدأ الضعف يتسلل إلى جسم السلطنة، أصبحت تلك الاتفاقيات قوة لهؤلاء الأجانب أولاً ولرعاياهم النصاري من مواطني الدولة العثمانية ثانياً، لذلك كانت الامتيازات في البدء بسيطة، لكن نجم عنها تعقيدات كثيرة فيما بعد، فقد حولت الامتيازات إلى اتفاقيات ثنائية، فأصبح بإمكان السفن الفرنسية دخول الموانئ العثمانية تحت العلم الفرنسي، ومنح الروس حرية زيارة الأماكن المقدسة، والإشراف عليها وحرية ممارسة الطقوس الدينية هناك، ثم أصبحت مع مرور الزمن وكأنها حقوق مكتسبة<sup>(٢)</sup>.

ومنذ ذلك الوقت شرعت الدول الأوروبية تتنافس إليها، وتتسابق إلى كنف عواهلها ملتصقة بالامتيازات، بينما صار سلطانها المنتصر المحفوف بالإجلال لا يبالي في تصرفاته الدبلوماسية بمعاملة سائر الدول على اعتباره السيد الأعظم، وأى على هذه الدول واجب الطاعة وللخضوع لمشيئته<sup>(٣)</sup>

ولم يمض وقت طويل حتى أقرت الدولة العثمانية لمختلف الدول الأوروبية، وفي معاهدات عدة، بالحقوق التي منحتها السلطنة لفرنسا حيث التزمت بها لإنكلترا عام ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م، وللهولندا عام ١٠٢١ هـ / ١٦١٢ م، وللسويد عام ١١٥٠ هـ / ١٧٣٧ م، ولروسيا عام ١١٨٦ هـ / ١٧٦٧ م ولأسبانيا عام ١١٩٧ هـ / ١٧٨٢ م، ولروسيا ١٢١٢ هـ / ١٧٩٨ م<sup>(٤)</sup>.

وجعلت الامتيازات الأوروبية يؤمّنون البلاد العثمانية، ويعملون بها، ويرتفعون منها، وكانوا يتمتعون بامتيازات خاصة تجعلهم مفصلين على أهل البلاد العثمانية في ميداني القضاء والاقتصاد<sup>(٥)</sup>.

(١) - اسماعيل، عادل وإميل خوري: السياسة الدولية في الشرق العربي، دار نشر النهضة والتاريخ، بيروت ١٩٥٩ م، ص ١٥

(٢) - حصرون، علي: الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية، المكتب الإسلامي، ص ٧٦.

(٣) - بهم، محمد جميل العرب والتر في الصراع بين الشرق والغرب، ١٩٥٧ م، ص ١٠٤.

(٤) - العتبت، محمد علي العرب والشرق من الحروب للصنيفة إلى حرب السويس، مطابع الدار القومية، ص ١٩٥.

(٥) - الحصري، ساطع: البلاد العربية والدولة العثمانية، دار العلم للملايين، ط ٢، بيروت، ١٩٦٠ م، ص ١٤٣

ودراءً لكل إهراط في الإقادة من هذه الامتيازات، ومنعاً لكل توسع في تصيرها كان كل من الأباطرة والسلطين يحرصون عد منحها على النص بأنها تنتهي بانتهاء حياته ، فكانت للدول الأجنبية مصطرة إلى تجديدها كلما قام سلطان جديد في معاضات خاصة، وكانت الامتيازات تقضي دائماً بالترام الدولة التي نالها سياسة الصدقة مع الدول المانحة، وإذا مالت عن روح الصدقة أصبح السلطان في حل من تعهداته<sup>(١)</sup>

وهناك من يقول أن ضعف السلطنة العثمانية ومركزها الحرج تجاه الدول الأوروبية، كانا السبب في منح هذه الامتيازات وهذا القول فاسد، لأن السلطنة العثمانية منحت أهم الامتيازات في أيام مجدها وروها وقوتها ، فربما كانت امتيازاتها من السلطان سليمان القانوني - من سلطان ذات له مشارق الأرض ومعاربها وحقق علمه فوق القمم الأكبر من العالم - فلا يمكن أن نعزو السبب إلى ضعف السلطنة<sup>(٢)</sup>.

وكانت سياسة العثمانيين الخارجية تستهدف استمرار العلاقات الخارجية مع الغرب الأوروبي، ومن ثم الاسترسال في التجارة البحرية مع البنادقة ثم الفرنسيين والإنكليز والهولنديين، واستعمال الطرق البرية التي تصل إلى شمال أوروبا، في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية تكون علاقات تجارية مع البلدان الواقعة على المحيط الهندي، بالإضافة إلى بلدان غرب آسيا وإفريقيا<sup>(٣)</sup>. بهدف تحسين الأوضاع الاقتصادية في السلطنة العثمانية.

وعندما تعرضت السلطنة العثمانية لهزائم عسكرية أليمة أمام الجيوش الأوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ووجدت الدول في هذه الهزائم مشجعاً لها على مزيد من التدخل أكثر مما نصبت عليه منح الامتيازات التي قامت أصلاً على أساس تبادل الحقوق والواجبات بين المستأمنين الأوروبيين في السلطنة والرعايا العثمانيين في الدول الأوروبية، فقد أصبحت هذه المعاهدات غمراً على الدولة العثمانية ومغماً للمستأمنين الأوروبيين<sup>(٤)</sup>

وبذلك أصبح مبدأ المعاملة بالمثل غير وارد لدى الدول الأوروبية، فأصبح لدى كل دولة الجرأة الكافية، لتطالب بحاليتها على أراضي السلطنة العثمانية تنظيمات عامة وقصائماً مشابهة لما هو عليه في بلادها، متناسية بأن للسلطنة الحق في أي لحظة نقص العهد الذي منحته عن طيب خاطر.

(١) - إسماعيل ، و حوري: المرجع السابق ، ص ٢٠

(٢) - مشهور ، عبد الله. الامتيازات الأجنبية ، المطبعة الأدبية ، بيروت ، ١٩٢٢ م ، ص ٢٢.

(٣) - أحمد . صلاح الجاليات في منية الإسكندرية في العصر العثماني، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الإسكندرية، ط ١ ، ٢٠٠٤ م، ص ٧٠.

(٤) - الشديري المرجع السابق ، ص ٧٢٨.



## د - أسباب اهتمام الأوروبيين ببلاد الشام عامة وحلب خاصة:

إن تدفق الأوروبيين بعد حصول دولهم على امتيازات تجارية سهلت لهم الحركة والانتقال من مكان إلى آخر بأمان، وحفظت لهم أموالهم وممتلكاتهم وتجاريتهم، وأمنت لهم حتى مساكنهم، لذلك جاؤوا يحويون بلاد الشام ويكتشفون خباياها، ولعل أبرز الأسباب لمجيئهم الحصول على الثروات وهناك مجموعة من الأسباب التي دفعت هؤلاء الأوروبيين للقدوم إلى بلاد الشام والاستقرار في ربوعها واليهل من خيراتها وأهمها:

١ - كانت لبلاد الشام أوصاف خاصة بها اختلفت اختلافاً جديراً عن غيرها من الولايات العربية، فقد أسهمت هذه الأوصاف في قيام اتصال وثيق ومستمر بين ولايات بلاد الشام (لشام - حلب - طرابلس الشام)، وأوروبا طوال الحكم العثماني ٩٢٢ - ١٣٣٧ هـ / ١٥١٦ - ١٩١٨ م، حيث كانت العزلة مع أوروبا معدومة، وذلك لأن بلاد الشام لم تخضع لحكومة مركزية واحدة، بل قسمت إلى عدة ولايات، وكانت كل ولاية مستقلة عن الأخرى، وكان يطلق على حاكم كل منها لقب والٍ أو باشا، وكان رئيساً للسلطة في ولايته مسؤولاً عن ضمان استمرار ولايتها للسلطان وتوفير العدالة والأمن للسكان، ولكنه لم يكن يتدخل في تنفيذ مشروعات اقتصادية واجتماعية<sup>(١)</sup>.

وهذا ما أتاح المجال لدى الأوروبيين القادمين إلى بلاد الشام وولاياته، بأن يتحركو بحرية مستفيدين من توفر العدالة والأمن، وهما شرطان ضروريان لاستمرار وانتشار التجارة بالإصافة إلى إفساح المجال للأوروبيين للقيام بمشاريع تجارية واقتصادية، وكذلك كان سكان بلاد الشام يهتمون بالتجارة، منذ القديم، ويرور فيها وسيلة لتحسين أوضاعهم المادية من خلال الأرباح، لذلك كان تهافت الدول الأوروبية للحصول على امكبرات، وافتتاح انصليات في المدن الساحلية والداخلية في بلاد الشام، وكذلك التنوع الحضاري الكبير التي تتميز به بلاد الشام عما سواها وهذا للتنوع (بشري ولغوي وديني)<sup>(٢)</sup>.

٢- كانت بلاد الشام على مر العصور مركزاً تجارياً مهماً لتوسطها العالم، وانصاليها السهل بالفقارات الثلاث، ولوقوعها على طرق التبادل التجاري الكبرى، لذلك ترى للقوافل التجارية المحملة ببضائع الهند وإفريقية تعبر الشام من جنوبها، وتجتازها عبر الطريق العالمية وتصب ما تحمل في المدن الداخلية، وعلى السواحل الشامية حيث تنقل منها بعيداً إلى أوروبا<sup>(٣)</sup>.

٣- القرارات الاقتصادية العثمانية التي خدمت الأجانب أكثر من رعاية السلطنة العثمانية، ففي معاهدات السلطنة العثمانية التجارية مع الدول الأوروبية، فرضت رسماً مقداره (٤ %) على الأجانب الذين يرادون

(١) - غرابية : عبد الكريم، سورية في القرن التاسع عشر الميلادي ١٨٤٠ - ١٨٧٦ م ، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالمية للتابع لجامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٦١ - ١٩٦٢ م ، ص ١٦٢.

(٢) الشدوي المرجع السابق ، ص ٧٣٧

(٣) - صبح لبيبي المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٧٣ م ، ص ١٨٣

التجارة، بينما فرصت على التجار العثمانيين رسماً مقداره أضعاف الرسم المذكور، كما فرضت السلطنة رسم تصدير قدره (٩ %) من قيمة البضائع المصدرة، في الوقت الذي فرصت فيه رسم استيراد مقداره (٢ %) من قيمة البضائع المستوردة، وكأنها تشجع الاستيراد على حساب التصدير<sup>(١)</sup>.

٤- تميزت ولاية حلب دون سواها من ولايات بلاد الشام بموقع جغرافي مهم جداً، تمكنت من خلال موقعها كمدينة (عبور) على طريق القوافل، مما وفر في أسواقها البضائع الآتية من الشرق والعرب، كذلك تميزت بإنتاجها الذاتي الذي دخل كمورد اقتصادي في تجارتها<sup>(٢)</sup>.

٥- فاقت حلب جميع مدن السلطنة العثمانية بما فيها إسطنبول نفسها، وبذلك أصبحت كمسوق رئيسية للشرق كله، وعقدة مواصلات للتجارة العالمية ما بين الخليج العربي والأستانة وشرق المتوسط، ومحطة كبرى لحج نسلي ما بين النهرين وكرديستان<sup>(٣)</sup>.

٦- إن حلب مدينة اتصال ومركزها الإستراتيجي أتاح لـ تكون نقطة التوصل بين بلاد الرافدين والأناصول من جهة، وسورية ومصر ولسطيين من جهة أخرى، لذلك كان عدد الأوروبيين الذين يقطنون حلب يتجاوز عدد القاطنين في دمشق، نظراً لكون حلب أقرب منفذ للاتصال بين الشرق والغرب<sup>(٤)</sup>.

٧- أفضلية الطرق البرية مع الهند، بالمقارنة مع الطرق البحرية التي أصبحت تعج بالقراصنة خلال القرن السادس عشر الميلادي، مما جعل من حلب مركزاً مهماً في الطريق البري الممتد من الهند إلى شرق المتوسط، بالإضافة إلى تزايد أهمية الحرير في الاقتصاد الأوروبي في القرن السادس عشر الميلادي، مما جعل حلب مركزاً مهماً لتحرير وتوريد الحرير إلى أوروبا، نظراً لموقعها المتوسط بين المناطق المنتجة له في بلاد فارس والبلاد المستوردة له أي أوروبا<sup>(٥)</sup>.

٨- كون حلب مركزاً للتجارة الدولية يتم فيها استقبال وتوزيع منتجات أوروبا المصنعة في بلاد الشرق، وتحضير مواد الشرق الأولية قبل إعادة تصديرها إلى أوروبا، كما كانت في الوقت نفسه مركز التجارة المحلية في السلطنة، ولها علاقات تجارية تربطها بدمشق وأنطاكية وطرابلس واللاذقية<sup>(٦)</sup>.

(١) - هلال ، فراد: التحولات الثقافية والاقتصادية المهمة في حلب خلال ثلاثة قرون القصية ، مجلة عاديات حلب ، مطبعة جامعة حلب ، ٢٠٠٣ م ، ص ٣٥٤

(٢) - ناجي، عبد الجبار: دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ص ٣١٩

(٣) - لأسدي، خير الدين: أحياء حلب وأسواقها، د. عبد القادر رواس قلعة جي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٦ م، ص ٤٨

(٤) - الدباع، عائشة. الحركة الفكرية في حلب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ومطلع القرن العشرين، دار الفكر ، بيروت، ط ١، ١٩٧٢ م، ص ٢٨

(٥) - الأربؤوط، محمد - مشاف محمد ياشا نوكاجين في حلب، مجلة الفحوليت، المراجع السابق، ص ١٩٦.

(٦) - العولز ، فوزي. حوانث حلب لليومية ١٧٧١ - ١٨٠٥ م ، دار شعاع للنشر والطوم ، حلب ، ط ١ ، ٢٠٠٦ م ، ص ٤٤ .

## هـ - بداية وجود الجاليات الأوروبية في ولاية حلب:

عندما دخلت البلاد العربية تحت حكم السلطنة العثمانية في القرن السادس عشر الميلادي، حاول العثمانيون القضاء على احتكار البرتغاليين لتجارة الشرق الأقصى، وردهم عن أطراف الجزيرة العربية حربيًا، وذلك بمحاولتهم السيطرة على طرق للتجارة البرية ضمن البلاد العربية، ويعتقد أنهم اتفقيات تجارية مع الدول الأوروبية المختلفة (فرنسا وإنجلترا والبنديقية وهولندا) وإعطائها امتيازات تجارية مهمة، منها حق التجارة والإقامة في الموانئ والمدن العثمانية ونحives الرسوم الجمركية على البضائع الواردة والصادرة، وحق وجود قناصل لها يتمتعون بالسلطة على مواطنيهم داخل الدولة العثمانية<sup>(١)</sup>.

ومن هنا أخذت الدول الأوروبية ترسل رعاياها إلى المدن الساحلية والداخلية في الدولة العثمانية، على شكل مجموعات للعمل بالمشاط التجاري، والاستفادة من حيرات البلاد المهاجر إليها، وقبل الحوص في الحديث عن الجاليات الأوروبية وبدء استقرارها في الولايات العربية التابعة للسلطنة العثمانية وخصوصاً ولاية حلب، يلزم التعرف على مفهوم الجالية من خلال العودة إلى معاجم اللغة. وقد تبين أن لفظ جالية اشتق من فعل جلا وجلا القوم عن أوطانهم بجلوس، إذا خرجوا منها إلى بلاد أخرى<sup>(٢)</sup>.

ومنذ القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي فتح الوطن العربي أبواب تجارته الخارجية للأوروبيين، وبخاصة الإيطاليين منهم وجاءت حروب الفرنجة ٤٩٥ - ٦٩٠ هـ / ١٠٩٦ - ١٢٩١ م، وساعدت على تقوية نجرة الأوروبيين تلك، وعندما انتهت تلك الحروب، بقيت المدن الإيطالية في علاقاتها التجارية مع الوطن العربي<sup>(٣)</sup>.

وبذلك بدأ الأوروبيون بتنظيم علاقاتهم التجارية مع حلب، مد أن وقع أمير البنديقية مع الملك الظاهر غازي الأيوبي اتفاقاً في العام ٦٠٥ هـ / ١٢٠٨ م بصمن إقامة البنادقة في حلب وحمايتهم، حيث استقبل الملك غازي سفير البنديقية بيتر مارينياني في قلعة حلب، وخصص للبنادقة في حلب فندقاً وحماماً وكنيسة، وقد أعيد تثبيت الاتفاق في عام ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ م وفي عام ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م. استمرت العلاقات التجارية قائمة مع المدن الإيطالية (جوة - بيرا - للبنديقية) أيام المماليك ٦٥٩ - ٩٢٣ هـ / ١٢٦٠ - ١٥١٧ م. وبدخول العثمانيين البلاد العربية واتساع رقعة السلطنة العثمانية، أصبحت حلب إحدى أكبر الولايات في الدولة العثمانية<sup>(٤)</sup>.

(١) - الحكيم، دعم. للتجارة وحرقة التجارة في حلب من خلال الأوامر السلطانية، مجلة الحوليات، للمرجع السابق، ص ١٥٦.

(٢) - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد ١٤، ص ١٤٩.

(٣) - الصباح، ليليل: تاريخ العرب الحديث والمعاصر، مطبعة ابن حبان، دمشق، ١٩٨٢ م، ص ١٨٢.

(٤) - حجار، عبد الله؛ إحصاءات حلبية، المكتبة القرنية، جامعة حلب، ط ١، ٢٠٠٥ م، ص ٨٩ - ٩٠.

نظراً لأهميتها الاقتصادية واستقرارها السياسي، قامت الكثير من الدول الأوروبية بفتح قنصليات تجارية في حلب لرعاية مصالحها التجارية وعقدت اتفاقيات ثنائية. كما عينت للدول الأوروبية سفراء ممثلين لها في إسطنبول وقبضل في حلب، وأحدثت الدول الأوروبية وعلى رأسها فرنسا نتجه بأطوارها نحو السلطنة العثمانية، للحصول على المواد الأولية لتسيير آلة صناعة العرب ومن ثم لتسويق بضاعها، فهيمس التجار الأوروبيون داخل السلطنة العثمانية هيمنة كاملة على عملية التبادل التجاري، وكان لفرنسا دور بارز في هذا المصمار، وكانت الشام نقطة بارزة فيه<sup>(١)</sup>، لكن جمهورية البندقية التي كان لها علاقات مبكرة مع سورية وحلب بالذات منذ أيام الأيوبيين، حيث ارتبطت بعلاقات مع سورية منذ ولادتها كجمهورية، وحتى روالها حيث دامت هذه العلاقات وبلا انقطاع فترة (٧٠٠) سنة متتالية، حتى زوال البندقية كدولة مستقلة عندما احتلها نابليون عام ١٢١٢ هـ / ١٧٩٧ م<sup>(٢)</sup>. وكان للتجار البنادقة، حاس يسمى حاس البنادقة، فقد أسس البندقيان ألبانو وماركو موريسي شركة تجارية في حلب لشراء الفطر الجيد، كما نقلوا المركز الرئيسي لشركتهم من البندقية إلى حلب<sup>(٣)</sup>. وفي عام ٩٤٦ هـ / ١٥٣٩ م أحد البنادقة بيتاً وقنصلية وكنيسة لهم في حاس الحامير، وأصبح القنصل البندقي مرجعاً لكل الأجانب، وقد حل معظم الرحالة الذين تكلموا عن حلب، في بيته وتحدثوا عنه وعن جاليته<sup>(٤)</sup>.

أما بالنسبة لفرنسا فتبدأ العلاقات التجارية الحقيقية بين فرنسا والشرق بعد توقيع اتفاقية ٩٤٢ هـ / ١٥٣٥ م بدأ عهد جديد بين فرنسا والسلطنة العثمانية، وتأسست القنصلية الفرنسية في حلب في حاس الجمرك عام ٩٧٠ هـ / ١٥٦٢ م، وكان أول ممثل للملك العربي في حلب (Geanr renier)، وكانت فرنسا والسلطنة العثمانية تثمان عالياً أهمية حلب الاستثنائية معتبرينها أول مدينة في سورية، وأرفع شأناً حتى من دمشق<sup>(٥)</sup>.

وقد سعت فرنسا بعد أن حصلت على الامتيازات لاحتكار التجارة في سورية وإبعاد البنادقة عن مافستها، ولكن مساعيها لم تصطدم بمقاومة البندقية فحسب، وإنما ظهر منافسون جدد وهم التجار الإنكليز الذين تنبهوا للقيمة التجارية في هذه البقاع في القرن السادس عشر الميلادي، وفي عام ٩٦١ هـ / ١٥٥٣ م كان أحد التجار الإنكليز أنطوني جينكيسون في مدينة حلب، والتقى فيها بالسلطان العثماني سليمان القانوني الذي كان يستعد فيها لحملة ضد فارس، وطلب إليه أن يحمي تجاره ومماليه وشركاءه، وأن يعطي حريسة

(١) - رجائي، محمد المصلح الفرنسية الاقتصادية في سورية، مجلة دراسات تاريخية، ع ٢٧، ٢٨، ١٩٨٧ م، ص ٣٤

(٢) - كوستانجي، فير، علاقات البندقية التجارية مع حلب، ت. نبيل الله، مجلة جمعية العاديات بحلب، المرجع السابق، ص ٢٥٠

(٣) - الحمصلي، داير، حلب القديمة، منشورات المديرية العامة للتأثير والمتاحف، دمشق، ١٩٨٣ م، ص ١٤

(٤) - حريثاني، محمود حلب وعلاقاتها الدولية عبر التاريخ، مجلة اقتصاديات حلب، ع ٣، دفء لوفاء للطبعة حلب، ١٩٩٢ م، ص ٥٨

(٥) - سورميون، المرجع السابق، ص ٣٧٥

التجارة في السلطنة على نفس الأسس المعطاة للدائفة والفرنسيين ، واستجاب السلطان لطلبه ، وسمح له ولشركائه بحلب بصائعهم إلى الموانئ العثمانية على مراكب إنكليزية تحت العلم الفرنسي ، وسعت الملكة إليزابيث لعقد معاهدة تجارية مع الدولة العثمانية على غرار معاهدة للملك فرانسوا الأول والسلطان سليمان القانوني ، وعلى الرغم من معارضة الفرنسيين ، فإن المفاوضات استمرت بين العثمانيين والإنكليز وأثمرت في عام ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م معاهدة بين الطرفين ، وفيها لثنان وعشرون بنداً عن الحريات المعطاة للرعايا الإنكليز المتاحرين في السلطنة العثمانية<sup>(١)</sup>. وفي عام ٩٩١ هـ / ١٥٨٣ م أسس ريتشارد هيوستر أول قنصلية إنكليزية في حلب اشرفت عليها إكلترا وشركة للبيانات<sup>(٢)</sup>

وأما هولندا: فعندما توفي الملك الفرنسي هنري الرابع، تصعبت العلاقات الودية بين السلطنة العثمانية وفرنسا، فاعتمها الهولنديون فرصة، وتمكنوا من الحصول عام ١٠٢١ هـ / ١٦١٢ م على امتيازات بالتجارة في السلطنة العثمانية بحماية علمهم الخاص، وكانوا قبل ذلك في حماية العلم الفرنسي ، كما كان الإنكليز والهولنديون يجلبون إلى السلطنة البارود والحديد والعتاد العسكري وهي مواد كان البابا قد حرم على الدول الكاثوليكية الإتجار بها مع السلطنة العثمانية<sup>(٣)</sup>. لذا بدأ الهولنديون بإقامة جالية في حلب وطوروا نشاطهم بالتفتيش عن المنتجات الثمينة الآتية من الهند وبلاد فارس والجزيرة العربية ، فأول تساجر هولندي معروف ، قام بالتجارة في حلب ، يدعى بييربوت الذي غادر بلاده ليكتشف بلاد الشرق لصالح تجارته ، وقد رار سورية ومصر والجزيرة العربية ، واستقر لبعض الوقت في حلب حيث كسب ثروة كبيرة جراء ذلك. ومنذ منتصف القرن السادس عشر حصلت فرنسا من الباب العالي على الامتيازات التي أودحت لها أن تتاجر بحرية في جميع أرجاء السلطنة العثمانية ، وقام التجار الهولنديون بوضع أنفسهم تحت حمايتهم ، بقصد الإفادة من الامتيازات نفسها.

وفي عام ١٠٢٢ هـ / ١٦١٣ م عانى التجار الإنكليز من مهادنة التجار الهولنديين إذ أن تجارتهم لم تكن تشكل سوى نصف تجارة الهولنديين ، ولقد صاحبت هذه الريادة في التجارة الهولندية بكل تأكيد زيادة في الجالية الهولندية في حلب، همد أن كانت وكاليتين أو ثلاث في عام ١٠١٣ هـ / ١٦٠٤ م، أصبحت قرابة العشرين وكالة عام ١٠٢٤ هـ / ١٦١٥ م ، مما أدى إلى الشعور بالحاجة لتسمية فنصل ليقوم بتمثيلهم وحمايتهم<sup>(٤)</sup>

(١) - صباغ المجمع العربي ، المرجع السابق ، ص ١٠٦.

(٢) - البيانات - مصطلح يعني للشرق (الجزء الشرقي من البحر الأبيض المتوسط) ويطلق عموماً على البلدان المجاورة للبحر المذكور الشرقي ، وأصبحت الدول الأوروبية هذه التسمية على شركاتها التي اهتمت بالأمور التجارية في الشرق

(٣) - سمعيل المرجع السابق ، ص ٢٢ - ٢٣.

(٤) - المدرس ، حسين و أوليوية سالمون: العلاقات بين البلاد المنخفضة وسورية العثمانية في القرن السابع عشر وأربعائة عام من العلاقات القنصلية ١٦٠٧ - ٢٠٠٧ م، ت ، محمود حريتي ، قيد النشر ، ص ٢٩.

لقد كانت حلب من بين المواقع التي أصحبت بالتأثير الأوروبي ، وقد حافظت إنكلترا وفرنسا وهولندا والمدن الإيطالية على فصليات في المدينة، كما أن تجاراً من بلدان أوروبية ، وفي قرون مكررة احتاروا حلب كمحطة موصلة لتجارهم مع الشرق، وتخصيص أحياء سكنية دائمة في وسطها التجاري. ونظراً لوقوعها على مفترق طرق التجارة المهمة للإقليم، وتقربها من الموانئ من البحر الأبيض المتوسط، قدمت حلب مراراً لرجال الأعمال الأوروبيين تتماشى مع مراكز مدينة أخرى قليلة العدد من السكان المسيحيين. ومع ذلك فإن المدينة استقبلت إرساليات تبشيرية كاثوليكية وغير كاثوليكية ، حيث وجدت في حلب أرضاً خصبة لعملها الديني<sup>(١)</sup>.

.....

(١) - ماركول. المصدر السابق ، ص ٣٨.

## **الفصل الأول:**

**النظام الإداري للجاليات الأوروبية في ولاية حلب**

**السلطات الوطنية التي ترتبط بها إدارة الجاليات في بلادها الأصلية.**

**السفراء الأوروبيون في العاصمة العثمانية (إستانبول).**

**القناصل الأوروبيون في ولاية حلب.**

**الهيئة الإدارية والعاملون في القنصليات الأوروبية في ولاية حلب.**

## السلطات الوطنية التي ترتبط بها إدارة الجاليات في بلادها الأصلية:

إن السلطات الأوروبية التي قامت بإرسال رعاياها إلى ولايات السلطنة العثمانية، للقيام بالنشاط التجاري لم تتركها في أراضي السلطنة دون اهتمام أو رعاية، بل كانت هناك علاقة ترابضية وثيقة بينهما. حيث لم ترسل الدول الأوروبية رعاياها إلا بعد أن تضمنت على أرواحهم وتجاريتهم وممتلكاتهم، من خلال حصولها على الامتيازات والصمانات من السلطنة، إذ كانت لتول بمئات العيون الساهرة على رعاية مصالح رعاياها، سواء كانوا داخل البلاد أو خارجها. وهما يلي تعريف بالمؤسسات التي كانت توجه الرعايا لأوروبيين من وطنهم.

**جمهورية البندقية:** كانت البندقية تطلق على رعاياها في السلطنة العثمانية كلمة مستعمرة (colonia)، وكانت تلك للمستعمرة تحصى في إدارتها وتنظيماتها وتشريعاتها، عند نشأتها الأولى في بلاد الشام إلى مقررات المجلس الكبير، الذي امتدت اختصاصاته حتى شملت كل ما يمس الشؤون العامة، والذي كان له وحد السلطة التشريعية وس القوانين، وإلى مجلس الشيوخ الذي كان يملك حق التصرف بالشؤون المالية ومناقشة المعاهدات وبخاصة الامتيازات، كما كان يصع التعليمات للسفراء في الخارج، ويتسلم منهم التقارير التي كانت توضح أسبوعياً شؤون البلاد للممثلين فيها<sup>(١)</sup>

وكان يرتبط بمجلس الشيوخ لجنة للمجمع التي تصم إلى جانب الدودج<sup>(٢)</sup> خبراء في جميع المجالات التجارية البحرية والبرية، وفي عام ٩١٣ هـ / ١٥٠٧ م قرر مجلس الشيوخ إنشاء لجنة الخبراء الخمسة للتجارة، وأعطاهم الإدارة العليا لشؤون التجارة ومراقبتها وبخاصة الفصليات. ويمكن القول: إن المؤسسة الحكومية الرئيسية التي ترتبط بها إدارة الجاليات البندقية في سورية هي لجنة الخبراء الخمسة للتجارة. فلقد استطاع نظم الحكم الأوليغاركي<sup>(٣)</sup> في البندقية أن يسيطر على التجارة، ويوجه جميع الجهود الفردية فيها نحو خدمة مصالح الدولة ومجدها، وأن يخلق للجاليات في كل مكان مستقر فيه إدارة حكيمة وحازمة تضبط الأمور، وتنفذ التجارة في أماكن إقامتها قديماً، ولصالح جمهورية البندقية<sup>(٤)</sup>

(١) ديل، شارل، البندقية جمهورية أروستقراطية، ت. توفيق اسكندر وأحمد عبد الكريم، دار العرجاني طرابلس ليبيا، ص ٢٨

(٢) - الدودج يمثل الصورة القمعية والرمز القاهر لسلطة البندقية، وكان عندما يسير يرافقه كبير قواد البحر وركن حربه - والدودج يستقبل السفراء ويرأس المجالس (الكبير - الشيوخ - الشجرة) ويوقع على جميع المراسيم للجمهورية وشك العقود بصممه انظر شارل ديل: المرجع السابق، ص ٨٦

(٣) - الحكم الأوليغاركي، وهو يشكل حكومة تكون فيها السلطة مركزة في يد فئة من الأفراد أو العائلات، ويوصف هذا النوع من الحكومات بأنه حكم القلة أو حكم الحصة. والكلمة مأخوذة من (Oligarchie) الفرنسية.

(٤) للصباح، ليلى، الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس والسابع عشر، ج ٢، مؤسسة الرسالة، ط ١، بيروت ١٩٨٩ م، ص ٥٣٧



فرنسا: كانت فرنسا تطلق على رعاياها الفرنسيين في بلاد الشام تسمية أمة (nation) حيث تبنت مدينة مرسيليا تجارة اللبانت، وكان لها الحق في عقد معاهدات تجارية مع الأمم الأخرى، والتحالفات مع الأمراء الأجانب، وتجهيز الأسطول، وفيما بعد، قررت بلدية مرسيليا أن توجد ممثلين خاصين مكلفين بإدارة أعمال التجارة، يطلق عليهم اسم نواب التجارة، وكان هؤلاء النواب هم الذين يديرون الأعمال التجارية وبخاصة تجارة اللبانت، ويقدمون تقاريرهم عنها لمجلس البلدية ومذكراتهم إلى الملك. فهم إذن المديرون الفعليون لتجارة الإسكندرية<sup>(١)</sup>. وأمام الصعوبات النامية التي لاقتها التجارة الفرنسية، فقد تقرر إنشاء مكتب مؤلف من عدد ضئيل من الأفراد ينتخبون من بين أكثر التجار خبرة ونشاطاً ومعرفة. وأطلق عليه اسم (المكتب الخاص لإدارة أعمال التجارة وسيرها)، ومن هذا المكتب وجدت البذرة الأولى لتنظيم غرفة تجارة مرسيليا الشهيرة.

وبواسطة الوزير كولبرت<sup>(٢)</sup> صدرت مجموعة من القرارات التي تنظم إدارة الجاليات الفرنسية في الإسكندرية، مثل قرارات سنة ١٠٧٥هـ - ١٠٧٦هـ / ١٦٦٤م - ١٦٦٥م - ١٠٨٠هـ / ١٦٦٩م واستناداً إلى ذلك صدر أمر البحرية الكبير في سنة ١٠٩٢هـ / ١٦٨١م، الذي يوضح علاقات القناصل بالجاليات وقواعد إدارة الإسكندرية<sup>(٣)</sup>. وهكذا يتضح مما سبق بأن أمور الجاليات الفرنسية في بلاد الشام لم تستقر بإدارة واحدة إلا في الربع الأخير من القرن السابع عشر، من خلال تنظيم مهام غرفة تجارة مرسيليا التي أصبحت المراقبة الفعلية لإدارة الإسكندرية، حيث حددت العرفة المذكورة مهام السفير الفرنسي في إسطنبول كما أنها حددت مهامه تجاه القناصل في الإسكندرية.

إنجلترا استقبلت الحكومة العثمانية بعثة إنكليزية عام ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م، واستطاعت البعثة أن تحقق نجاحاً كبيراً في وضع الحجر الأساسي للتجارة الإنكليزية في السلطنة العثمانية. وفي عام ٩٨٩هـ / ١٥٨١م صدر العقد التأسيسي لإنشاء شركة اللبانت (the levant company) وهي شركة إنكليزية مارست اختصاصات سياسية وتجارية واسعة، فهي التي كانت ترشح السفراء الإنكليز في إسطنبول، وتدفع لهم الرواتب. وكذلك كان جميع قناصل إنجلترا، وكل موظفيها الدبلوماسيين في ممتلكات السلطنة العثمانية يعدون مستخدمين في الشركة، ويتقاضون منها مرتباتهم. وظل هذا التقليد سارياً أكثر من قرنين حتى سنة ١٢١٨هـ / ١٨٠٣م<sup>(٤)</sup>.

(١) - الإسكندرية، كلمة تركية أصلها إيطالي أو يوداني، معناها سكة تعني مكان شحن البضائع ولا يقصد منها الموانئ فقط، وإنما تشمل جميع المراكز والمناطق التي كانت تشحن منها البضائع أو تفرع فيها، ويقع فيها الأجانب.

(٢) - الوزير كولبرت: اقتصادي شهير ١٦٦٩ - ١٦٨٣م عين مراقباً عاماً لمالية ١٦٦٢م وأجرى بها عدة إصلاحات وحقق الصرائف ثم تصلم بظارة البحرية الفرنسية ١٦٦٩م.

(٣) - المصباح، الجاليات الأوروبية، المرجع السابق، ج ٢، ص ٥٤١.

(٤) - الشدوي، المرجع، السابق ص ٧١٢.

وهكذا يتبين أن شركة الليفانت لتنظيماتها ومجالسها الديمقراطية وسيطرتها على كل ما يخص التجارة، وإدارة شؤون الجاليات في الإسكالات، كانت تصنع حداً لما يمكن أن يحدث من هوضى وتبليبل، حيث كانت السلطنة مورعة بين هينات سياسية عديدة<sup>(١)</sup>.

هولندا: تأسست إدارة التجارة مع بلاد الشرق في الخامس من أيلول عام ١٠٣٥ هـ / ١٦٢٥ م بحيث تشكلت من سبعة تجار من أمستردام، عيّنوا من قبل عمدة أمستردام، وتحملوا بالتالي مسؤولية التجارة في بلاد المشرق، وكذلك علاقات هولندا مع القسم الشرقي لحوض البحر المتوسط. ولقد كان تعيين القناصل نظرياً من حق مجلس الطبقات، ولكن من الناحية العملية كانت إدارة التجارة تقترح التعيينات على مجلس الطبقات، كما تهتم برواتب القناصل وتوقف التوجهات القنصلية، وتعين أيضاً الموظفين القنصليين. وبعد تشكل إدارة التجارة بظليل اهتمت بقنصلية هولندا في حلب<sup>(٢)</sup>.

### السفراء الأوروبيون في العاصمة العثمانية (إستانبول):

كان السفراء يقومون على رأس مجموع الجاليات الأوروبية، في مختلف الإسكالات ببلاد الشام، كما يعد هؤلاء السفراء ممثلين لدولهم لدى السلطنة العثمانية، وكان مقر إقامتهم العاصمة (إستانبول)، إذ استقبلت السلطنة سفراء الدول الأوروبية منذ عام ٩٢٨ هـ / ١٥٢١ م، عندما استقبلت السفير البندقي، وأسهمت السلطنة بتوفير الراحة والأمان والسكن والحماية للبعثات الدبلوماسية الأوروبية. والحصانة التي تتمتع بها دار البعثة هي من الخصائص المتصلة مباشرة بدات الدولة، باعتبار أن المقر المستخدم لبعثتها ثابت الحصانة، لا يجوز دخوله إلا بمرور رئيس البعثة وعلى الدولة المصيفة اتحاد كافة الوسائل لحماية دار البعثات ضد أي عدوان، ومنع أي إخلال بأمن للبعثات وصيانة كرامتها، ولم يكن للبعثات دور قبل ظهور الدبلوماسية الدائمة، وكان الرسول أو المبعوث وحاشيته يدرلون في دور الصيافة أو المساكن التي تعتبرها الدولة لهم، فإذا طالت مدة بقاء السفير جاز له استئجار مكان أو أكثر حسب حجم حاشيته وبعثته.

كما أن المبعوث مستأنس يمنح الأمان بمجرد دخوله، وبالتالي يتمنع بما يتمنع به المستأنس من حقوق، وتبدأ الحصانة الدبلوماسية مع دخول الرسول حدود الدولة المرسل إليها، ومعاقلته عند الحدود بالإجلال والاحترام وتنتفي للرسول حصانته ما بقيت مهمته<sup>(٣)</sup>.

- طرق انتقاء السفراء: كل الأوروبيون ينتقون ممثلهم الدبلوماسيين على طريقتين:

(١) - الصباغ: الجاليات الأوروبية، المرجع السابق، ج ٢، ص ٥٤٥.

(٢) - السرس: المرجع السابق، ص ٤٣.

(٣) - النابلي، محمد: السفارات في الإسلام، مطبعة مدبولي، القاهرة، ١٩٧٧ م، ص ١٧١-١٧٣.

الأولى اختيار المبرزين، ويعين هؤلاء عادة في الدرجة الدنيا من السلك الدبلوماسي، وما ير السور يتقدمون في الدرجات حتى يصبحوا مستشارين أو وزراء مفوضين ثم سفراء، وهؤلاء الدبلوماسيون جميعاً يمثلون بلادهم التي أوفدتهم إلى بلاد أخرى، ولكن لا يتكلم باسم الدولة التي أرسلته إلا رئيس البعثة الدبلوماسية، أو من يحل محله منهم.

الثانية: ضمنية من لمصت فيه الكفاءة والخبرة السياسية والتاريخية وعرف بالدهاء، سفيراً أو رسولاً رأساً<sup>(١)</sup>.

فمن خلال ترجمة القرارات السرية وغير السرية التي وضعها سفراء الدول الكبرى المعتمدون في دار السلطنة العثمانية وقبائلها المنتشرون، وجدوا عيوباً مفرحة وأدأاً مصنعة لبلدانهم في حواضر الشرق، وكذلك من خلال تعليمات وراء خارجية تلك الدول الكبرى إلى سفرائهم وقبائلهم حول شؤون الشرق السياسية والاقتصادية والاجتماعية ويلاحظ من خلالها كيف بدأت الدول الكبرى في القرن السادس عشر نعي أهمية الشرق ودوره الأساسي في التجارة العالمية وفي التوازن الأوروبي آنذاك<sup>(٢)</sup>.

اختيار السفير البندقي ومهامه: بعد لتسفير البندقي في العاصمة العثمانية، ممثل دودج البندقية لدى السلطنة، كما يعد في الوقت نفسه رئيس للجان البندقية في إسطنبول، وحاكم جميع المستعمرات البندقية على أرض السلطنة العثمانية، وتلقبه جمهورية البندقية البيل (وهو ممثل الدودج لدى السلطنة العثمانية، ويرأس الجالية البندقية في إسطنبول وفي جميع أنحاء السلطنة)، وتركزت مهامه على إجراء مفاوضات مع السلاطين العثمانيين، وكلما اعتلى عرش السلطنة سلطان جديد فإنه يطلب من السلطان تأكيد الامتيازات والمكاسب التي نالها البندقية في المعاهدات السابقة. كما كان يعالج المشكلات الصعبة والمعقدة الخاصة بعمو التجارة وشؤون رعاياه، أما البيل بعد أكبر ممثل للسلطات السياسية والقضائية للبلاد المعيين أو العاشرين أراضي السلطنة، وأول بيل للبندقية دخل لدى السلطنة كان بعد سقوط القسطنطينية ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م.

وكان مجلس الشيوخ البندقي هو الذي يعين السفراء في جميع البلاد التي لها علاقات مع البندقية، ما عدا سفير البندقية لدى إسطنبول الذي كان يعينه الدودج بنفسه لأهميته وقيمته<sup>(٣)</sup>. كما حدد المجلس الكبير في البندقية في أواخر موضوعه واجبات السفراء الذين تبعث بهم البندقية في مهام إلى خارج البلاد، وقد دلع هذا التنظيم المحكم الدقيق الدروة هي القرن السادس عشر، ولم يكن للبندقية حتى ذلك الوقت سفراء دائمون إلا في إسطنبول وروما، وقد كان يوكل مجلس الشيوخ فيه لختيار السفراء، ويعين لهذا المنصب في العالب

(١) المعجزة صلاح الدين النظم الدبلوماسية في الإسلام، دار نكتف الجديد، بيروت، لبنان، ١٩٨٢ م، ص ٢٠.

(٢) إسماعيل، علاء ومير إسماعيل: الصراع الدولي حول الشرق العربي، دار نشر السياسة والتفريح، بيروت، ١٩٥٩ م، ص ١٢.

(٣) - ديل: المرجع السابق، ص ٢٤.

شريعاً ثرياً يستطيع أن يقوم بأعبائه على نحو لائق ، ويعين لثلاثة أعوام حتى يتجيب أن تعقد بين مبعوث الجمهورية والديوان الذي يعيش فيه صلات وثيقة قد تتسي السفير البندقي مصالح وطنه.

وكان مجلس الشيوخ يحدد نشاط السفير في التقرير الذي يصممه تعليماته. (على كل مسفير أن يصنع نصب عيبه على الدوام شرف الجمهورية ومصالحها) وكانت كل الرسائل الموجهة إلى الجمهورية ، تنقل في مجلس الشيوخ ، خاصة وحير السعراء البندقية المنتشرين في أنحاء العالم والذين يحيطون بالجمهورية علماً بأعمال الأمراء وحركاتهم ومشروعاتهم وأكثر الرعايا إخلاصاً ، من يغني بمعرفة الأمور الخفية. فإبهم يجمعون المعلومات عن خلق أولئك الأمراء وصفاتهم ومصالحهم وصلات القرابة والصداقة التي تربطهم بأحرار<sup>(١)</sup>.

وصفوة القول إن مجلس الشيوخ في البندقية كان يرى من واجبه أن يعرف في كل سبعة أيام ، وعن طريق مبعوثيه حالة البلاد التي تربطها بهم علاقات سياسية واقتصادية. لقد عهد مجلس الشيوخ منذ عام ٦٦٧هـ / ١٢٦٨ م إلى السعراء بأن يقدموا عدد رجوعهم من مهامهم تقارير وافية وشاملة ، والتي يبدو فيها جلياً ما تصف به الدبلوماسيون البنادقة من الدوق السليم المرفه ودقة الملاحظة. وقد كان لدى البندقي كل شيء في سبيل خدمة وطنه. وتقدم التقارير في حفل فخم جداً ، إذ ينفذ السفير أمام مجلس الشيوخ المجتمعين وبحضور الدودج وهيئة المجمع ورؤساء مجلس العشرة ويتلو السفير التقرير الذي وضعه. ولتلك التقارير أهمية كبيرة للتاريخ الأوروبي في القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ومصموم التقارير: (موقع القنصل الذي كان مقر السفير وحدوده الجغرافية وأقسامه الإدارية ومدى المهمة وشعوره وحصونه وأهله وعاداتهم ودينهم وحالة جيشه في البحر والبر وصناعاته وتجارته وصادراته و وارداته وشكل حكومته وثروته وبطائنته والمحالفات التي تربطه بعيره من الأقنطر وحلق ورائته العاملين وبقائق عن شخصية حاكمه ومعيشته وميوله وبلاطه وماليته وسياسته). هذه هي البود المختلفة التي كانت تسترعي اهتمام رجال الدبلوماسية من البنادقة.

وقد سحبت السلطنة العثمانية للبندقية في أول اتفاق لها بعد سقوط القسطنطينية عام ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م بإقامة هذا البيل المكلف بإدارة المستعمرة للبندقية فيها ، كما كان ينص في جميع المعاهدات التالية المعقودة بين الطرفين على إبقاء هذا الموظف البندقي في إسطنبول. وكان يساعد البيل البندقي في عمله مجلس يُنتخب أعصوه من الجالية البندقية في إسطنبول، ولا تعتبر سلطاته للقضاء القضائي ، وإن كان يجتمع بكامل أعصائه للأمور المهمة فقط ، وكذلك كل هناك التراجمة وعددهم يتراوح بين سنة أو سبعة ويعومون بالترجمة بين البيل والباب العالي ، ويعلمونون التجار في عملهم.

(١) - ديل. المرجع السابق، ص ٢٠٥

أما علاقة سفير البندقية في إسطنبول مع القناصل في الإسكندرية ومنها حلب فكانت محدودة ، فهو يتلقى الشكاوى ، وما عليه للقيام به من حكومته ، أكثر ما يتلقاه من القناصل ، أي أن ارتباط كل قنصل بالحكومة المركزية في البندقية كان قوياً ، ويشبه ارتباط السفير نفسه بها<sup>(١)</sup>. وفي شكوى يتقدم بها سفير البندقية إلى دار السعادة معادها أن التجار الأجانب التابعين للندقة الذين يأتيون إلى حلب كثيراً ما يكونون عرضة للمضايقة والتعجير ، وأحد الرسوم الزائدة عن الحد القانوني ، وذلك خلافاً للعهد السلطاني ، لذلك يجب عدم استيفاء أي رسوم زيادة عن الرسوم القانونية<sup>(٢)</sup>.

**اختيار السفير الفرنسي ومهامه:** عينت فرنسا عام ٩٣٢ هـ / ١٥٢٥ م لأول مرة سفيراً في إسطنبول ، ومنذ ذلك التاريخ أحدثت ترسل سفراءها إلى العاصمة العثمانية ، وخصوصاً عندما تطورت العلاقات العثمانية - الفرنسية بشكل كبير زمن السلطان سليمان القانوني والملك فرانسوا الأول مع توقيع معاهدة ٩٤٢ هـ / ١٥٣٥ م ، والتي شكلت منعطفاً كبيراً في العلاقات الثنائية بين الدولتين. وكان الملك هو الذي يعيّن السفراء في إسطنبول ، إلا أنه في القرن السادس عشر الميلادي تراجعت العلاقات بين الطرفين بسبب سياسة بعض ملوك فرنسا (شارل التاسع وهري الثالث ٩٦٨ - ٩٩٨ هـ / ١٥٦٠ - ١٥٨٩ م ، لتحسن العلاقات البريطانية الهولندية مع الدولة العثمانية على حساب العلاقات الفرنسية العثمانية في القرن السابع عشر الميلادي ، بسبب سياسة ملوك فرنسا لويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر ١٠١٩ - ١١٢٨ هـ / ١٦١٠ - ١٧١٥ م.

وفي القرن الثامن عشر الميلادي وبسبب ظهور روسيا على مسرح السياسة الدولية بهصل قيصره الشاب بطرس الأكبر ١٠٩٣ - ١١٣٨ هـ / ١٦٨٢ - ١٧٢٥ م الذي قادها على طريق التقدم في مختلف ميادين العمران والاقتصاد والسياسة والتسلح ، وعمل جاهداً لجعلها دولة أوروبية مرموقة عن طريق إخراجها من عزلتها عن العالم المتحضر ، مما سبب تنافساً دبلوماسياً قوياً جداً بين الدول الأوروبية على بسط النفوذ والتقارب من الباب العالي ، فتشظت الدبلوماسية الفرنسية في إسطنبول ممثلة بمجموعة من السفراء (المركيز دي فيلوف - فرجين - سان بريست - شوارول غويه).

وفي عهد الملك الفرنسي لويس الخامس عشر ١١٢٨ - ١١٨٨ هـ / ١٧١٥ - ١٧٧٤ م ، الذي أوفد المركيز دي فيلوف (وهو السفير الخامس والعشرين للحكومة الفرنسية لدى الباب العالي) سفيراً إلى الباب العالي تمكن بحذقته وقوة إقناعه ودهائه وسعة حيلته ، من حمل السلطان العثماني محمود الأول ١١٤٣ - ١١٦٨ هـ / ١٧٣٠ - ١٧٥٤ م على التصدي للنشاط الروسي المتزايد في البلقان ، بعد أن أكد له تأييد

(١) - الصبيح ، عجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٥٤٧ - ٥٥١.

(٢) - لفرمان رقم / ٢٧٣ / ، تاريخ فرمان (١١٦٣ هـ) من السجل / ١ / للأوامر العثمانية لولاية حلب ، ص ١٤٨ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

سيده المطلق له. فأشتمت هذه الفرصة فجدد في معاهدة عقدها معه (٢٨ أيار ١٧٤٠ م) امتيازات فرنسا السابقة مصافاً لها امتيازات جديدة تعهد السلطان ببقائها بأداة مدى حكمه وحكم خلفائه من بعده<sup>(١)</sup> وهي معاهدة عام ١٠٨٤ هـ / ١٦٧٣ م مع تسهيلات جديدة لفرنسا وتجارها<sup>(٢)</sup> وأبرز سود معاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م ما جاء في البند / ٨٣ / (أنه لما كان ولاء فرنسا مستمراً مع الباب العالي وأقدم عهداً من ولاء سائر الدول الأوروبية الأخرى، لذلك يجب إصدار أمر من الباب العالي بأن تكون معاملته بلاط فرنسا من أجل وأليق المعاملات، وأن تقدم الإكراميات والتسهيلات التي تعمل بها سائر الدول الأوروبية الأخرى لرعاية ملك فرنسا لويس الخامس عشر)<sup>(٣)</sup>. يلاحظ سعي السلطنة الحديث لإقامة علاقات طيبة مع الدول الأوروبية

### حقوق السفراء الفرنسيين في معاهدة الامتيازات ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م

إن سفراء فرنسا المعيّنين لدى الباب العالي عندما يحضرون إلى الديوان الهمايوني أو يذهبون إلى الوزراء العظام أو إلى المستشارين، يعاملون حسب العوائد القديمة بالأفضلية، ويقفون على سفراء أسبانيا والملوك الآخرين<sup>(٤)</sup>، كما لا يؤخذ من سفراء فرنسا ضرائب للجمرك ولا رسوم (باج)<sup>(٥)</sup> عما يأتون به على أسمائهم كهديايم وملبوساتهم وما يحتاجون إليه وما يأتون به من مأكولاتهم ومشروباتهم<sup>(٦)</sup> وكذلك التراجمة القائمون بخدمة سفرائهم الفرنسيين يعفون من رسوم (الحراج) ومن رسوم (القصابية)<sup>(٧)</sup>. ومن سائر الرسوم الاحتيارية<sup>(٨)</sup>. وكذلك الامتيازات والإعفاءات الممنوحة للفرنسيين تشمل التراجمة الذين هم في خدمة سفراء فرنسا<sup>(٩)</sup>، والخدم من رعايا الباب العالي الذين يخدمون السعير الفرنسي في قصره يعفون من (١٥ %) من الضرائب والرسوم<sup>(١٠)</sup>. وإذا حدث قتل أو مشاجرة بين فرنسيين فليسفرانهم وقباصلهم أن يحكموا بينهم حسب

(١) - بساعيل، السياسة الأوروبية، المرجع السابق، ص ٢٨.

(٢) - المعاصري، المرجع السابق، ص ٢٢٢.

(٣) - نصاب، يوسف بك المعاهدات الدولية التي عقدها الدولة العلية مع الدول الأوروبية (معاهدة / ١٧٤٠ م / بين السلطنة العثمانية وفرنسا)، ط ٢، المطبعة الموسمية، مصر ١٨٩٦ م، البند / ٨٣ /.

(٤) - المعاهدة / ١٧٤٠ م /: المرجع نفسه، البند / ١٧ /.

(٥) - الباج، هو رسم يأخذه المحاسب عن كل وارد إلى أسواق المدينة حمل من المناطق المحيطة بها.

(٦) - المعاهدة / ١٧٤٠ م /: المرجع نفسه، البند / ١٨ /.

(٧) - القصابية، كان السلطان يقدم لكل انكشاري يوماً أو قية لحم، ولما كان عدد الانكشاريين كبيراً، والكمية المطلوبة ضخمة، فقد عمل المشرفون على مالية السلطان على تحميلها للتجار لتعويض الخزينة. وسميت القصابية نسبة إلى القصاب وهو يذبح اللحوم.

(٨) - المعاهدة / ١٧٤٠ م /: المرجع نفسه، البند / ١٣ /.

(٩) - المعاهدة / ١٧٤٠ م /: المرجع نفسه، البند / ٤٢ /.

(١٠) - المعاهدة / ١٧٤٠ م /: المرجع نفسه، البند / ٤٧ /.

شرائعهم وعوائدهم دون أن يمنحهم أحد<sup>(١)</sup>. يلاحظ منح السلطنة الكثير من الصلاحيات للسفراء والقناصل الفرنسيين في حل المشكلات بين أفراد جالياتهم.

ويلخص عمل السفير الفرنسي في إسطنبول بالحفاظ على الامتيازات التجارية القائمة، وتوسيع مداها، والدفاع عن الجاليات الفرنسية أثناء المشكلات التي تحدث مع السلطات العثمانية، والسعي لدى الباب العالي لنيل مساعدته في إيقاف بحارة المغرب العربي عن العمل ضد المراكب الفرنسية في البحر الأبيض المتوسط، وإطلاق سراح الأمري بعد شرائهم، بالإضافة إلى العمل السياسي فواسع الذي كان يرتبط ائذاك بسياسة الدول الأوروبية فيما بينها وعلاقاتها بالسلطان العثماني. وكان لسفير الفرنسي كالسفير البندقي يرسل تقارير إلى حكومته على شكل رسائل، يشرحون فيها ما يحدث في العاصمة العثمانية<sup>(٢)</sup>.

وأهم أعمال السفراء الفرنسيين كانت تتركز في الدفاع عن مصالح التجار الفرنسيين في السلطنة العثمانية وحماية ممتلكاتهم، ورفع الحيف الذي قد يصيبهم من الولاة أو جباة الضرائب أو قطع الطرق والصوص، وهذا ما يلاحظ في عريضة رفعها السفير الفرنسي بالأستانة (الكويت ونسبتان) بخصوص تجار دولته الفرنسيين الذين يضطرون إلى دفع رسوم النصائح والأمتعة في أحد الموانئ ثم يرجعهم أمناء الجمارك بالدفع مرة ثانية<sup>(٣)</sup>.

وفي عريضة أخرى رفعها السفير نفسه تظهر إزعاج محصل للضرائب وجابي الجزية لخمسة ترجمة في قنصلية فرنسا في حلب، حيث قدم رجاء بعدم إزعاج الترجمة الخمسة بالضرائب والجزية عملاً بالأوامر السلطانية، والامتيازات الدولية<sup>(٤)</sup>.

ويلاحظ من خلال الوثيقة السابقة حرص السفير الفرنسي على توفير الحماية والرعاية للجهاز الإداري للعاملين في قنصلية فرنسا بحلب، من خلال سعيه لرفع الظلم عن ترجمة القنصلية المذكورة، ومطالبته السلطنة العثمانية بالالتزام بالمعاهدات والاتفاقيات الموقعة بين الطرفين (الفرنسي والعثماني).

وفي وثيقة أخرى يشير السفير الفرنسي (فون درس الورس) إلى تعرض تجار فرنسيين مقيمين بحلب للسرقة في قصبة بلادك (غربي مدينة حلب)، ويشتكي السفير المذكور من عدم القبض على السارقين، مما يدل على تهاون المسؤولين في ولاية حلب، كما يدل على احتلال الأمن. لذلك صدر فرمان سلطاني<sup>(٥)</sup> يطالب

(١) - المعاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع السابق ، البند / ٢٦ /

(٢) - الصباح الجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٥٥٧.

(٣) - لفرمان رقم / ٤٢٦ / ، تاريخ فرمان (١١٥٨ هـ) ، من سجل رقم / ٥ / للأوامر السلطانية بولاية حلب ، ص ٢٣٥ ، دول الوثائق التاريخية بدمشق

(٤) - فرمان رقم / ٧٨٦ / ، تاريخ فرمان (١١٥٩ هـ) ، من سجل رقم / ٥ / للأوامر السلطانية بولاية حلب ، ص ٣٩٨ ، دول الوثائق التاريخية بدمشق.

(٥) - لفرمان السلطاني كلمة فارسية ، معناها الأمر ، وكانت السلطنة العثمانية ترسل الأوامر السلطانية إلى ولاياتها في الولايات

يبدل الجهود لإعادة المسروقات إلى أصحابها التجار الفرنسيين ومعاقبة اللصوص<sup>(١)</sup>. ويبدو واضحاً سعي السلطة الحديثة لسيطرت الأمن وتوفير الطمأنينة للتجار الأجانب فوق أراضيها، وكل ذلك يصب في مصلحة السلطة الاقتصادية لتحسين أحوال رعاياها المالية.

مهام سفير فرنسا الدينية: في أواخر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر الميلادي، كتب الأب بوارو (Boisot) اليسوعي إلى سفير فرنسا في إسطنبول، أن الموارد هم أكثر مسيحيي الشرق احتراماً وتعلقاً بالكنيسة الرومانية وكلهم كاثوليك، ولهم في حلب أسقف عيور على حبر الشعب وهو يتمتع توسطكم لدى الباب العالي أن يوسع كنيسه<sup>(٢)</sup>. هنا تلاق المصالح بين الفرنسيين والموارنة وشعر كل واحد منهما أنه بحاجة إلى الآخر. والموارنة أرادوا الاستعادة من نفوذ فرنسا القوي لدى السلطة العثمانية، أما فرنسا وجدت في طلب الموارنة تأكيداً لهيمنتها وسلطانها على الطوائف الشرقية التي تعتق المسيحية على المذهب الكاثوليكي، مما يفتح المجال لتدخل فرنسا في شؤون السلطة الداخلية لتحقيق مآربها الاستعمارية.

اختيار السفير الإنكليزي ومهامه: تأسست شركة اللبانت الإنكليزية عام ٩٨٩ هـ / ١٥٨١ م ومارست اختصاصات سياسية وتجارية واسعة، فهي التي كانت ترشح سفراء إنكلترا في إسطنبول وتدفع لهم مرتباتهم. وفي عام ٩٩١ هـ / ١٥٨٣ م عينت الحكومة الإنكليزية بواسطة شركة اللبانت وليام هاربورن (william harborme) سفيراً في إسطنبول، ومنحته سلطات واسعة ومتشعبة في جميع الشؤون التجارية الإنكليزية في ولايات الدولة العثمانية، وخولته سلطات واسعة في تعيين القناصل<sup>(٣)</sup>.

ولكن فيما بعد فقدت الشركة تدريجياً سلطانها على السفراء، وأصبح الملك هو الذي يعيهم اختياراً من عام ١١٠٣ هـ / ١٦٩١ م دون استشارة الشركة، وإن كان أسماء من يختارهم التاج البريطاني تعرض عليها صورياً ويجري انتخاب شكلي لهم. وكان السفير بعد انتخابه يصبح عضواً في الشركة، ولقد اكتسب هذا المنصب مع الزمن صفة دبلوماسية أكثر وضوحاً، إذ أن سياسة توازن القوى التي اتبعتها بريطانيا - وكانت إسطنبول نقطة ارتكاز مهمة فيها - كانت سبباً رئيساً في تحول السفير من موظف تجاري مقنع بفتح دبلوماسي، إلى خادم دبلوماسي للتاج وأغراضه<sup>(٤)</sup>. وكانت صلاحيات سفير بريطانيا واسعة ممنوحة من التاج البريطاني أكثر مما كان عليه وضع السفراء البنادقة والفرنسيين، حيث يلاحظ أن السفير البريطاني كان بإمكانه أن يعين القناصل في أية موانئ أو مدن، يرى ضرورة وأهمية التجارة فيها، وله حق سن القوانين الخاصة بالرعايا الإنكليز المتاجرين في اللبانت، ومعاقبة المخالفين منهم.

(١) - فرمان رقم / ٥٧٣ / تاريخ الفرمال (١١٦٣ هـ) من سجل رقم / ١ / للأوامر السلطانية لولاية حلب، ص ٣١١، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٢) - توتل، فريديس وثائق تاريخية عن حلب، ج ٤، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٨ م، ص ٤٢.

(٣) - القسوي المرجع السابق، ص ٧١٨.

نقلا عن الصبغ لجاليات الأوروبية p ٣ ١٩٢٥ London wood (A C). A history of the levant company (٤).



كما عرفت إنكلترا كيف تستفيد من تقلب الملك الفرنسي لويس الرابع عشر ١٠٥٣-١١٢٨ هـ / ١٦٤٣ - ١٧١٥ م في سياسته مع السلطنة العثمانية ، فهضمت إنكلترا تجارتها وتقربت ما استطاعت من السلطة تحقيقاً لمصالحها السياسية والاقتصادية.

وفي وثيقة من وثائق المحاكم الشرعية قدم سفير بريطانيا شكوى على بعض أغوات حلب المديوبين إلى التاجر البريطاني (فيجو هراي) ، ولم يؤدوا ما استحق عليهم من الديون للدائن هراي ، وذلك يلحق الضرر على الدائن<sup>(١)</sup> وكذلك شكوى أخرى تقدم بها السفير البريطاني بأن دائرة الحمارك في حلب تنقص رسوم جمركية أكثر مما هو متفق عليه على بصانعها الإنكليزية خلافاً للعهد العثماني<sup>(٢)</sup>. وكذلك كان السفير البريطاني يتدخل ويطلب تعيين كوادر للفصليات الإنكليزية. ففي عريضة مقدمة من (المستر جيمس بورتر) يطلب فيها تعيين ترجمان لقصلية بريطانيا في حلب بدل الترجمان المتوفى كما يطلب إعطاء الترجمان المراد تعيينه براءة شريفة له ولزوجته ولأولاده ولخدمه وإعائه من الصرائف والرسوم ، وعدم محاكمته إلا من خلال سفارته وصدرت البراءة الشريفة المطلوبة<sup>(٣)</sup>.

كما كان السفير البريطاني يسعى للحفاظ على الامتيازات التجارية ، ويبدل الجهود الكبيرة لضمان احترام تلك الامتيازات ففي شكوى يرفعها السفير إلى الدف اعفاني ، مفادها أن تجاراً أجانب تابعين لبريطانيا يأتون إلى حلب يتعرضون إلى مصائب ، وأحد رسوم رائدة عن الحد القانوني ، وعليه صدر فرمان سلطاني يقتضي بعدم استبقاء أي ريادة على الرسوم القانونية المفروضة على التجار الأجانب<sup>(٤)</sup>.

وفي القرن الثامن عشر الميلادي كان السفراء الإنكليز أحياناً يبيعون البراءات ، أو وثائق الحماية التي تجعل صاحبها منتمياً بكل فوائد الامتيازات الإنكليزية. وقد اتفق المسيحيون الأرمن والروم وكذلك اليهود للحصول عليها بأثمان باهظة<sup>(٥)</sup>. وهذا يدل على هناد إداري بدأ بنفسه في الجهار الإداري للجالية الإنكليزية من قمة الهرم الإداري (السفير).

**اختيار السفير الهولندي ومهامه:** إن الامتيازات التي حصل عليها السفير الهولندي (كورنوليس هاغا) والتي أكدها السلطان مراد الرابع ١٠٣٣ - ١٠٥٠ هـ / ١٦٢٣ - ١٦٤٠ م عام ١٠٤٤ هـ / ١٦٣٤ م ،

(١) - العرمان رقم / ١١٣ / ، تاريخ العرمان (١١٥٦ هـ) ، من السجل / ٥ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٥٣ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٢) - العرمان رقم / ٢٦ / ، تاريخ العرمان (١٢٠٣ هـ) ، من السجل / ٢١ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٨ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٣) - العرمان رقم / ٣٤٢ / ، تاريخ العرمان (١١٦٢ هـ) ، من السجل / ١ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٢٣٤ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٤) - العرمان رقم / ٢٧٣ / ، تاريخ العرمان (١١٦٣ هـ) ، من السجل / ١ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٤٨ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٥) الصباغ: الجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٥٦٢.

وتجددت في عهد السلطان محمد الرابع ١٠٥٨ - ١٠٩٩ هـ / ١٦٤٨ - ١٦٨٧ م فصل السفير الهولندي (جوستينوس كولير) وصغت هذه الامتيازات عام ١٠٩١ هـ / ١٦٨٠ م، أسس العلاقات السياسية والاقتصادية بين هولندا والسلطنة العثمانية.

وكانت بداية العلاقات الدبلوماسية عندما أرسلت هولندا بعثة برئاسة (كوربوليس هاغا) عام ١٠٢١ هـ / ١٦١٢ م، وتألفت البعثة المذكورة من اثني عشر شخصاً من بينهم (كوربوليس بو)، والذي أصبح فيما بعد قنصلاً في حلب، و(أندريه سونيدر هوب) الذي أصبح مستشار السفارة الهولندية حتى وفاته عام ١٠٢٦ هـ / ١٦١٧ م. وكانت مهمة البعثة إطلاق سراح بعض الهولنديين المحتجزين من قبل السلطات العثمانية، والحصول على الامتيازات نفسها التي حصل عليها اليبانقة والفرنسيون والإنكليز للتجار الهولنديين.

ورغم المعارضة الدبلوماسية من الفرنسيين والبنادقة، فقد حقق (هاغا) مطالبه، وذلك بفضل المساعدة المهمة من حويل باشا الذي كان يشغل وظيفة كبير مربى طيور الباز في الديوان العثماني. أقام (كوربوليس هاغا) بعد ذلك أكثر من ٢٥ / عام سفيراً في الديوان العثماني في إسطنبول، ووضع أسس العلاقات بين هولندا والسلطنة العثمانية<sup>(١)</sup>.

وكان أول مبنى لسفارة هولندا في إسطنبول يقع في شارع حسين آغا، وقد أقام فيه السفير الهولندي كوربوليس هاغا، وفيما بعد أقام السعراء الهولنديون في حي بيراء، وكان يدعى الشارع الكبير. أما في أيام السفير (جوستينوس كولير) ١٠٩٣ هـ / ١٦٨٢ م، فقد كانت السفارة في زاوية شارع نومتون في موقع القصر الهولندي الحالي نفسه الذي بني عام ١٢٥٤ هـ / ١٨٣٨ م، ويضم الآن السفارة العامة لهولندا<sup>(٢)</sup>. وأخيراً كان ممثل هولندا يعين من قبل الجمعية العمومية فيها، وكان مكلفاً بالحفاظ على الامتيازات وفي تثبيت أحكام الفاصل، وكان عليه أن يقدم الهدايا والهبات، وأن يتحمل النفقات التي يمكن أن تنأى من ذلك<sup>(٣)</sup>.

(١)- المدرس للمرجع السابق، ص ٢٣.

(٢)- المدرس للمرجع نفسه، ص ٣٦.

(٣)- الصياح الجاليات الأوروبية، ج ٢، المرجع السابق، ص ٥٦٢.

وفيما يلي جدول بأسماء السفراء والممثلين الهولنديين لدى الباب العالي ما بين ١٠٢٣ - ١١٣٨ هـ / ١٦١٤ - ١٧٢٥ م:

النبطوماسي	التاريخ هـ / م	السيرة الذاتية
كورنوليس هاغا	١٠٢٣ - ١٠٤٨ هـ ١٦١٤ - ١٦٣٨ م	لؤل سفير لدى الباب العالي، حصل على توقيع الامتيازات بعد أشهر قليلة من وصوله
هديرىك كويس	١٠٤٨ - ١٠٥٧ هـ ١٦٣٨ - ١٦٤٧ م	وصل إلى إستانبول حوالي ١٦٢٨ م وأصبح قائماً بالأعمال عام ١٦٣٨ م حتى وفاته عام ١٦٤٧ م
ديرك كروم	١٠٥٧ هـ / ١٦٤٧ م	وصل إستانبول عام ١٦٢٥ م، وأصبح فيما بعد سكرتير السفير، وعين قائماً بالأعمال عام ١٦٤٧ م، لكنه توفي بعد أشهر
نيكولوس جيسبريختي	١٠٥٧ - ١٠٦٥ هـ ١٦٤٧ - ١٦٥٤ م	عمل فترة طويلة في تجارة الشرق ، وعين قائماً بالأعمال عام ١٦٤٧ م
لوهيوس وارنر	١٠٦٥ - ١٠٧٣ هـ ١٦٥٤ - ١٦٦٢ م	وصل إلى إستانبول عام ١٦٤٤ م وعين سفيراً عام ١٦٥٤ م
جوسي كروك	١٠٧٨ هـ / ١٦٦٧ م	توفي في طريقه قبل أن يصل إلى إستانبول
جوستيوس كولير	١٠٧٨ - ١٠٩٤ هـ ١٦٦٧ - ١٦٨٢ م	عين سفيراً عام ١٦٦٧ م، وصل إلى إستانبول / ٢٥ / أيار / ١٦٦٨ م لتجديد معاهدة الامتيازات ١٦٨٠ م
جكوبوس كولير	١٠٩٦ - ١١٣٨ هـ ١٦٨٤ - ١٧٢٥ م	تابع سياسة حماية التجارة الهولندية التي بدأها والده قبله <sup>(١)</sup>

وأخيراً مما تقدم يلاحظ أن السفراء الأوروبيين كانوا على رأس جالياتهم الأوروبية في إستانبول عاصمة الدولة العثمانية. وكان السفراء يمثلون دولهم لدى الباب العالي ويحافظون على مصالح رعاياهم ضمن أراضي السلطة. وكذلك يفتنمون كل فرصة للحصول على امتيازات جديدة لدولهم ورعاياهم. وإن القنصل في جانب مع الجاليات والرعايا والحمايات التابعين لهم ، يرتبطون بطريقة أو بأخرى بسفرائهم في إستانبول.

وكان للعلاقات الشخصية التي تربط هؤلاء السفراء بالديوان السلطاني دور كبير في تحقيق أهدافهم ومآربهم ويسوق مثلاً على ذلك كيف أسهم خليل باشا الموظف في الديوان السلطاني في حصول سفير هولندا كورنوليس هاغا على امتيازات سياسية واقتصادية من الباب العالي. وكما يلاحظ أن طبيعة العلاقات السياسية للدول الأوروبية مع السلطنة العثمانية كانت تؤثر على عمل هؤلاء السفراء ، فكثيراً ما كان يهين

(١) - المدرس: المرجع السابق ، ص ٣٦.

سواء في الديوان السلطاني عندما تكون دولتهم في حالة حرب أو تؤثر سياسي مع الباب العالي، مثلما حصل مع سفير البندقية عند هجوم العثمانيين على قبرص ٩٧٩ هـ / ١٥٧١ م، وكانت تابعة للبندقية، فقد سجن السفير، وتعرض للإهانة. وفي سنة ١٠٤٧ هـ / ١٦٣٧ م سجن السفير البندقي لويجي كونتاريدي في قلعة الجراج للسعة في إستانبول.

### القناصل الأوروبيون في ولاية حلب:

عقدت الدول الأوروبية في القرن السادس عشر الميلادي في إستانبول اتفاقيات مع السلطنة العثمانية، لتأسيس قنصليات أوروبية في بعض المرفئ والمدن التجارية الداخلية للسلطنة العثمانية لتتوسط الحركة التجارية. ومدينة حلب المشهورة بشواطئها التجاري الدولي كنقطة عبور مستثنائية أمام كميات السلع الهائلة المختلفة، التي تمر عبرها من الأسواق الشرقية والغربية، كانت للمدينة الأولى التي تم افتتاح قنصليات أوروبية فيها في الربع الأخير من القرن السادس عشر الميلادي<sup>(١)</sup>. ومنذ أن أحدثت الدولة العثمانية بنظام التمثيل الدبلوماسي، كان القناصل لا يتبعون في العادة وراء الخارجية الفرنسية أو الإنكليزية أو غيرها، وبما كانوا يتبعون رؤساء بعثات دولهم في إستانبول. وكان عملهم في الدولة العثمانية مقصوراً في بداية الأمر على الشؤون التجارية وتعهد مصالح رعايا دولهم والتأشير على جوازات السفر وغير ذلك.

ولم يكن لهم اختصاص سياسي، ثم أصبحوا يمرور الزم بأيعار من رؤساء البعثات الدبلوماسية في إستانبول، يمارسون النشاط السياسي أو الضغط على الدولة العثمانية.

### والقناصل الأوروبيون نوعان:

١- قناصل مبعوثون: (Missi) وهم الذين تبعث بهم الدولة لتولي شؤونها القنصلية في دولة أخرى، وهم من موظفي الدولة التي تبعث بهم ومن رعاياها، ويتقاضون مرتبات عن عملهم القنصلي، ولذا فليس لهم أن يعملوا بأية مهمة أخرى أو بأي عمل تجاري خاص شأن باقي الموطعين، ولذا يطلق عليهم أيضاً (counsuls de carriere) للدلالة على تخصصهم وانقطاعهم للأعمال القنصلية (وهم من سوف يتم الحديث عنهم فيما بعد).

٢- القناصل المختارون: (Elecli) تعيهم الدولة من بين الأشخاص المقيمين في الجهة التي ترغب أن يكون لها فيها تمثيل قنصلي، وهم من رعايا الدولة التي تختارهم، كما يجوز أن تختارهم من رعايا الدولة التي يؤدون فيها مهمتهم أو من رعايا دولة ثالثة.

(١)- سورمانان المرجع السابق، ص ٣٧٤.

ولا يعد القناصل المختارون موظفين في الدولة التي يمثلون مصالحها ، وإنما مجرد وكلاء عنها في الشؤون التي تعهد إليهم ، لذلك لهم الحق ، على خلاف القناصل المبعوثين ، في الاشتغال بالأعمال الخاصة من تجارة ومهن حرة وحلاها إلى جانب عملهم القنصلي. وهم لا يتقاصرون عادة مرئيات من الدولة التي تختارهم، ويطلق عليهم في الوقت الحاضر القناصل الفحريون (CONSVIS HOMOIDIE)<sup>(١)</sup>.

وترتبط سلطة القناصل وازديادها بنسبة تبادل حجم المبادلات التجارية ، ولذلك استغل القناصل جميع الظروف لتوسيع لامتيازات التي نالتها حكوماتهم من الباب العالي ، وبذلك تحولوا إلى عملاء سياسيين، فضلاً عن كونهم عملاء اقتصاديين<sup>(٢)</sup>.

وأهم الدول الأوروبية التي افتتحت قنصليات لها في حلب ما بين ٩٥٥ - ١٠١٦ هـ / ١٥٤٨ - ١٦٠٧ م هي:

اسم القنصلية	العام هـ / م	المكان في حلب.
القنصلية السدقية	٩٥٥ هـ / ١٥٤٨ م	خان القنحاسين.
القنصلية الرئيسية	٩٧٠ هـ / ١٥٦٢ م	في خان الجمرك، وكان تجار مرسلية يختارون القنصل ويصادق الملك على تعيينه.
القنصلية الإنكليزية	٩٩١ هـ / ١٥٨٣ م	في خان الجمرك، ثم في خان القيرغل، وافتتحت القنصلية بعد تشكيل شركة القليغات.
القنصلية الهولندية	١٠١٦ هـ / ١٦٠٧ م	ويلاحظ أن هولندا افتتحت قنصليتها في حلب قبل أن تفتتح مثيلتها في العاصمة العثمانية <sup>(٣)</sup> .

وقد شجعت الدولة العثمانية الدول الأوروبية على إرسال رعاياها للإقامة والعمل في أراضي السلطنة ، وتعهدت بتوفير الحماية للجهاز الإداري العامل في القنصليات الأوروبية المقيمة في حلب ، من خلال صدور فرمان سلطاني يتعهد فيه السلطان العثماني ، بحماية وصيانة وكلاء القناصل الأجانب المعتمدين وتجارهم والعاملين معهم من المستخدمين في قنصليات حلب ، وقد صدر هذا فرمان بناءً على شكوى تقدم بها وكيل التجار الأجانب إلى الباب العالي وهي أحوال المعتمدين لدى السلطنة من قناصل وتراجمتهم وتجارهم، فهم يعانون من أوضاع سيئة رغم حماية الدولة العلية لهم<sup>(٤)</sup>.

(١) الشهابي. المرجع السابق ، ص ٧٢١

(٢) حميدة: محافظة حلب ، المرجع السابق ، ص ٤٦

(٣) - هلال ، فؤاد. حلب القديمة والحديثة ، مطبعة جامعة حلب ، ٢٠٠٦ م ، ص ١١١.

(٤) الفرمان رقم / ٢١ / ، تاريخ الفرمان (١٦٠٨ هـ) ، من السجل / ٢٤ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٢٣ - ٢٤ ، در الوثائق التاريخية بدمشق.

## وفيم يلي تعريف بقنصل الدول الأوروبية:

**قنصل البندقية:** سارعت جمهورية البندقية إلى افتتاح قنصلية لها في حلب للإشراف على تجارة رعاياها، حيث قرر المجلس الكبير ذلك سنة ٩٥٥ هـ / ١٥٤٨ م، وظلت القنصلية تمارس عملها حتى عام ١٠٨٦ هـ / ١٦٧٥ م، وكانت تشغل المركز الأول بين القنصليات الأوروبية الأخرى، وذلك بفصل أقدمية تجار البندقية.

وما يلي عامي ١٠٨٦ - ١١٧٦ هـ / ١٦٧٥ - ١٧٦٢ م كان للسفارة عملاء في حلب، دور أن تكون لهم صفة التمثيل الدبلوماسي القنصلي، لكن منذ أن نشط التبادل التجاري بين فارس والهند، وفتح البحر الأسود للملاحة، فإن أملاً جديداً قد بعث في نفوس البنادقة بالعودة إلى تجارة فعالة في بلاد الشام، ولهذا السبب صدر القرار ١١٧٦ هـ / ١٧٦٢ م بإعادة قنصلية حلب، تحت اسم "القنصلية البندقية العامة في سورية وفلسطين" وظلت قائمة حتى سقوط البندقية عام ١٢١٢ هـ / ١٧٩٧ م<sup>(١)</sup>.

وتراجع التمثيل الدبلوماسي البندقي في حلب ما بين عامي ١٠٨٦ - ١١٧٦ هـ / ١٦٧٥ - ١٧٦٢ م بسبب العلاقات المتوترة بين السلطنة العثمانية والبندقية، وبشوب حرب كاندية عام ١٠٧٨ هـ / ١٦٦٧ م بين الطرفين، وفي هذه الفترة مثلت المصالح البندقية لتجارية تارةً فرنسا، وتارةً أخرى بريطانيا، وتم التوفيق إلى ذلك في معاهدة فرسما مع السلطنة العثمانية عام ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م حيث نصت في أحد بنودها (أن البرتغاليين والصقليين والكانالانيين والأنتونيين وسائر الأمم المعادية للباب العالي، والتي لا سفراء ولا قنصلات ولا وكلاء لها لدى الباب العالي، وترغب بملء إرادتها وحريتها في المجيء إلى السلطنة، كما كانت تفعل قديماً تحت راية إمبراطور فرسما يدفعون الرسوم الجمركية كالفرسسيين دون أن يحسبوا لأحد معارضتهم بشرط ألا يتعدوا حدودهم، وألا يرتكبوا ما يعيب بالأمن والراحة)<sup>(٢)</sup>. وبعد انتهاء حالة التوتر بين الطرفين عادت المياه إلى مجاريها، وتولت البندقية إدارة شؤون رعاياها بنفسها ففي عام ١١٦٨ هـ / ١٧٥٤ م وصل إلى حلب قنصل البندقية الجديد جيرولامو بريغادي (Gerolamo Brigadi) وكان يتبع بريغادي العائلة والخدم والمرافقون ومعهم / ٣٤ / حصاناً لنقل الأمتعة، وكان بريغادي قبل أن يعين قنصلاً في حلب يعمل بالتجارة في قبرص، وكان شيوخ التجار الذين يمثلون المكتب المحصن لإدارة السياسة التجارية قد رأوا ضرورة إعادة فتح القنصلية البندقية بحلب، فاقترح سفير البندقية في إستانبول اسم بريغادي كمرشح محتمل لهذه المهمة، ووصل بريغادي قنصل البندقية الجديد إلى حلب عن طريق الإسكندرون، ومن هناك وصل إلى بيلان، حيث توقف لمدة تسعة أيام، ليتمكن بعدها من رؤية القلعة وقسم المآذن، وأخيراً

نقلًا عن المصدر: الجاليات الأوروبية

(١) Berechet (guglie.mo): Relazioni dei consoli veneti nell'Asia minore, ١٨٦٦, p ٢٠.

(٢) - معاهدة / ١٧٤٠ م /، المرجع السابق، قيد / ٣٨ /.

وصل إلى حلب محطته الأخيرة بعد أن أمضى أياماً على ظهور الحبل، وعلى أبواب حلب «استقبلته ثلاث عائلات من تجار البندقية الذين طلبوا يزاولون التجارة في حلب»<sup>(١)</sup>.

وفي عام ١٢٠١ هـ / ١٧٨٦ م حدد القانون الشهير الذي وضعته بحرية البندقية التجارية ، والذي يشرح حقوق الفصل وواجباته وصعقات وطائفة: فالقنصل يجب أن يكون من رعايا الجمهورية ، وأن يكون قد تجاوز الخامسة والعشرين من العمر. ومن المشهورين بالعلم والمعرفة والحبرة في ميدان التجارة ، وأن يكون قد روى بأوراق الاعتماد ، وأن يتناول طيلة مدة عمله الأجور المحددة ، حيث كانت المدة المخصصة للقنصل في قنصلي سنين، ثم أحدث تردد حتى وصول الخلف إلى ثلاث سنوات.

وفي القانون الصادر ١١١١ هـ / ١٦٩٩ م ، والقانون الصادر في ١١٢٦ هـ / ١٧١٤ م ، والعانون الصادر في ١١٣٢ هـ / ١٧١٩ م حددت بحسن سدوات ، وكان على مجلس الخبراء الخمسة أن يقوم بتسمية خلفه قبل انتهاء السنة الأخيرة بستة أشهر ، وكان على القنصل أن يعلم مجلس الشيوخ أولاً، ثم مجلس الخبراء الخمسة بذات اليوم الذي يستلم فيه عمله ، لأنه اعتباراً من هذا اليوم تبدأ السنوات الثلاث أو الخمس<sup>(٢)</sup>. وكان قنصل البندقية في حلب يهتم بتنظيم حركة البضائع التي تعبر سوريا تحت علم البندقية ، وكس له معاونون هم نواب قنصل الإسكندرية واللاذقية وطرابلس لبنان وبيروت وعكا وياها ، وكانت إحدى أهم مشاغل نواب القنصل هؤلاء تكمن في تأمين التواصل بينهم وبين سفير البندقية في إسطنبول وخصوصاً مع شيوخ التجار.

هذه الرسائل ما تزال محفوظة في أرشيف دولة البندقية ، وهي مجموعة من المظفات معنونة " قنصلية حلب " وهي رسائل كتبها بريعاوي ومن خلفه من القناصل ، إضافة إلى معاويته القريبين والبعيدين يستشف من خلالها قيساً عن حياة تجار البندقية اليومية في حلب وسوريا<sup>(٣)</sup>.

وحلال جائحات الطاعون في حلب كان القناصل البنادقة يشرحون لرعاياهم بعباية كيفية تعقيم الطعام والماء ، وكان يتبع الطاعون الأوبئة التي تجتاح الشرق دورياً مجاعة طاحنة ، ويكون سببها غالباً سوء المحاصيل وقد ذكر قنصل البندقية دومينيكو سيرولي (Domenico Seriola) في رسالة كتب فيها أن الناس يموتون جوعاً تلك الفترة، وهم يجرون أقدامهم في الأسواق ، وكذلك كان قناصل البندقية حريصين على تنفيذ بنود معاهدات الامتيازات الموقعة مع السلطنة ، فها هو القنصل البندقي ساليزيور تيزيني الذي وبخ

(١) كوستا بيتي: المرجع السابق ، ص ٢٥٦

(٢) - للصياغ: الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٥٧٦

(٣) - كوستا بيتي: المرجع السابق ، ص ٢٥٦.

امراة ناجر بندقى ، تدعى أنطونيا بوبولاني (Antonia Popolani) لإدارتها حانة كانت تباع فيها الخمور ، وهي مهنة خطيرة في بلاد المسلمين <sup>(١)</sup>.

وأخيراً تصافرت كل العوامل في نهاية القرن الثامن عشر على إسقاط البندقية ، وتهيأت الجمهورية للدمار ، فلم تغل مدافع بابليون بونابرت سوى أن كانت لها الصربية القاضية ، وحين نزل بونابرت في إيطاليا سنة ١٧٩٦ هـ / ١٧٩٦ م أصبحت أرض البندقية مسرحاً للصراع بين الفرنسيين والمماليك <sup>(٢)</sup>.

وبعد انتهاء تلك الحروب دخلت البندقية ضمن الوحدة الإيطالية ، وأكملت إيطاليا مسيرة البندقية بإقامة علاقات سياسية تجارية مع سورية. ففي سنة ١٢١١ هـ / ١٧٩٧ م طلب المقيم العام للملكة المسيحية لجمهورية إيطاليا المقيم بالأسكندرية السيد فرنكو موسالي تعيين قنصل جديد لإيطاليا في حلب ، ليقوم بأعمال القنصلية لحكومة إيطاليا في منطقتي يافا واسكندرون بعد أن وفي الأجل القنصل السابق ، ويطلب السفير الإيطالي الموافقة على تعيين المدعو حوره أنطون مارينو قنصلاً لحكومة إيطاليا <sup>(٣)</sup>.

وبناءً على ذلك فقد صدر فرمان سلطاني من الباب العالي بتعيين قنصل جديد ، وهو حوره أنطون مارينو مارينو بدل القنصل المتوفى ، وإعطاء للقنصل الجديد جميع الامتيازات التي أعطيت لأمثاله <sup>(٤)</sup>.

**القنصائل الفرنسيون:** ظلت فرنسا تسيطر متحطة في إدارتها لجالياتها في بلاد الشام أكثر من قرر ، إلى أن صدر أمراً البحرية الفرنسية ١٠٩٢ - ١٠٩٧ هـ / ١٦٨١ - ١٦٨٥ م ، للذات وصفا الأسس الرئيسية لإدارة الإسكندرية والتتظيم القنصلي. ووظائف القناصل وعلاقاتهم مع الأمة الفرنسية ، ولقد استفيد في وضع تلك القواعد من تشريعات الأمم الأخرى وتجاربها ، ومن تجارب القناصل والتجار وأرائهم <sup>(٥)</sup>.

أصبح القنصل بالنسبة للتجار هو ممثل السلطة الملكية ، والقاضي ، والحامي ، والدليل ، وعليه أن ينفذ الأوامر والتطبيقات التي ترده من الوطن وأن ينقلها إلى مجلس الأمة ، عن طريق قرائته لها ، ثم يعيها في مستشاريه القنصليين ، وكان مكلفاً بذلك ، شأنه في ذلك شأن قناصل جميع الدول ، بأن يلزم ربابسة السفن وأصحابها باتباع القواعد الخاصة بالملاحة والشمس والتفريغ ، وكان مسؤولاً عن الأمن والنظام بين التجار ، وفي حالة ظهور ملوك سيء يظهر من بعضهم ، فإن القنصل باستطاعته أن يبقهم محجورين في بيوتهم ،

(١) - كوستا ميني: المرجع السابق ، ص ٢٥٨

(٢) - دبل المرجع السابق ، ص ٢٣٦

(٣) - فرمان رقم ٦٧ / ، تاريخ فرمان (١٢٠٩ هـ) ، من سجل / ٢٥ / للأوامر المظفرية لولاية حلب ، ص ٢٦ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٤) - فرمان رقم ٦٨ / ، تاريخ فرمان (١٢٠٩ هـ) ، من سجل / ٢٥ / للأوامر المظفرية لولاية حلب ، ص ٢٦ - ٢٧ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٥) - D Arvieux Memoires du chevalier D Arvieux Extraordinaire a la porte consul A ep datege tomes p ٢١٩



وأن يفرض عليهم الغرامات. وفي الحالات للخطرة ، يمكنه أن يجبرهم بموافقة نواب الأمة على العودة إلى فرنسا.

وكما هو حال فصل البندقية وإكلترا وهولندا وغيرهم كان القنصل الفرنسي قاصياً للتجار، ولا يجوز للقنصل أثناء القيام بعمله القضائي إلا ومعه نواب الأمة ، وأربعة من وجهاء التجارة. ومن الصعوبات التي كان يصطدم بها القنصل أثناء عمله القضائي رفض الشهود الإدلاء بشهادتهم ، ومن ثم صدر أمر في ١١١٤ هـ / ١٧٠٢ م أعطى القناصل حق تعريم هؤلاء بعشرين ليلة في حالة النزاع بين القناصل والتجار، فإن على الطرفين الرجوع إلى محكمة أميرالة مرسييلية<sup>(١)</sup>.

وكان القناصل الفرنسيون في ولاية حلب يشرفون على أمور رعاياهم في البلاد السورية كافة ، حتى أن فرنسا لاحظت عام ١٠٢٤ هـ / ١٦١٥ م أن قنصلها في حلب لم يعد يستطيع أن يقوم بالمهمة مفرداً ، فأقام الملك لويس الثالث عشر قنصلاً آخر لفرنسا في مدينة صيدا ، ويذكر الرحالة شارل رو ( Charles roux ) أن حلب كانت طريقاً للمراسلات ونقل المعلومات والأخبار، فكان قنصل فرنسا في حلب يوصل الرسائل الآتية من الديوان في فرنسا إلى ممثليه في بلاد فارس والبصرة وبالعكس كانت ترسل الرسائل والمعلومات إلى قصر فرساي (Versailles) وبشكل خاص بين عامي ١١٤٣ - ١١٦٩ هـ / ١٧٣٠ - ١٧٥٥ م تاريخ الحرب بين الأتراك والفرنس<sup>(٢)</sup>.

وإذا حدث أن القنصل أو للتجار الفرنسيين احتلوا أو اختصموا مع قناصل أو تجار دولة أخرى مسيحية، يسمح للحصنين بناءً على قبولهما وطلبهما برفع القضية إلى سفراء دولتي الحصنين لدى الباب العالي، مادام المدعي والمدعى عليه لا يرصيان برفعها إلى الباشوات والقضاة والصباط ومأموري الجمارك<sup>(٣)</sup>. وكذلك كان القنصل مسؤولاً عن أموال رعاياه المتوفين ، وإذا مات فرنسي فمتروكاته تسلم إلى المكلفين بتتبع وصيته من دون أن يكون لأحد حق التدخل، وإذا مات ولم يوص فتم تركته إلى مواطنيه بواسطة القنصل<sup>(٤)</sup> وإذا ارتكب فرنسي أو تابع لحكومة فرنسا جريمة قتل أو غيرها من الجرائم، واقتضى وقوف المحاكم عليها فالقضاة والمأمورون العثمانيون لا يسمعون لهم مباشرة رؤيتهم إلا بحضور السفراء والقناصل، أو من ناب عنهم حيث وجدوا<sup>(٥)</sup>.

(١) - الصبغ: الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦٠١

(٢) أنطاكي المرجع السابق ، ص ٢٨٠

(٣) - معاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع السابق ، تبند / ٥٢ /

(٤) - المعاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع نفسه ، التبند / ٢٢ /

(٥) - المعاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع نفسه ، التبند / ٦٥ /

وكذلك سعت السلطنة من خلال معاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م لتوفير الراحة، بمصارعت لتأمين مسكن القناصل، سمحت لهم باستخدام اليسوعية الذين يريدون<sup>(١)</sup> وعندما ترسل الحكومة الفرنسية بأناس جيدي الإدارة لتولي الشؤون عوضاً عن قناصلها المقيمين في الإسكندرية فلا يعارض أحد بشأن ذلك، ويكونون معفيين من أداء الضرائب الاحتمالية المعروفة بالتكاليف العرفية<sup>(٢)</sup>، وأنه في الحالة التي نقيم بها أحد دعوى على القناصل المعفيين لملاحظة أعمال التجار لا يحسن القناصل ولا تختم محلاتهم، وترسل دعواهم إلى الباب العالي<sup>(٣)</sup>.

وكذلك لقناصل فرنسا الموهودين في المدن التجارية حق الانتقام على سائر القناصل لدى الباب العالي<sup>(٤)</sup>.

وأحياناً كان يتم تجديد ولاية قنصل ما مثلاً حصل عندما تقدم السفير الفرنسي بالأسنانة شو اليرده سبيريه بعريضة، يسترحم فيها تمديد ولاية القنصل بطرطوما إدارة أمور الطائفة المسيحية الفرنسية في حلب وتجارها في الموانئ المجاورة، ولذلك صدر فرمان سلطاني بالتجديد للقنصل المذكور وإعطائه الامتيازات الخاصة بالقناصل، وإعفاءه من الرسوم المالية وانجمركية فيما يخص أشياءه ومأكولاته ومشروباته ودخيره الواردة عن طريق الموانئ<sup>(٥)</sup>.

وكان السفير الفرنسي يتدخل عندما تريد فرنسا تعيين قنصل، كما حدث عندما طلب السفير أوبرو دوباه تعيين شوبولو قنصلاً لجمهورية فرنسا في حلب بعد ترشيح الجمهورية له لهذا المنصب، وطلب السفير الموافقة على تعيين القنصل الجديد بدل القنصل المعروف من أجل تسيير الأعمال، ومصالح تجار فرنسا في حلب الذين يقصدون حلب وموانئها للتجارة<sup>(٦)</sup>.

وبناءً على طلب السفير الفرنسي المذكور صدر فرمان سلطاني بتعيين شوبولو قنصلاً لفرنسا في حلب، وإعطائه الامتيازات المطلوبة للإشراف على التجار الإفرنج<sup>(٧)</sup>.

(١) - المعاهدة / ١٧٤٠ م / : المرجع السابق ، البند / ٥٠ /

(٢) - المعاهدة / ١٧٤٠ م / : المرجع نفسه ، البند / ٢٥ / .

(٣) - المعاهدة / ١٧٤٠ م / . المرجع نفسه ، البند / ١٦ / .

(٤) - المعاهدة / ١٧٤٠ م / : المرجع نفسه ، البند / ١٨ / .

(٥) - فرمان رقم / ٢١٨ / تاريخ فرمان (١١٨٣ هـ) ، من السجل / ٨ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٧٦ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٦) - فرمان رقم / ٥١ / تاريخ فرمان (١٢١١ هـ) ، من السجل / ٢٥ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٢٩ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٧) - فرمان رقم / ٥٢ / تاريخ فرمان (١٢١١ هـ) ، من السجل / ٢٥ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٢٩ - ٣٠ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق .

وكان القنصل أحياناً يقوم بدور الكفيل عندما يريد أحد التجار الفرنسيين السفر إلى مكان آخر غير مكان إقامته ، وقد أقام السفير أو القنصل نفسه كفيلاً لطالب السفر ، فلا يجوز لأحد تأخير سفره بحجة إجباره على دفع ديونه <sup>(١)</sup>.

- نفقات القنصل الفرنسيين: لقد خصص لهم رسم (٢%) على البضائع الصادرة من أسكلته لسد حاجاته. وفي عام ١١٠٦ هـ / ١٦٩٤ م صدر قرار ليفصل تلك النفقات بمكانات المراتب الشخصية للقنصل في حلب / ٣٥٠٠ / ليرة، وفي سنة ١١٢٢ هـ / ١٧١٠ م أرسل قنصل حلب الذي غير لهم / ٨٥٠٠ / ليرة نفقات قنصليته إلى العرفة حساباً بنفقاته ، ووصل إلى / ١١٢٤٢ / ليرة، منها / ٩١٩٨ / ليرة نفقات عادية ، وهذا يرجع إلى أن القنصل الفرنسي كان يريد أن يظهر بمظهر متميز أمام القناصل الآخرين <sup>(٢)</sup>.

وفيما يلي قائمة بأسماء قناصل فرنسا في ولاية حلب خلال القرن الثامن عشر ١١١٢ - ١٢١٥ هـ

/ ١٧٠٠ ، ١٨٠٠ م

رقم	اسم القنصل	تاريخ عمله هـ / م	ملاحظات
١	شميون	١١٠٤ - ١١٠٩ هـ / ١٦٩٢ - ١٦٩٧ م	
٢	بلان	١١١٠ - ١١١٩ هـ / ١٦٩٨ - ١٧٠٧ م	
٣	غسباردي بيليران	١١٣٥ - ١١٤٣ هـ / ١٧٢٢ - ١٧٣٠ م	
٤	جان جاك دي موبيلو	١١٤٣ - ١١٤٦ هـ / ١٧٣٠ - ١٧٣٣ م	
٥	هوبره غور	١١٤٦ - ١١٤٨ هـ / ١٧٣٣ - ١٧٣٥ م	
٦	ليون دي لان	١١٤٨ - ١١٥٥ هـ / ١٧٣٥ - ١٧٤٢ م	
٧	موزف ارري	١١٥٥ - ١١٥٨ هـ / ١٧٤٢ - ١٧٤٥ م	(وكيل قنصل)
٨	برنيلي أوبرجي	١١٥٨ - ١١٦١ هـ / ١٧٤٥ - ١٧٤٧ م	
٩	فرانسوا دي لان	١١٦١ هـ / ١٧٤٧ م	
١٠	ل. دوفين	١١٦١ هـ / ١٧٤٧ م	
١١	الستين	١١٦٢ هـ / ١٧٤٨ م	(وكيل قنصل)
١٢	جان باتيست غويان	١١٦٣ هـ / ١٧٤٩ م	
١٣	بيار توما	١١٦٤ - ١١٨٣ هـ / ١٧٥٠ - ١٧٦٩ م	
١٤	مكدولو	١٢١٢ هـ / ١٧٩٨ م	(٣)

(١) - معاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع السابق، البند / ٦٩ /.

(٢) - الصباغ: لتجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٦٠٣.

(٣) - حيث لك جمع أسماء قناصل فرنسا في ولاية حلب من مصادر ومراجع كثيرة ، لذلك تعذر كتابة مرجع واحد فقط.

**فواصل إنكلترا:** دخلت إنكلترا ميدان تجارة الشرق متأخرة نسبياً عن فرنسا والبنديقية ، إلا أنه منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي شرعت إنكلترا توجه أنظارها إلى حلب ، وحصلت على صيغراتها من السلطنة العثمانية كغيرها من الدول التي سبقتها كالبنديقية وفرنسا. وعينت ريتشارد فوسنر ليكون أول فاصل للأمة الإنكليزية في نواحي حلب ودمشق و عمان و طرابلس و القدس ، وجعلت مقر إقامته في البدء طرابلس ، إلا أنه ما لبث أن انتقل إلى حلب، وأقام في حلب البرغل ثم تحول عنه مع الجالية إلى حان الجمران<sup>(١)</sup>.

في البداية كان انتخاب فاصل الإنكليز في حلب من قبل شركة التجارة الشرقية (الليفانت) بين عامي ٩٩١ - ١١٥٣ هـ / ١٥٨٣ - ١٧٤٠ م بأمر ملكي ، لكن بدءاً من عام ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م تم تعيين الفاصل من قبل وزارة الخارجية البريطانية<sup>(٢)</sup>. وقد سمح للفاصل الإنكليز في البداية بالتجارة لحسابهم الخاص. كما حصل مع كل من فواصل البنديقية وفرنسا. لكن منذ عام ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٤ م منع من ذلك، وبقي القرار ساري المفعول حتى نهاية وجود الشركة عام ١٢٤١ هـ / ١٨٢٥ م.

وفي سنة ١١١٣ هـ / ١٧٠١ م استدعي الفاصل هينريكس من حلب لأنه تاجر خلافاً للقوانين ، وكانت جميع تعيينات الفاصل تجري بالأمم، ولمدة محدودة من السنين ، تتراوح بين ٣-٥ سنوات. وقد استدعي بعض الفاصل ، أو حل محلهم آخرون لأن مدتهم قد انتهت. وكان من حق الشركة أن تعزل أي فاصل في أي وقت لسوء تصرفه. وحدث هذا الأمر عندما استدعي الفاصل (purnell) في سنة ١١٣٩ هـ / ١٧٢٦ م من قنصلية حلب. وكذلك استدعي الفاصل (kinlach) في عام ١١٨٠ هـ / ١٧٦٦ م<sup>(٣)</sup>.

وعندما يعيب فاصل أو يترك عمله ، فإنه يلجأ في هذه الحالة إلى السفير الإنكليزي في الأستانة الذي بدوره يعول إلى الباب العالي ، كما حصل عندما قام فاصل حلب الإنكليزي المدعو سمارسل الذي ترك عمله. وطلب السفير الإنكليزي تعيين وكيل فاصل من أجل تسيير أمور المصلحة التجارية ومشاهداتها ، فأصدر الباب العالي أمراً بتوكيل وتنصيب وكيل فاصل من أحد رؤوس التجار الأميين منهم في حلب ، ريثما يتم وصول الفاصل الأصلي دون اعتراض من أحد ويطلب حمايته وصيانيته<sup>(٤)</sup>.

لقد كان الفاصل إنكليزي على رأس الجالية الإنكليزية يمثلها بكل مطهر من مظاهر حياتها ، وهو حاميتها والمدافع عنها والقاضي في الخصومات بين أفرادها بموجب الامتيازات وقوانين إنكلترا والعرف.

(١) SANDEROEN (George): the travels of ghon sanderson in the levant edited

ملاً عن الصديق: الجاليات الأوروبية

par by sir William Foster London harkluyt society ١٩٣١ p ١٦١ - ١٦٨

(٢) - سورمايان المرجع السابق ، ص ٤٠٢ - ٤٠٣.

(٣) Wood: p. ٢١٨ - ٢١٩

(٤) - العثمان رقم ٢٦ / تاريخ القرم (١٢٠٨ هـ) ، من السجل / ٢٤ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٧ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

وفي عريضة مفنمه من السفير الإنكليزي في الأستانة لدى الباب العالي ، وطلب السفير المذكور تحديد وحصر صلاحية القنصل والمترجمين والمساعدين المشرفين على أمور الجالية الإنكليزية في حلب ، بالظر فقط في المعاملات التي تقل فقط عن أربعة آلاف أقة وما يتجاوز ذلك يرفع إلى الأستانة <sup>(١)</sup>.

كما كان على القنصل الإنكليزي ضمان احترام الحقوق التي نالها الإنكليز في الاتفاقيات مع الدولة العثمانية ، وتنفيذ أوامر الشركة وقراراتها واقتضاء على سوء الاستعمال ، مثل استيراد النقد المريب ، وكان القنصل مسؤولاً عن المحافظة على النظام الحسن بين رجاله والقنصل في الحصومات بينهم. وكان يحاور إصلاح أي مواطن منحرف ، وإذا لم يردعه فعليه إرساله إلى وطنه وإذا ما رأى القنصل ضرورة فرض صريبة ما على التجار ، أو صرف مبلغ من مال الشركة ، أو الإقدام على عمل مهم فإنه كان عليه أن يدعو الجالية كلها إلى اجتماع عام ، ولا يستطيع التصرف من بعه.

ولقد طلب إلى القنصل الاحتفاظ بالسجلات والأوراق الخاصة بأي رجل إنكليزي يموت في حدود قنصليته ، والتأكد من أن ثروته قد عادت فعلاً إلى ورثته الحقيقيين <sup>(٢)</sup>.

وصدر من الباب العالي أمر سلطاني يقضي بتعيين وكيل قنصل المدعو جان بادقربدلاً من وكيل القنصل الإنكليزي المتوفى ميكائيل دورين ، وذلك ساء على طلب السفير الإنكليزي بوحان اسميد من أجل إدارة مصالح وأمر التجار الإنكليز ، إضافة لمساعدته بما يتعلق بأعمال القنصلية ، ويتوجب حمايته وعدم التعرض إليه <sup>(٣)</sup>.

(١) - الفرمان رقم / ٣٦١ / تاريخ الفرمان (١١٥٤ هـ) ، من السجل / ٤ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٧٨ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٢) - Wood: p. ٢١٩

(٣) - الفرمان رقم / ١٦٠ / تاريخ الفرمان (١٢١٣ هـ) ، من السجل / ١٧ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١١٨ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

وفيما يلي قائمة بأسماء قناصل إنكلترا في حلب خلال القرن الثامن عشر ١١١٢ - ١٢١٥ هـ / ١٧٠٠ - ١٨٠٠ م.

الترقيم	العام هـ / م	اسم القنصل
١	١١١٣ هـ / ١٧٠١ م	جورج براندون
٢	١١١٩ هـ / ١٧٠٧ م	ويليام بلكيغتون
٣	١١٢٩ هـ / ١٧١٦ م	جون بروئل
٤	١١٤٢ هـ / ١٧٢٩ م	بيغل كوكس - وليام كوبر ر. ستراوتون - وليام فيروف
٥	١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ م	آرثر بولاند
٦	١١٦٥ هـ / ١٧٥١ م	الكسندر برومود
٧	١١٧٢ هـ / ١٧٥٨ م	فرانسز درلون
٨	١١٧٣ هـ / ١٧٥٩ م	الكسندر برلوند
٩	١١٧٥ هـ / ١٧٦١ م	ويليام كلارك
١٠	١١٧٩ هـ / ١٧٦٥ م	هنري بريسلو
١١	١١٨٤ هـ / ١٧٧٠ م	كلارنس سميث
١٢	١١٨٥ هـ / ١٧٧١ م	جون أبوت
١٣	١١٩٨ هـ / ١٧٨٣ م	ديفيد هاريس
١٤	١١٩٩ هـ / ١٧٨٤ م	تشارلز سميث
١٥	١٢٠٣ هـ / ١٧٨٧ م	ديويرين
١٦	١٢٠٧-١٢١٣ هـ / ١٧٩٢-١٧٩٨ م	شاعر
١٧	١٢١٤ هـ / ١٧٩٩ م	جون باركر <sup>(١)</sup>

**قناصل هولندا:** قبل تسمية فنصل لهولندا في حلب ، كان للتجار الهولنديون مجبرين على وضع أنفسهم تحت حماية فرنسية أو إنكليزية ليستطيعوا العمل بحرية ، وإن الامتيازات التي حصلت عليها فرنسا عام ٩٤٢ هـ / ١٥٣٥ م. وجندت ٩٨٩-١٠٠٦ هـ / ١٥٨١-١٥٩٧ م نتيج للدول التي لم توقع على المعاهدة مع السلطنة العثمانية إمكانية الإبحار تحت العلم الفرنسي ، ومنحت السلطنة الامتيازات لإنكلترا. ١٠١٠-١٠١٦ هـ / ١٦٠١-١٦٠٧ م ولفرنسا ١٠١٣ هـ / ١٦٠٤ م، وقد أكدت لكل منهما الحق

(١) سورماين المرجع السابق ، ص ٤٠٢

بحماية الرعايا الهولنديين. وفي عام ١٦٠٧ م قرر المجلس الأعلى لممثلي المقاطعات الهولندية الطلب إلى الوكيل التجاري أيرنوت دوفاله ، أن يقوم بعمل قنصل لحساب التجار الهولنديين المقيمين في حلب.

لقد كان أول قنصل رسمي لهولندا يعين في بلاد المشرق . وبالقرار الذي اتخذه مجلس الطبقات في ١٠١٧ هـ / ١٦٠٨ م ، وفيه يؤكد منح مهمة القنصل إلى أيرنوت دوفاله <sup>(١)</sup> ، فلقد كان للتجار الهولنديين الحق بتسمية قنصل ، رغم عدم توقيعهم معاهدات الامتياز مع السلطنة العثمانية ، وبفصل لامتيازات التي حصل عليها السفير الهولندي في استانبول كورنوليس هاغا ، والتي تجددت في عهد السلطان مراد الرابع بفصل السفير الهولندي جوستينوس كولير ، وضعت هذه الامتيازات أسس العلاقات السياسية والاقتصادية بين هولندا والسلطنة العثمانية ، ولهم سلطات قانونية وإدارية على التجار وبلادهم التي يبيعون إليها . كما لهم الحق في الفصل بين النزاعات ونزوح المحاكم الخاصة التي تنظر في النزاع بين رعاياهم ورعايا مختلف الدول . كما يفرضون بجدية الرسوم حسب قيمة البضائع التي يتاجر بها رعاياهم في الأسواق العثمانية ، ويهتمون بإدارة ومتابعة تجارة التجار الموثوقين ، وهكذا يصبح للقنصل الهولندي محور الجالية كما بعد في الوقت نفسه ، من قبل السلطات العثمانية المخصص الأول للمسؤول عن تصرف مواطنيه . ومنذ عام ١٠٢١ هـ / ١٦١٢ م عين عدد من القناصل الهولنديين في جميع أرجاء السلطنة <sup>(٢)</sup> . وأول قنصلية هولندية بعد نيل الامتيازات كانت للقنصل كورنوليس باو في حلب ١٠٢١ هـ / ١٦١٢ م ، فتحت مع مجيء سفيرة كورنوليس هاغا عام ١٠٢٠ هـ / ١٦١١ م ، وقد وافق مجلس الطبقات في ٢٦ تشرين الأول / ١٦١٢ م على تسمية القنصل باو قنصلاً عاماً لمسورية وقسطين وقبرص ، وكانت القنصليات كلها تحت إمرته ، وفي عام ١٠٢٢ هـ / ١٦١٣ م اختار باو نائب قنصل في الإسكندرية .

إن جميع القناصل الذين عينهم السفير هاغا ، عدا قناصل حلب وتونس والجزائر ، تم اختيارهم من مجلس الطبقات للدولة ، وهذا ما سبب أحياناً نزاعاً حول صلاحيات القنصل والسفير ، والتي لا تحسم إلا بمراسم من مجلس الطبقات حول القنصليات الذي صدر عام ١٠٨٦ هـ / ١٦٧٥ م . ولقد قدم ثورع القنصليات خدمات جمة للتجارة الهولندية ، وكانت قنصلية حلب المركز الرئيس خلال النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي <sup>(٣)</sup> . وبعد ذلك بسبب تراجع التجارة الهولندية وضعت الجالية الهولندية في حلب تحت حماية قناصل الدول الأخرى مثل فرنسا أو إنكلترا ، فها هو ذا القنصل الفرنسي دارفيو عام ١٠٩١ هـ / ١٦٨٠ م ، يذكر أن القنصلية الهولندية لم تنفصل عن فرنسا مدة عشرين عاماً ، إلا لتوضع في فترات متقطعة بين أيدي قناصل هولنديين عندما كانت الجمعية العمومية ترى ذلك ، أو حالة الرعايا

(١) المطرس للمرجع السابق ، ص ٣٦ .

(٢) المطرس للمرجع نفسه ، ص ٢٥ .

(٣) - المطرس للمرجع نفسه ، ص ٤١ .

الحسنة تسمح بذلك<sup>(١)</sup>. والقنصلية الهولندية بشكل مستقل كانت لا تزال تعمل حتى عام ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م، وكان القنصل الهولندي يعمل بالتجارة بينما يتمتع قناصل البندقية وفريست وإنكلترا عن ممارسة العمل التجاري، غير أن القنصل الهولندي بعد عام ١١٨٦ هـ / ١٧٧٢ م كان في وصعية قناصل حلب الأحرار، بسبب منعه من ممارسة التجارة، وعين نه مرناً رسمياً<sup>(٢)</sup>. وكان هناك بعض التجار الهولنديين في حلب مثل دانييل بومستر وزميله جان جاكوب وفان ليبرغن وهانريك إبراهيم هيرمان الذين كانوا جميعاً يقومون بالمهام القنصلية.

إن شركة فان هيمسكرك وماسيك وشركاه كان لهم في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي وجود مردهر في حلب، ول مختلف أعضاء هذه الشركة كلغوا نفعاً بإدارة القنصلية منذ عام ١١٧٤ هـ / ١٧٦٠ م حتى عام ١٢٤٢ هـ / ١٨٢٦ م<sup>(٣)</sup>.

وفيما يلي قائمة بأسماء قناصل هولندا في حلب خلال القرن الثامن عشر  
١١١٢-١٢١٥ هـ / ١٧٠٠ - ١٨٠٠ م

القنصل	مدته	السيرة الذاتية
جيوفاي دوش	١١١٥-١١٠٧ هـ / ١٦٩٥ - ١٧٠٣ م	عين خزاناً للقنصلية / ١٦٩٤ م / وبعد وفاة القنصل أصبح القنصل الجديد ١٦٩٥ م، لطلب وعكس وطرابلس الشام وفريست
جورج براندور	١١١٨-١١١٥ هـ / ١٧٠٦ - ١٧٠٣ م	قنصل إنكلترا والأمة الهولندية تحت حمايته
ويليام بلكتون	١١١٩-١١٣٠ هـ / ١٧٠٧ - ١٧١٧ م	قنصل إنكلترا والأمة الهولندية تحت حمايته
جون برويل	١١٣٠-١١٤٠ هـ / ١٧١٧ - ١٧٢٧ م	قنصل إنكلترا والأمة الهولندية تحت حمايته
دانييل بوميستر	١١٤٠-١١٤٦ هـ / ١٧٢٧ - ١٧٣٣ م	كان خزاناً للقنصلية الهولندية قبل أن يعين قنصلاً من قبل السكير / ١٧٢٢ م / وصق على التعيين / ١٧٢٨ م /
جان جاكوب فان ليبرغن	١١٤٦-١١٥٣ هـ / ١٧٣٣ - ١٧٤٠ م	كان خزاناً للقنصلية / ١٧٢٨-١٧٣٣ م / وعين قنصلاً / ١٥ / حزيران / ١٧٣٣
هانريك إبراهيم هيرمان	١١٥٣ - ١١٦٠ هـ / ١٧٤٠ - ١٧٤٧ م	كان خزاناً للقنصلية منذ / ١٧٣٣ م / وأصبح قنصلاً / ١٧٤٠ م /

(١) - D. Arvieux . p : ٤٨٤ .

(٢) - سرمايان : المرجع السابق ، ص ٤١٣ .

(٣) للمترجم : المرجع السابق ، ص ٧٠ .



ارتور بولاند	١١٦٥ - ١١٦٥ هـ / ١٧٤٧ - ١٧٥١ م	قنصل بكفرا ، وتحت حماية الأمة الهولندية
هاندريك هتوبيكت	١١٦٦ - ١١٦٩ هـ / ١٧٥٢ - ١٧٥٥ م	سمي قنصلاً في حلب / ٢١ / تموز / ١٧٥٢ /
ماتياس فان اسن	١١٦٩ - ١١٧٠ هـ / ١٧٥٥ - ١٧٥٦ م	بعد أن كان السكرتير الثاني في السفارة في إسطنبول. سمي قنصلاً في حلب
جان فان كرشم	١١٧٠ - ١١٧٤ هـ / ١٧٥٦ - ١٧٦٠ م	سمي قنصلاً لهولندا في / ٩ / آب / ١٧٥٦ م /
جان فان هوسرك	١١٧٤ - ١١٧٧ هـ / ١٧٦٠ - ١٧٦٣ م	وصل إلى حلب / ١٧٥٧ م / وأصبح قنصلاً / ١٧٦٠ م /
نيكولاس فان ماسبيك	١١٧٧ - ١١٩٩ هـ / ١٧٦٣ - ١٧٨٤ م	سمي قنصلاً في / ٢٩ / حزيران / ١٧٦٣ م / وكان أول قنصل بتقاضي راتباً محدداً وغاب عاماً واحداً / ١٧٦٩ م /
دومنيكو ميربولي	١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م	قنصل قنصلية في حلب ، لمن الحماية للأمة الهولندية خلال غياب القنصل ماسبيك
جان فان ماسبيك	١١٩٩ - ١٢٤٢ هـ / ١٧٨٤ - ١٨٢٦ م	سمي قنصلاً في / ٤ / تشرين الأول / ١٧٨٤ م غاب سنتين / ١٧٩٨ و ١٧٩٩ م / وحل حلالها محله أخوه بيتر
بيتر جان فان ماسبيك	١٢١٣ - ١٢١٤ هـ / ١٧٩٨ - ١٧٩٩ م	كان وكيلاً لحل غياب أخيه جان <sup>(١)</sup>

وفي نهاية الحديث عن القناصل الأوروبيين في ولاية حلب خلال القرن الثامن عشر الميلادي ، يجب التنويه إلى امتيازات القناصل الخاصة بهم ، والتي حصل عليها سفراء الدول الأوروبية من السلطنة العثمانية . ويلاحظ بعض هذه الامتيازات في الحديث عن القنصل الفرنسي ومعاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م . فالقنصل معفي من الرسوم الجمركية ، ولبيته حرمة الخاصة ، ويحق له رفع علم بلاده عليه ، ولا يجوز سجنه لأي حجة كانت ، كما لا يجوز طرده أو حتم منزله . أما للقضاة التي كان يدخل فيها طرفاً ثانياً ، فإنها كانت ترفع إلى الباب العالي ، حيث يجب عنها سير الدولة التي كان يتبعها القنصل .

وكانت هناك مناهضة حادة بين قناصل الدول الأوروبية ، وبخاصة في حلب ، فحدث عنها ولا حرج . وكانت تبدو مظاهر الأنفة والبدح والتزلف أثناء الاحتفالات ، وفي التمايق للحصول على امتيازات جديدة وفي إساعة أحدهم لأخر لدى السلطات الحاكمة ، وهي شمانتهم ببعضهم عند إصابة أحدهم بإهانة أو سوء . وفي الحقيقة كان التنافس يشتد بينهم كلما أرادوا تعزيز أحدهم في الاسكلة ، وهذا يترتب بفوز دولته السياسي في إسطنبول ، أو لدى الأهالي ، كما هو حال القنصل الفرنسي ، إذ أصبح عميلاً سياسياً أكثر منه

١ - المدرس : المرجع السابق، ص ٧٥ .

تجارياً، وبخاصة بعد أن أحدثت فرنسا على عاتقها حماية الجاليات الدينية ومسيحي البلاد، وكذلك فإن حجم تجارة الدولة هي الاسكلة له أثره الكبير في تعزيز قنصلها، وكلما ازداد حجم التبادل التجاري ازداد التنافس بين القناصل، وكان أحياناً ينشب تنافس بين القناصل على تمثيل الرعايا الأوروبيين الذين ليس لهم ممثلون دبلوماسيون في حلب، مثلما حصل عندما اشتد التنافس على تمثيل قنصلية هولندا بين فرنسا وإنجلترا، وذلك للاستفادة من رسوم القنصلية التي نصب لمصلحة القنصل الحامي لتجارة هولندا.

### الهيئة الإدارية والعاملون في القنصليات الأوروبية :

كان الجهاز الإداري في قنصلية البندقية يتألف من القنصل وعائلته والترجمان ورجل الدين والتجار البنادقة والطبيب الذي يعتني بالجالية وكانت دولة البندقية هي أول من لود طبيباً إلى حلب للإشراف على أفراد الجالية فيها، وكان الطبيب بدوي الجالية مجتاً لقاء أجر محصن من مجلس الشيوخ زيد من /١٥٠/ أشراف إلى /٣٠٠/ أشراف، وكان بدوي المسكن الذين لهم صلة أو علاقة مع جالية البندقية<sup>(١)</sup>. وكان يساعد القنصل في عمله (مجلس الاثني عشر) الذي كان يختار أعضاءه من التجار الرئيسيين في سورية، وكان القنصل يختارهم من أفضل البنادقة، ويشارك المجلس الاثني عشر مع القنصل في تعيين موظفي القنصلية الآخرين، كما أنه يسهم في مراجعة حسابات الكونتيمو<sup>(٢)</sup> مع القنصل بالرجوع إلى سجل محاسب الكونتيمو، وكان محظوراً على الأعضاء إعلان أي شيء بحث أو نقاش أو اتخاذ في المجلس، كما أن من واجبات المجلس مراجعة دخول البضائع والأفراد، بحيث تمنع دخول أية بضاعة لم يدفع عنها الكونتيمو، أو أي فرد من أسرة القنصل، كما لا يمكن إجبار التجار على دفع مجدد للكونتيمو إذا لم يقرر ذلك المجلس، كما كان المجلس يساعد القنصل في بعض أحكامه القضائية، ويعين من يدوب عنه في حال تعييه أو استدعائه<sup>(٣)</sup>. ومثلما للقنصل البندقي مجلس الاثني عشر يساعده في تسيير أمور الجالية، كذلك كان للقنصل الفرنسي مجلس يساعده يسمى مجلس الأمة الذي يمثل فيه عضو من كل بيت تجاري في الأسكلة، والقنصل هو الذي يدعو لاجتماع مجلس الأمة وقت الحاجة ويرأس القنصل للمجلس، وكان مجلس الأمة ينساقش النفقات غير العادية للأسكلة، مثل ترميمات البيت القنصلي، أو الكنيسة، ونفقات الأعياد الوطنية أو الطارئة، أو الهدايا غير العادية للسلطات الحاكمة، أو القروض الضرورية لدفع الغرامات أو الأتاوى التي يجب أن تعرض على كل فرد من قبل القنصل إلى غرفة النجاسة بشكل دائم<sup>(٤)</sup>.

أما بالنسبة إلى الجالية الإنكليزية فكان لها مجلس يسمى مجلس الجالية، وهو كالمجلس الفرنسي لا يجتمع إلا بطلب من القنصل ووقت الضرورة التي يقررها القنصل، وكان يضم تجار الجالية الإنكليزية

١- حجار، عباد الله، قنصليه دار بوحه بطلب، مجلة الحريات، المرجع السابق، ص ١٨٧

٢- رسم الكونتيمو وهو مال يدفعه التجار البنادقة، أو من يحمل علمهم على السلع والبضائع التي يستوردونها أو يصدرونها

(٣)- Brechet p ٤٣

(٤)- Darvoui p ٢٧

في حلب . ويجتمع المجلس إذا طلب ذلك اثنان من التجار على الأقل ، ومهامه تبلغ عن طريقه سراءات الحماية ، وتعيينات القناصل ، وأوامر الملك ، وكل عليه أن ينقلش جميع أمور التجارة <sup>(١)</sup> .

**الأمور المالية لدى الجاليات :** كان مجلس الأمة الفرنسي يعين كل عام في شهر كانون الأول نائبين من التجار الذين لا تقل أعمارهم عن / ٢٥ / عاماً ، والذين أقاموا في الأسكلة مدة لا تقل عن عامين ، وبوجود نائبين يعرض وجود سنة نيوتات تجارية رئيسية في الأسكلة ، وإذا لم يكن هناك سوى حمسه بيوتات أو أقل فإن بكمة الفرنسية الحق في انتخاب نائب واحد فقط . وقد كلف الواف بالسهر على مصلحة التجار ، وبدعوة مجلس الأمة كلما دعت الحاجة لذلك ، وكانوا يتدلونون مع القنصل في المشروعات المهمة ، ويقومان بحياية الرسوم المفروضة على المراكب لصالح غرفة التجارة ، ورسوم القنصلية . وهي كل ثلاثة أشهر على النابيين أن يقدموا للقنصل كشفاً مختصراً بالواردات والنفقات التي أجريهاها ، وكانا يرافقانه في اجتماعاته مع السلطات الحاكمة وفي جميع المناسبات الضرورية . وبعد انتهاء عملهما كانا يقدمان للسكرتارية تفصيلات كاملة عن مدة إدارتهما للعمل ، وكل هذه التقارير والكشوف كانت ترسل إلى غرفة التجارة في برسيية ، لتكون العرفة على لطلاع تام على حالة التجار فيها

وبعد عدة إعلانات لبعض نواب الإسكلات الفرنسية ، صدر قرار في ٢٧ كانون الثاني ١٦٩٤ م بأنه ابتداء من هذا التاريخ يجب أن يصع ما ل الأمة في البيت القنصلي ، وهي حرية ذات ثلاثة مفاتيح الأول مع القنصل والثاني مع السكرتير والثالث مع النواب <sup>(٢)</sup> .

أما بالنسبة إلى القنصلية البنديقية فكان للقنصل هو الذي يملك سجل الواردات الكونيمو وبعقاتها ، وكان هو ومجلس الاثني عشر يراجعون حسابات الكونيمو . مما يدل على مسؤولية القنصل المباشرة عن جبية الكونيمو ، بحيث يقوم هو واثنان من التجار الحكماء بتقويم البضائع التي يجب أن تؤخذ عليها رسوم <sup>(٣)</sup> .

وأخيراً الجالية الإنكليزية : فقد كان إلى جانب القنصل موظف ، وهو الحارن ، ولقد كان في حلب خازن منذ الأيام الأولى للشركة ، ومنع هذا الخازن من التجارة ، وحدد عمله بسنتين ، إلا أنه يمكن إعادة تعيينه ، وعليه قبل استلام عمله أن يقسم بميثاً بأنه سيجمع الصرائب كلها ، دون تمييز أو تلاعب ، ومنذ عام ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٨ م لم يكن بإمكان أحد أن يصبح خازناً ما لم يكن قد أقام في الأسكلة خمس سنوات على الأقل وكان الخازن في بادئ الأمر يدل أجراً بسية ما يجمعه من الصرائب ، ولكن هذا تحول تدريجياً إلى أجر سنوي ، ففي حلب كان الخازن يدل / ٢٠٠ / جنيه ، ارتفع إلى / ٣٠٠ / جنيه ثم إلى / ٤٠٠ / جنيه إنكليزي وفي حتى سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م .

١- الصباغ الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦١٧  
٢- Masson ( pa. ) . histoire du commerce francais dans le levant auxvle siecle paris ١٩١١ p ٤٥٣  
نقلاً عن الصباغ الجاليات الأوروبية

٣- Brechet p ٤١

وكان على الحارث أن يدفع تأميناً مالياً قدره / ٢٠٠٠ / جنيه في القنصليات الكبيرة مثل حلب، والحارث مسؤول عن النفقات وجمع الضرائب ، فهو بصرف بموافقة السكير أو القنصل المال الضروري للإنفاق على الناصر والعمرات والهدايا والرشاوات وبقيّة المصروفات ذلت للطابع العام ، وكذلك يدفع أجور الخدم في القنصلية ، كل كان عليه أن يحصل من التجار على تقرير دوري عن البضائع التي يجب أن ترسل أو تستقبل ، وهذه التقارير كان يرسلها دورياً إلى الشركة لتدقيقها<sup>(١)</sup>

موارد خزانة الجاليات:

خزانة الجالية الهندية: كان مصدرها رسم الكوتيمو ، بالإضافة إلى الضرائب المفروضة على المحالين من التجار البائدة ، وكان على القنصل أن يتلقى المدوعات نقداً ، وكانت الأموال المجموعة تكفي إلى حد كبير حاجات الجالية ونفقاتها ، ومنها أجر مترجمين وبنقات المرسلين والهدايا المقدمة للباشا وغيره من السلطات الحاكمة<sup>(٢)</sup>

أما خزانة الجالية الإنكليزية: فكانت رسوم القنصلية وهي / ٢ % / على جميع الصادرات والواردات لتدارك نفقات الجالية ، وكان هذا الرسم يكفي بشكل مبدئي لجمع نفقات الجالية ، ولكن في المجالات غير العادية ، فإن القناصل كانوا يرجعون إلى مجلس الجالية ، كما أن رسم القنصلية ليس ثابتاً تماماً ، وإنما يتناسب مع حالة التجارة ومالية شركة التبعات التجارية ، وعند قيام الثورة الإنكليزية وإعادة النظام الملكي هبط رسم القنصلية إلى / ١ % / بينما ارتفع في منتصف القرن الثامن عشر إلى / ١٠ % / وكان على كل أسكلة من أسكالات شركة التبعات في بلاد الشام أن تسلم الفانض لديها إلى السفارة الإنكليزية في إستانبول من وقت لآخر محفظة بكمية قليلة لنفقات العمل ، وكان حازر السفارة في إستانبول يرسله بدوره إلى لندن<sup>(٣)</sup>.

وأخيراً موارد خزانة الأمة الفرنسية: كانت في البداية تعتمد على رسم القنصلية حتى عام ١١٠٣ هـ / ١٦٩١ م ، حيث صدر ما يسمى رسم الحمولة ، وهدفه تنظيم خزانة الأمة في كل أسكلة ، لتتفق منه على شؤون القنصلية ، وكانت قيمة هذا الرسم تتدرج بحسب الإسكالات والفروق في ثمر الحمولات التي تجرى فيها ، وقدر مجموع مصروفات القنصليات بـ / ١٠٠٠٠٠ / ليرة. وكان المجموع يقسم إلى قسمين ، قسم للقناصل وآخر للشؤون المختلفة ، وهذا يوضع بين يدي نواب الأمة ولا يصرف إلا بأمر من القنصل وقرار من المجلس. وكان الجمع كله يجري في مرسيلية ، وعندما فاض الرسم المجتبى عن الحاجة ، فإنه أنقص

(١) - Wood p ٢٢٠ - ٢٢١

(٢) - الصباغ، الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦٢٢ - ٦٢٣

(٣) - Wood p ٢٠٩

إلى الربع ، وأُدرِل مرة أخرى في عام ١١١١ هـ / ١٦٩٩ م على الرغم من زيادة نفقات القنصلية ، أما الأجانب الذين يستخدمون الرلية الفرنسية ، فإنهم لا يدفعون رسم حمولة وإنما يدفعون رسم القنصلية للقديمة<sup>(١)</sup>.

وبعد التعرف على الجاليات الأوروبية وقنصلها وبوابها وأمورها المالية ، يتم التعرف على ما يسمى السكرتير أو المستشار.

السكرتير عند الجالية الفرنسية: هو الذي يقرأ الأمر الملكي ورسائل التوصيات ، حيث كان الملك يأمر غالباً بإبهاء جميع أنواع الحصومات والحدل ، ويأمر بإطاعة القنصل الفرنسي كقنصل عام لجميع مناطق سورية<sup>(٢)</sup>، والسكرتير يمسك سجل اجتماعات مجلس الأمة والتقارير التي يقدمها للواب عند انتهاء مدة عملهم ، والقرارات والأحكام التي يصدرها القنصل الفرنسي ، ويسجل جميع أنواع الأعمال والعقود ، التي يجريها التجار ويقبل ودائعهم ، ويجمع لديه ما يعود للمقيمين الذين توفروا في الأمسكة أو المجلسير ، فهو سكرتير الأمة وحافظ أرشيفها وكاتبها ومدون عقودها.

والملك هو الذي يعين السكرتير منذ سنة ١١٠٣ هـ / ١٦٩١ م ، وهو ممنوع من مزاوله مهنة التجارة ، وقد منح مرتباً يتراوح بين / ٢٠٠ - ٤٠٠ / قرش ، بالإضافة إلى ما كان يأخذه من أفراد الأمة لقاء كل عمل لهم يقوم به<sup>(٣)</sup>.

أما سكرتير الجالية الهندية: فقد صدر قرار من مجلس الشيوخ بضرورة انتقاء رجل علماني كفء للمستشاريه ، وحصل له / ٦٠ / دوكاً شهرياً مصافاً إليها نفقات المستشارية و / ٤٠ / دوكاً نفقات طعام ثم ريد أجر المستشار في القرن السابع عشر حتى وصل إلى / ٥٠ / سيكون شهرياً مع نفقات الطعام<sup>(٤)</sup>.

أما سكرتير الجالية الإنكليزية: فهو المستشار الذي يقوم بالأعمال من تسجيل وحفظ لكل عمل رسمي للجالية ، وكان يخصص ويسجل جميع السلع الواردة ، وكان عمله مهماً للجالية ، إلا أن أجره كان ضئيلاً ، فلم يتجاوز إلى / ٢٠٠ / جنيه في حلب بينما كان عليه أن يدفع ضمانات قدرها / ٣٠٠ / جنيه<sup>(٥)</sup>.

أما الوسطاء بين الجاليات الأوروبية وسكان البلاد وهم المترجمة الذين شكلوا قنوات الاتصال في كل معارصات يقوم بها الأوروبيون مع السلطات العثمانية ، أو في الزيارات الرسمية المتبادلة ، لأن جهل الأجانب باللغة العربية والعثمانية كان يقف عائقاً في الاحتكاك المباشر بين هؤلاء الأجانب والعثمانيين ، ولذلك سدا للمسؤولين الغربيين في إسطنبول أن يستريدوا من حق دولهم في حماية الأقليات ، فطالبوا بأن يشمل هذا الحق بعض الفئات الخاصة من رعايا الدولة العثمانية ، وأهمها فئة المترجمة الذين يعملون في السفارات

(١) - الصباغ: الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦٢٤.

(٢) - سورميان: المرجع السابق ، ص ٣٧٩.

(٣) - Masson p. ٢٦٦

(٤) - Brechet p. ٤٩.

(٥) - Wood p. ٢٢٢ - ٢٢١

والقنصليات الأجنبية ، وكان هؤلاء خليطاً من المسيحيين واليهود ، إذ أن اختيار هذه الفئة محصوراً دائماً منهم وقد رغم بليسيه دي رورلس أنهم وحدهم دون المسلمين أقدر على فهم لغة الغرب ، وعلى ترجمتها والالتزام بها وأنهم أحق بالعمل في السفارات.

وقد كانت استجابة السلاطين العثمانيين إلى هذه المطالب والإسراف في منحها للعرب ، ما فتح الباب على مصراعيه أمام الراغبين في هذه الترقية الأجنبية طمعاً في ما كان وراءها من ميزات ومغانم ، فلم ينقص قرر من الزمن حتى كان الكثير من رعايا السلطنة في حماية الغرب ، ومن ثم أصبح في يد الغرب بهذه الكتلة من لأشاع أقوى سلاح منبره في وجه السلطنة العثمانية لتجربدها من ولاء أكبر عدد ممكن من رعاياها<sup>(١)</sup>.

ولما كانت العلاقات السياسية والاقتصادية والتجارية والاجتماعية المعقودة بين السلطنة العثمانية والحكومات الأوروبية ، ووجود قنصليات لهذه الحكومات في كثير من البلاد العثمانية ، فقد استوجب ذلك تعيين تراجمة محليين ، وكذلك المحافظة على حقوقهم ومنحهم الامتيازات<sup>(٢)</sup>.

وكون ولاية حلب من أهم ولايات السلطنة العثمانية فقد تم الاهتمام بها من قبل السلطنة ، وأكدت على وجوب المحافظة على القناصل الأوروبيين والجهاز الإداري في القنصليات ، حيث أرسلت عريضة إلى المسؤولين في الولاية المذكورة ، تذكر وتطالب بحماية القناصل ووكلائهم المقيمين في حلب مع تراجمتهم ومستخدميههم ، وتتنو السلطنة بوجوب عدم اعتداء التجار على التراجمة من خلال مدامه نورهم ليلاً ، وأخذهم إلى السجن بعد تحقيرهم نتيجة عذوات حاصلة بين هؤلاء التجار والتراجمة، وتطالب السلطنة الالتزام بالمعهد الهامبورغي<sup>(٣)</sup>.

ويصنف التراجمة في قنصليات حلب في ثلاث مراتب أولى وثانية وثالثة ، ويرافق التراجمة القناصل عند مقابلتهم للوالي ، الذين عليهم تقديم دروس للطاعة إلى الوالي فيحسون أمامه ويقبلون كف يده، وعندما يستجيب الوالي لطلب القناصل يجنو الترجمن الأول، ويقبل حاشية ثوب الوالي ، وكان الوالي يقدم هدية للترجمان الأول (عباءة) ولياقي التراجمة مباديل. كما كانت للقنصليات في حلب تدكي المرشحين للتراجمة إلى الباب العالي، وتصدر الأوامر السلطانية بقبول تلك مقابل مبالغ كبيرة، وكان التراجمة يستفيدون من الحماية القنصلية، ويعفون من دفع الحراج ، ويخصعون في بركاتهم إلى قانون دولة القنصلية ، وعند وفاة

(١) - الحقيق المرجع السابق ، ص ١٠٠.

(٢) - الغرمان رقم / ٢٤٠ / تاريخ الغرمان (١١٨٠ هـ) ، من السجل / ٧ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٧٠ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٣) - الغرمان رقم / ٢٢٢ / تاريخ الغرمان / ١١٩٦ هـ) ، من السجل / ١٦ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٧٢ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

أحد التراجمة يميز الفصل لا القاضي على ممتلكاته. كما يحق للترجمة ارتداء قلعة خاصة من الفراء مع حفاصة أصفر (١).

ويذكر الفصل إكثراً في حلب ليقبزين عام ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م عن التراجمة ما يلي: "كان عدد غير قليل من المسيحيين واليهود يدخلون دائرة القضاة الأجانب بصفة ترجمة ، ولكل ترجمان شخصان يدخلان في حمايته ، ويسمى كل منهما فرمانلي بموجب لراءة السلطانية. فكان لفصل فرسا ثلاثة تراجمة وللفصل إكثراً أحد عشر ترجماناً مسيحياً وواحد يهودي ، وللفصل البندقي ثمانية تراجمة، وللفصل هولندا أحد عشر ترجماناً وواحد يهودي. والترجمة والفرمانلية يلبسون (اللقب) ويتمتعون ببعض الامتيازات، ويعفون من بعض الضرائب، وعند دخول الفصل في وظيفته أو وفاة السلطان وجلوس غيره على العرش يجب تجديد البراءة من الباب العالي (٢)".

وفي أواخر القرن الثامن عشر الميلادي كتب سليمان هيصي باشا إلى السلطان العثماني ، أنه قد بلغ عدد تراجمي القضاة في حلب نحو ألف وخمسمائة رجل ، والسبب في ذلك أن الدولة سمحت لكل سفير في إسطنبول ، ولكل فصل خارجها بشخص وترجمان استثنته من جميع التكاليف الأميرية. فافتتح بسبب ذلك باب لمن أراد الدخول في الترجمانية ، حتى بلغ من كان يلبس قلانس السمور ألفاً وخمسمائة، دخلوا بالخدمة والحيلة ، وامتنعوا عن دفع التكاليف الأميرية، وكانوا تجاراً.

عبرت الدولة للفصل عنهم رجلاً يقال له كسبي أفندي ، فحضر إلى حلب ، وأحضرهم جميعاً ، وراجع أسماءهم في سجل التراجمة، فلم يظهر منهم غير ستة تراجمة بحق ، فحذف ما عداهم، وأرسلهم إلى إسطنبول للمجاعة بعد أن دفع له ، وللكمرجي ولمحصل الضرائب الأول (خمس ألف ذهب) وللوالي مثله، فلم يقبلوها (٣).

هذا وقد صدرت لائحة مصححة بأسماء جميع التراجمة ومعاونيهم والعاملين في القنصليات الأوروبية في ولاية حلب ، بعد التأكد من أماكن إقامتهم وأعمالهم وجنسياتهم في السجل السلطاني. وتوجد صورة مصححة من لائحة تراجمة قنصليات فرسا مع براءات تعيينهم محفوظة في دار الوثائق التاريخية (٤).

وفي حال وفاة ترجمان القنصلية تسمى القنصلية بسرعة لملء المكان الشاعر ، فما هو ذا السفير البندقي في إسطنبول يسمى لتعيين ترجمان جديد لقنصلية البندقي في حلب ، كما يطلب منحه الامتيازات والبراءة

(١) - هلال - التحولات التاريخية ، المرجع السابق ، ص ٢٣١ - ٢٣٢.

(٢) - توتل - المرجع السابق ، ص ١٠٤ - ١٠٥.

(٣) - العربي ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٢.

(٤) - للعرض رقم / ١١٩ / تاريخ الفرمان (١٢٠٦ هـ) ، من السجل / ٢٣ / للأوامر المنطوية لولاية حلب ، ص ٨٤ - ٨٩ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

الشريعة التي تحولها لترجمة وما يتعلق بأمورها<sup>(١)</sup>، وهذا هي فرنسا تسعى من خلال معاهدتها ١١٣٥ هـ / ١٧٤٠ م مع السلطنة إلى الحصول على امتيازات لترجمة قنصلياتها، فحصلت على امتياز إعطاء الترجمة والتجار الحرية المطلقة بالذهاب والإياب براً وبحراً من وإلى مدن السلطنة العثمانية، سواء كان للتبضع أو الشراء، أو للتجارة، بشرط ألا يتخطوا حدودهم<sup>(٢)</sup>.

وإذا وقع خلاف بين أحد رعايا السلطنة وفرنسي، ونفد الحصمان إلى القنصلي ليحكم بينهما فلا يجوز للقنصلي استماع الدعوى، إن لم يكن ترجمان القنصلية حاضراً، وإذا كان الترجمان مشغولاً بأشغال ضرورية تدعو لتأخره عن الحضور تؤجل الدعوى إلى حين حضوره، وعلى الفرنسيين أن ينبئوا عن الترجمان الطالب بدور أن تكون غيبته بحجة مصر<sup>(٣)</sup> وكذلك يسمح للترجمة بحلب العصب إلى بيوتهم ليصنعوا منه حمراً، وإذا أتاهاهم حمير لمؤنتهم فلا يجوز لعمال السلطنة أن يطلبوا صريفة أو هبة لا حين الورد ولا حين الفل<sup>(٤)</sup>.

**القنصلية الإنكليزية:** أيضاً السفير الإنكليزي جيمس بورتر يتدخل ويطلب بفتح ترجمان قنصلية بريطاني في حلب جميع الامتيازات والمصالح والإعفاءات المخصوص عليها دولياً<sup>(٥)</sup>. وتكرر تدخل السفير الإنكليزي نفسه عندما كان لترجمان القنصلية الإنكليزية في حلب (جرجس بن شكري) الذي له علاقات ومعاملات (بيع - شراء - أخذ - عطاء) ولديه مراعاة أمام القضاء، وقد خرج المذكور بريد مما نسب إليه بمعرفة قاضي حلب، وطالب السفير الباب العالي بعدم تدخل أحد في شؤون ترجمان القنصلية المذكور<sup>(٦)</sup>.

وكذلك السفير الهولندي طلب تعيين ياسف بن ميجانيل ترجماناً لقنصلية هولندا في حلب، بدل الترجمان المتوفي جورج دياب، وطالب السفير المذكور إعطاء الترجمان الجديد الامتيازات والبراءة السلطانية لبدء عمله<sup>(٧)</sup>.

(١) - الفرمان رقم / ١١٤ / تاريخ الفرمان (١١٩٦ هـ)، من السجل / ١٦ / للأوامر السلطانية لولاية حلب، ص ٨٢، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٢) - المعاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع السابق، البند ٤٦

(٣) - المعاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع نفسه: البند / ٢٦ /

(٤) - المعاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع نفسه: البند / ٥١ /

(٥) - الفرمان رقم / ٤٣٢ / تاريخ الفرمان (١١٦٢ هـ)، من السجل / ١ / للأوامر السلطانية لولاية حلب، ص ٢٣٤، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٦) - الفرمان رقم / ١٣١ / تاريخ الفرمان (١١٧٥ هـ)، من السجل / ٦ / للأوامر السلطانية لولاية حلب، ص ٦٠، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٧) - الفرمان رقم / ١٢٩ / تاريخ الفرمان (١١٩١ هـ)، من السجل / ١٤ / للأوامر السلطانية لولاية حلب، ص ١٢٤، دار الوثائق التاريخية بدمشق



وتظهر وثائق المحاكم الشرعية عمليات احتيال واحتلاس يقوم بها المترجمة ، كما حصل مع ترجمان قسطنطين هولندا في حلب شكري ديباب الذي لعب واحتال في المعاملة مع للمواطنين ، واحتلس أموال التجارة ومعه أصحاب الديوان ، حيث تقاسم الأموال مع المباشر والكاتب المعين الذين أحيا وأضاع الأموال العائدة للقنصل الهولندي بواسطة الترجمان المذكور<sup>(١)</sup>.

لكن يجب الإشارة بأن القنصليات الأوروبية في ولاية حلب لم تكن راضية عن منجزاتها وسلوكهم ، وكانت الشكاوى صدهم كثيرة ، بعضهم أحياناً وبيعهم الأسرار أحياناً أخرى ، ولذلك سارعت القنصليات جاهدة لإيجاد حل لمشكلة المترجمة من خلال الاعتماد على تراجم من البلد الأم للجاليات. فما هي فرنسا تؤكد في مصادرها مع السلطنة عام ١١٥٣هـ / ١٧٤٠ م ، على حصول امتيازات لترجمتها الفرنسيي الأصل ، فعندما يترجمون تماماً ما عهد إليهم ويقصون مأموريتهم فلا يهانون ولا يسجنون ، وإذا قصروا بشيء يؤدبهم سراًوهم لو قنصلهم بدون أن يحق لشخص آخر التعرض لهم<sup>(٢)</sup>. وكذلك أصبح الفرنسيون يختارون المترجمين من الأتباع الفرنسيين في الشرق ، الذين درسوا في فرنسا أو إسطنبول ، والذين يلمسون بعض اللغات. وفي بعض الأحيان من الفرنسيين الذين عاشوا سنوات طويلة في حلب ، حيث كان هؤلاء يرسلون إلى مختلف المدن ، ويتربعون على منصب المترجم الأول بعد التخرج من مدارس العاصمة العثمانية<sup>(٣)</sup>.

أما إنكلترا فقد حاولت في أواخر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر الميلادي ، إرسال بعض العتبات من طائفة الروم إلى إنكلترا على حساب الشركة ، وأرسلوا إلى كليتي غلوسستر وأكسفورد ، ليتعلموا الإنكليزية لاستخدامهم تراجم عند عودتهم إلى بلادهم ، لكن العمل لم يكر ناجحاً ، حتى أنه عندما اقترح إرسال فوج ثار في سنة ١١١٦ هـ / ١٧٠٤ م فإن الشركة أعطت السفير ستون (Suton) بأن أولئك ، الذين كانوا سابعاً في أكسفورد ، لم يعطوا التشجيع الكافي للقيام بمحاولة أخرى من هذا النوع ، ولذا فقد قرروا عدم إعادة الكرة مرة أخرى. وكان بعض المترجمة من أهالي البلاد قد اكتسبوا تدريجياً بعض المهارات ، وشرعوا باكتساب بعض العادات الأوروبية ، لذلك حولت الشركة بصرها عن هذه التجربة<sup>(٤)</sup>.

أما عن رجال الدين المسيحيين حيث أن الدول الأوروبية عندما أرسلت رعاياها إلى مختلف أنحاء السلطنة العثمانية ، لم تنس من يظن لهؤلاء الرعايا شؤونهم الدينية ، لذلك كانت حريصة كل الحرص على إرسال رجال دين مع رعاياهم ، ليقوموا بالإشراف على الأمور الدينية وتنظيم العادات في كل أسكلة يقيم

(١) القرمال رقم / ٣٣١ / تاريخ القرمال (١١٧٧ هـ) ، من السجل / ٦ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٧٨ ، دار الوثائق التاريخية بمشق

(٢) - المعاهدة / ١٧٤٠ م / : المرجع السابق ، البند / ٤٦ / .

(٣) - سر مايس المرجع السابق. ص ٤٠١

(٤) الصباغ الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦٢١.

هيا القنصل . فما هي جمهورية البندقية أرسلت مع قنصلها إلى حلب رجل دين يرافق القنصل ، وكذلك فرنسا كان لكل جالية قسها الذي كان يتناول الطعام على مائدة القنصل ، وكانت فرنسا تسعى بكل طاقتها لتثبيت نفوذها الديني عن طريق إقامة كنائس مربية خاصة في قنصلياتها ، عن طريق تشجيع البعثات التبشيرية ومساعدتها<sup>(١)</sup>.

أما الجالية الإنكليزية: فلم يملك الإنكليز كنيسة أو ديراً أو مدرسة أو مشفى، لأن الوجود البريطاني مبني على أهداف سياسية وتجارية فقط منذ تأسيس القنصلية الإنكليزية في حلب في القرن السادس عشر الميلادي ، وبالكاد كان يصل إلى حلب قس أو أسقف أنكليكاني بروتستانت<sup>(٢)</sup> لإقامة شعائر دينية في إحدى قاعات القنصلية للجالية البريطانية الصغيرة ، كما كان الإنكليز يتمتعون باحترام كبير في مدينة حلب ويحتفظون بمكانة مرموقة ، على الرغم من عدم امتلاكهم على دور عبادة ، لأن رجال الدين الأنجليكاني كانوا يزورون هذه الجالية الصغيرة من قبرص (كالأب باكستون والأب ستوارت والأسقفين ميسنغ وبراون من القدس)<sup>(٣)</sup>.

لقد كان رجال الدين المسيحيون المرافقون للجاليات يقومون للصلوات مع أعضائها ، كما تجري في وطنهم، ويترفعون على كنيسة بجهروسها لهذا الغرض ، وفي الحقيقة كان ممدوحاً إنشاء أية كنيسة جديدة للجاليات خارج إستانبول وأرمير ، فقد كانت للجاليات الأوروبية في الإسكندرية مثل حلب أمكنة يقوم فيها شعائرهم الدينية مثل كنيسة البندقية في حلب ، كما كانت هناك علاقات دينية مع جميع ممثلي الدول الأوروبية عدا بريطانيا. لأن أغلب الدول الأوروبية تدين بالعبادة الكاثوليكية ، وكانت لجالياتها وقنصلياتها جميع أنواع التسهيلات للقيام بواجباتها الدينية ، والصلاة في كنائس وأديرة المبشرين الكاثوليك العديدة في حلب<sup>(٤)</sup>.

أما الأطباء الجاليات: فبعد القرن السابع عشر أخذت القنصليات الأوروبية تصمم طبيباً بشرياً يشرف على صحة أفراد الجاليات ، وكانت البندقية أول من أرسلت مجموعة من الأحصائيين الفنيين إلى قنصلياتها مثل (الطبيب والحلاق والحذاء والخياط).

(١) الصباغ الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق، ص ٦٣٤

(٢) - المذاهب البروتستانتية- مؤسسه راهب كاثوليكي المذهب ، ألفني الجنسية يدعى مارش لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦ م) ، احتج لوثر على النظام الكمسي والهرمبة ، فحرمه البابا ولفظة بروتستانت مشتقة من لفظة بروتستو أي إقامة الحجة ، وهذا المذهب سائد الآن في ألمانيا والدنمارك والسويد وهولندا وإنجلترا وأمريكا الشمالية

(٣) سورميان المرجع السابق- ص ٤٠٤ - ٤٠٥

(٤) سورميان المرجع نفسه، ص ٤٠٥

أما القنصلية الفرنسية فلم تحصل على طبيب إلا في مطلع القرن الثامن عشر، حيث كان / ٢ - ٣ / أطباء فرنسيون يعملون تحت حماية القنصل الفرنسي في حلب ، ويعرف أحدهم بالطبيب الحاص للفرنسيين أو الجالية<sup>(١)</sup>.

أما القنصلية الإنكليزية فقد كان لشركة للتبائن طبيب واحد في حلب وهو الطبيب ألكسندر راسل ، حيث كانت حياة البريطانيين الذين يعادرون الوطن من قناصل وموظفين كبار وتجار إلى بلاد ، تعدد آلاف العراسح عن إنكلترا غالية على الدولة ، بسبب المعاملة التي يلقاها بعض هؤلاء في الشرق من تعذيرات ، وأيضاً من خطر الأمراض السارية التي راح ضحيتها آلاف السكان المحليين من كل الملل وبينهم الأجانب ، لذلك أجبرت هذه الأحوال الشركة التجارية الشرقية للتبائن ووزارة الخارجية البريطانية ، على تعيين أطباء حادقين لسفارتهم وقنصلياتهم في الشركة ، لمعالجة مواطنيهم جراء الحوادث والأمراض العامة والمعدية.

ولم يكن أطباء القنصليات البريطانية والفرنسية في حلب يقدمون للمعالجة الضرورية لمواطنيهم المرضى فحسب ، بل كان هؤلاء الأطباء الأحصائيون المهرة يدعون إلى بيوت الأغنياء المسلمين والمسيحيين واليهود ، وكان الطبيب ألكسندر راسل (Alexander Russell) طبيب القنصلية البريطانية في حلب قد وضع علمه وخبرته الطبية في خدمة القنصلية المذكورة وسكان حلب في القرن الثامن عشر الميلادي. والطبيب راسل لم يكن طبيباً فحسب ، بل كان عالماً اجتماعياً أيضاً وكاتباً يدون الأشياء والأشخاص والعادات بلغة سهلة ، فألف كتاباً من جزأين هو تاريخ حلب الطبيعي the natural history of Aleppo<sup>(٢)</sup>.

أما الحرس أو الشاويشية: فالامتيازات التي منحت للقناصل الأوروبيين أعطتهم الحق في احتياز انكشارية لحراستهم ، فأصبح هناك عدد منهم يقومون بهذه المهمة ، وكان القناصل لا يخرجون أبداً إلا وهم بصحبة أفراد من الحرس ، ولقد أبدى هؤلاء الانكشارية إخلاصاً كبيراً في عملهم حتى أن كينول أحد قناصل الإنكليز في حلب وجدهم أحلص الرملاء في العالم<sup>(٣)</sup> والقنصل الفرنسي دارفيو رأى فيهم أفراداً ممتازين في عملهم وخدمتهم. فكان للقنصلية الإنكليزية حارسان إنكشاريان يتقاضيان مرتبتيهما من الشركة التجارية الشرقية للتبائن. وعندما كان القنصل الإنكليزي يخرج من القنصلية كان هذان الانكشاريان يسيران أمامه، ويقومان بصرب العصا الطويلة على الأرض ، كي يعلم الناس بقدوم القنصل وإفساح المجال لممروره، ويرتكبان الرأي المعتاد. وكان عددهم يزيد في بعض المناسبات الخاصة والجميع يعظم قبعات خاصة من اللناد<sup>(٤)</sup>.

(١) - سورميان: المرجع السابق، ص ٤٠١.

(٢) - سورميان: المرجع نفسه، ص ٤٠٨ - ٤٠٩.

(٣) - Wood p ٢٢٨

(٤) - سورميان: المرجع السابق، ص ٤٠٤.

وأخيراً وفي آخر السلم الإداري للتفصيلات يأتي الخدم: كان التفصيلات الأوروبية في ولاية حلب، خدم للمحافظة على نظام الترف والاحتفالات التي كان للقناصل حريصين على إظهار خدمتها أمام الأتراك، ويسون عليها هيئتهم، لكن الخدم الإنكليز لم يكن مرصياً عنهم، لأنهم اعتادوا الكسل والتهاون، وكان ارتفاع درجة حرارة البلاد والحمر يمينان إليهم، مما أدى لإعادة أكثرهم إلى إنكلترا<sup>(١)</sup>. وقد استخدم القناصل أهل البلاد وحاصلة الأرمن والروم منهم، للذين يرحبون بهذا العمل للأجور الجيدة التي كانوا يتقاضونها<sup>(٢)</sup>. ولم يغيب عن أذهان الساسة الفرنسيين عند توقيعهم معاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م مع السلطنة الحصول على امتيازات للخدم الذين يقدمون خدماتهم للسفير الفرنسي والقناصل في الولايات، فساعدهم على إعفائهم من ١٥ % / من الضرائب والرسوم المفروضة عليهم<sup>(٣)</sup>.

وفي نهاية الحديث عن الأوضاع الإدارية للجاليات الأوروبية في ولاية حلب (البندقية - الفرنسية - الإنكليزية - الهولندية) خلال القرن الثامن عشر الميلادي، نلاحظ أن أفراد تلك الجاليات لم يكونوا عبدة عن مغامرين تركوا أوطانهم وأهلهم في بلادهم الأم بحثاً عن حب المعامرة والاستطلاع والاستكشاف، كما لم يكونوا عبدة عن مجرد أفراد يهيمنون على وجوههم، ولا يعرفون ماذا يريدون جاءت بهم الأقدار إلى بلاد الشرق، وإنما على العكس من ذلك، فقد كان هؤلاء أشبه بجمهوريات صغيرة لها إدارتها الكاملة وموظفوها الخاصون. بحيث تشتمل على جهاز إداري كامل من السفير الذي هو صلة وصل بين رعايا دولته في السلطنة العثمانية والباب العالي من جهة، وبين رجال دولته والباب العالي من جهة ثانية. وبعد السفير يأتي على رأس كل جالية قنصل يرأس الجالية ويسير أمورها، ويدافع عنها أمام السلطات العثمانية، ثم نواب القناصل والحاربون الذين يشرفون على الأمور المالية. ثم السكرتير أو المستشار ثم المترجمون والأطباء والحرس والخدم. فهو جهاز إداري كامل لا يفتقر حتى للخدم. حيث كانت الجاليات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً جداً بأوطانها على الرغم من المسافات البعيدة التي تفصلها عنها. فهذه الجاليات كانت بمثابة امتداد بشري للدول الأوروبية التي تتبعها، كما كانت وسيلة تسلي وتغفل أرسلت إلى السلطنة العثمانية، لأهميتها من كافة النواحي السياسية والتجارية والاستراتيجية والدينية. لتعمل على إضعافها ونهب ثرواتها، ومن ثم السيطرة عليها وبخاصة المناطق العربية من السلطنة العثمانية.

.....

(١)- Wood- p ٢٢٥

(٢)- لصباح: الجاليات الأوروبية، المرجع السابق، ص ٦٣٨.

(٣)- المعاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع السابق، جلد ٤٧ /.

## الفصل الثاني

### النشاط الاقتصادي للجاليات الأوروبية في ولاية حلب

الأوضاع العامة للتجارة.

تجارة الجاليات الأوروبية في ولاية حلب خلال القرن الثامن عشر.

التبادل التجاري (الصادرات والواردات).

النقود.

الجاليات الأوروبية والوسطاء المحليون.

الصعوبات التي واجهت تجارة الجاليات الأوروبية.

طرق المواصلات التجارية ووسائل النقل والموانئ البحرية التي اعتمدت عليها ولاية حلب.

كانت منطقة المشرق العربي خاصة ، والوطن العربي بشكل عام ، يمثلان موقعاً جغرافياً واستراتيجياً مهماً بين أقاليم وبلدان الشرق من جهة ، وأقاليم وبلدان أوروبا في الغرب من جهة أخرى. الأمر الذي ساعدها على التحكم في التجارة العالمية ، وجعلها محط أنظار التجار للعمل والاستفادة من حيراتها. وهي القربين السادس عشر والسابع عشر توأمت للجاليات من أوروبا إلى بلاد الشام بشكل مكثف ، لم وجدته من عوامل جذب. وكان العمل بالتجارة محورياً لنشاطها وحياتها. وهما يلي سوف يتم التعرف على:

## ١ - الأوضاع العامة للتجارة:

من أهم العوامل التي دفعت أوروبا للكشوف الجغرافية ، العوامل الاقتصادية والتي تلخص في محاولة أوروبا التخلص من الرسوم الجمركية الفادحة التي تفرضها السلطات المملوكية الحاكمة في مصر وبلاد الشام على السلع الشرقية عند مرورها عبر أراضيها.

وكذلك الرغبة في صرب احتكار تجار البندقية الذين كانوا يقومون بنقل السلع الشرقية من موانئ مصر وبلاد الشام إلى أوروبا ، وقد أدى هذا الاحتكار إلى تحقيق أرباح خيالية للعاملين في التجارة منذ ثامن البصائع من موانئ تصديرها في آسيا وتوزيعها وبيعها في أوروبا (١).

حيث احتاجت أوروبا وبلاد الغرب بشكل عام إلى مولود بلاد الشرق الأقصى ، وموادها الأولية ، من التوابل ، والمواد اللازمة للعلاج الطبي ، واللؤلؤ والحرير ..... ، والمواد الخام والمصنوعات التي كانت من منتجات الشرق والشرق الأقصى.

وكانت تلك السلع تنقل إلى أوروبا من خلال طريقتين: طريق الحرير وطريق التوابل. وقد سيطر العرب على تلك التجارة العالمية سواء شراؤها أو نقلها ومن ثم إعادة بيعها إلى أوروبا ، فجنوا من جراء ذلك أرباحاً طائلة ، فشأت أسواق عدة في الوطن العربي وحارجه ، وأصبحت بحاجة إلى بيع منتجاتها ، وجرها ذلك إلى البحث عن المراكز البحرية وعن المخازن والقواعد والامتيازات ، ودخلت أوروبا بذلك عصر الاستغلال الرأسمالي الذي كان أساساً لدخولها عصر الاستعمار (٢).

وعلى الرغم من كون مصر وبلاد العربية الأخرى قد أصيبت بصربة شديدة ، نتيجة لتحول التجارة الهندية الرئيسية إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، إلا أن موقعها الجغرافي كن ولا يزال يصغي عليها مرايا طبيعية ضخمة بصفتها مخازن للتجارة بين أوروبا وآسيا وأفريقيا ، وكانت أهم نقاط تلاقي الطرق التجارية هي القاهرة وحلب وبيروت ، وكانت حلب بوابة للطريق التجاري إلى بغداد ، وهو الطريق الرئيسي للعلاقات

(١) - الصطوف ، عبد الكافي وآخرون: تاريخ أوروبا في العصر الحديث ، مطبعة المدودي ، دمشق ، ١٩٩٨ م ، ص ٦١.

(٢) يحيى ، جلال: العالم العربي الحديث ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٦ م ، ص ١٢ - ٢٧.

القائمة بين فارس والخليج العربي ، لكن هذه العلاقات ما كانت لتحرز سوى أهمية قليلة لولا الهبات الخارجية للسلسلة: أوروبا وفارس والهند<sup>(١)</sup>.

أما بالنسبة إلى حلب كانت على اختلاف الأزمنة التاريخية المتعاقبة عليها ، ومهم كانت السلطة المهمة عليها مدينة مبادلات تجارية ، وهذا بصر سبب ازدهارها الاقتصادي ، وكانت وطبقها الأساسية القيام بدور مركزي كبير للمبادلات للتحررية ، توفوعها في معترك الطرق التي تربط بين الأناضول وما بين النهرين وإيران ومصر. لهذا شكلت حلب المركز الأول في التجارة الدولية العابرة ، لأراضي السلطنة العثمانية ، إذ قصدها قوافل ديار بكر والموصل وبعداد والبصرة ، حملت الأولى والثانية حزين بلاد فارس الشمالية وغيرها ، فضلاً عن الأصبغة الحبوبية والسائية ، وجاءت قوافل بعداد والبصرة بمنتجات اليمن والهند والشرق الأقصى. مثل القهوة والشاي والتوابل وأنواع الأدوية والأصبغة ، وكانت هذه المواد تباع للتجار الإفرنج في حلب الذين بدورهم شحنوها إلى الإسكندرونة أو اللاذقية أو طرابلس براً. ومن ثم بحر إلى بلدان أوروبا العربية. وكان يتم البيع غالباً عن طريق مقايضة هذه البضائع بأقمشة صوفية أوروبية مع دفع الفروق بالنقد الفضي الأوروبي ثم يعاد تصدير هذه الصوفيات إلى المناطق الفارسية<sup>(٢)</sup>.

وكانت تصلها مرتين أو ثلاث في العام قوافل عظيمة مؤلفة من ألفين أو ثلاثة آلاف جمل آتية من الصين والهند وبلاد فارس وبلاد ما بين النهرين ، فتورع بعد ذلك في آسيا الصغرى وأرمينية ومصر ودمشق ، وكان في أسواق حلب فيص غريب من بضائع الهند ، حتى سميت حلب بالهند الصغرى<sup>(٣)</sup>.

وحتى أمد قريب ، ساد اعتقاد بأن الاكتشافات الحفرية الكبرى كبنت التجارة الشرقية خسارة لا تعوض ، ووصفت النهاية لازدهار مدن المشرق العربي كمركز لتجارة العبور ، غير أن أبحاث السنوات الأخيرة أظهرت أن الحقيقة التاريخية لم تكن كذلك . فآزمة تجارة التوابل لم تنذر قرناتها إلا في القرن السابع عشر ، بحيث بدأت التوابل في القرن الثامن عشر تصل إلى المشرق كعادة تصدير لها بشكل أساسي إلى أوروبا مع ذلك. وشكل الحرير الخام المستورد من بلاد فارس ومن وراء القفاس جزءاً مهماً من تجارة العبور في الولايات السورية في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين ، وبعد تضائل النشاط التجاري الذي شهده القرن التاسع عشر ، لوحظ اهتمام متزايد للعرب بأسواق المشرق. وسعيرت بنتيجته نسبة

(١) - جب ، هاملتون ، ومارولد مور: المجتمع الإسلامي والعرب ، د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ج ٢ ، دار المعارف بمصر ، ص ١٥٤

(٢) - حميدة ، عبد الرحمن ، محافظة حلب ، المرجع السابق ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨

(٣) - بروخه ، أنوف: حلب وعلاقتها مع أوروبا ، جمعية عايدت حلب ، ١٩٧٦ م ، ص ١٦٥.

حصة التجارة المشرقية في التجارة العالمية ، وازدادت تجارة قبرص في القرن الثامن عشر بنسبة أربعة أضعاف<sup>(١)</sup>.

وكانت موانئ البحر المتوسط المتصلة مع حلب بشكل نشيط هي إسكندرية واللاذقية وطرابلس الشام ، حيث كانت طرابلس تضم عدداً من القنصليات الأوروبية ، وهي على اتصال دائم مع مثيلاتها في حلب التي كانت طريق تجارة الشرق إلى الغرب وبالعكس ، قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح وحتى افتتاح قناة السويس ١٧٨٦ هـ / ١٨٦٩ م ، فلا تصابيحها بلدة شرقية في سعة موانئها وتعتبر حاناتها، حيث كانت واسطة التبادل لصادرات الهند وأواسط آسيا وأرمينية وفارس مع أوروبا والمقايضة عليها مع تجار جنوة والبندقية وفرنسا وهولندا ، حيث كانت حلب ترحل بجميع الصناعات المشرقية ، وإن البندوقة مد عهد المماليك أقاموا قناصل لهم في حلب وجاء إليها الفرنسيون والإنكليز فكثر عدد الجاليات الأجنبية، وكان في حلب عام ١١٨٩ هـ / ١٧٧٥ م ثمانون وكالة لبيوت تجارية أوروبية<sup>(٢)</sup>.

وهكذا قامت علاقات تجارية واسعة مع الأوروبيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلانيين من خلال تشجيع السلطنة للدول الأوروبية بمنح الامتيازات لهم ، فحدث نشاط تجاري اقتصادي كبير. فالأرض العثمانية وبلاد الشام بحاصة كانت معبراً اضطرارياً يقصر المسافة بين العرب والشرق ، فبضائع أرمينية وفارس والقوقاز والهند تأتي للموانئ العثمانية عن طريق البحر المتوسط بكميات وافية بحيث يكون التبادل بينها وبين المنتجات الغربية رابحة وربحية.

وكانت هذه التجارة بالنسبة للعثمانيين مصدر ربح ، لا يمكن إهماله ولا الاستغناء عنه ، فرسوم الجمرک مورد مال يزود الحرية بقسط كبير من رصيدها واحتياجاتها ، كما أن السياسة الحربية التي كان يتبعها السلاطين كانت تجبرهم على البحث عن صدقة للقوى الأوروبية ، أو حياها.

وكذلك كانت أوروبا تشعر بالحاجة إلى صدقة السلطنة العثمانية ، وكسب ودها ، حيث شعرت أوروبا بمكاسبها من السلطنة ، وبخاصة بعد أن لمست أن البلاد التي تتاجر فيها هي موق استهلاكية لمنتجاتها واسعة وسهلة ، وليس باستطاعتها بهذه الطاقات القائمة أن تتحول إلى بلاد مصدرة لمواد مصنعة ، بل ستبقى بلاداً مستجة فقط للمواد الخام التي تحتاجها صناعات أوروبا الحديثة.

وكذلك وجود هيئة من الوسطاء لعبت دوراً كبيراً في العلاقة بين الطرفين (الأوروبي - العثماني) وكان من مصلحة هذه الهيئة أن تستقر التجارة الأوروبية على الأرض العثمانية ، وتبقى ليدوم لهم عملهم وتستمر

(١) سكيا ، إيربا سميلا ، البنى الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي على مشارف العصر الحديث ، ت: يوسف عط الله ، القاربي بيروت ١٩٨٩ م ، ط ١ ، ص ١٥٦.

(٢) - سعة من اقتصاديات حلب - غرفة تجارة حلب ، مطبعة روطوس ، حلب ، ١٩٥٠ م ، ص ٥ - ٦.



رشاواهم ولذلك سيطر الغربيون وبعض الفئات من الرعايا العثمانيين على التجارة الخارجية ، وتسييرها لصالحهم دون غيرهم. ومن البديهي أن يؤثر هذا في مجرى التجارة الداخلية في نطاق السلطنة العثمانية<sup>(١)</sup>.

من أبرز العوامل المساعدة على ازدهار ونشاط تجارة الجاليات الأوروبية في بلاد الشام عامة ، وحلب خاصة هي الحماية والرعاية اللتان كانتا تلتهما من القناصل والممراء ، الذين وصعتهما لها دولها في المناطق التي تقيم فيها ليرعوا شؤونها ويقصوا بين أفرادها ، ويدافعوا عنها ، ويصاف إلى ذلك أماكن السكن التي هيأتها الدولة العثمانية للأوروبيين وهي الحانات ، وكانت تصمم بيوتاً لسكنائهم ، ومحارن لبيعانهم ، وتجمعهم على احتلاب جنسياتهم الأوروبية ، هذا إلى جانب أن الدولة العثمانية قد فتحت أسواقها لجميع أنواع البند ، مما سهل لهم سبل المبادلات التجارية<sup>(٢)</sup>.

وأطلقت الدولة العثمانية على المسيحي التاجر الأجنبي اللواحق إلى أراضيها ، الاسم الشرعي (مستأمن) أي أنه أقام على الأرض العثمانية للأمان الممنوح له ، والسبب في منحها الامتيازات أن المستأمن الأجنبي لا هو مسلم ليندمج مع المعاملة الإسلامية لرعايا السلطان ، ولا هو رعية دمية، بل هو حالة خاصة يجب أن يوضع له نظام خاص بالاتفاق مع دولته<sup>(٣)</sup>. غير أن حلب لم يكن لها مجرد وطيفة قيادية على صعيد التجارة الداخلية للدولة العثمانية ، وعلى صعيد التبادل التجاري بين هذه وأوروبا فقط ، بل شكلت أيضاً من القرن السادس عشر وحتى القرن الثامن عشر الميلادي مركزاً تجارياً مهماً على صعيد التجارة<sup>(٤)</sup>.

## ب - تجارة الجاليات الأوروبية في ولاية حلب خلال القرن الثامن عشر :

استمرت الجاليات الأوروبية في ممارسة نشاطها التجاري ، باستيراد المنتجات من بلادها الأصلية وتصدير ما تحتاجه بلادهم من المشرق العربي ، وبهذا يلي سيتم التعرف على طبيعة تلك التجارة :

تجارة البندقية: توفقت جمهورية البندقية في تجارة المشرق بسبب تحكمها بالملاحة في البحر الأبيض المتوسط. وتبعاً لذلك تم الانتقال الفعلي للصانع من يد التاجر الأوروبي إلى يد التاجر الشرقي ، أول ما تم على أراضي الشرق الأدنى وهروع الشركات الأوروبية في أرمير وحلب والإسكندرية<sup>(٥)</sup>.

كانت البندقية من القرن الحادي عشر إلى القرن السادس عشر الميلاديين أعظم دول البحر المتوسط تجارياً ، وعدت ملكة بحر الأدرياتيك وسيدة بحار الشرق ، فتلفت طيلة تلك الحقبة أقصى درجات العناية

(١) الصباغ الجاليات الأوروبية ، ج ١ ، المرجع السابق ، ص ٢٤٩

(٢) - الصباغ الجاليات الأوروبية ، ج ١ ، المرجع نفسه ، ص ٢٥١

(٣) - طريخ ، أحمد: المرجع السابق ، ص ١٢.

(٤) غاوية وفيرث المرجع السابق ، ص ٦٠٦.

(٥) غاوية وفيرث المرجع نفسه ، ص ٢٣ - ٢٤

والرخاء. ولقد تصافرت أسباب عدة في تكوين تلك العظمة العريضة ، غير أن سبباً من هذه الأسباب يسترعى في البداية نظر المؤرخ ألا وهو نمو الحياة الاقتصادية نمواً عظيماً وازدهار تجارة البندقية<sup>(١)</sup>.

وبطراً لأهمية حلب كان للبندقة أول من أقام فيها. ففي عام ١٠١٤ هـ / ١٦٠٥ م كان يقطن حلب ما لا يقل عن ١٤٧ / عائلة من البندقية ، بالإضافة إلى عائلة للعنصل، وكانوا يستخدمون حمس أو ست سفن سوي. وكان حجم تجارتهم يزأوح بين مليون ومليون ونصف من الذهب سنوياً ، حيث ترسل من البندقية في حمسة أو ستة آلاف قطعة من قمم الصوف ، ونفس الكمية تقريباً من الحرير والبروكار، وكمية كبيرة من العرمر (صباغ أحمر فاتح) وما تبقى من أدوات المائدة الفضية أو الذهبية. وكان العائد يتمثل في الحرير والبيلة (صباغ أزرق) والبهارات والقصق الحلبي<sup>(٢)</sup>.

وكانت البندقية تأتي إلى حلب ببضائع بقيمة / ٢٥٠.٠٠٠ / ذوق ذهبية، وإذا اعتبرنا الذوقات البندقية<sup>(٣)</sup> / ٤٨،٧ / فرنك ، وبالتالي قيمة بضائع البندقية تعادل / ٢٦١٨٠٠ / فرنك. وكانت البندقية تصدر من حلب بضائع تقابل قيمة الواردات التي تدخل حلب.

ولذلك طلت منتجات البندقية الرائجة تقليدياً في تجارتها مع حلب هي: السورق والسبيج الفاخر ، والعقاقير الطبية والمرابا واللؤلؤ الزجاجي المسمى كورنيولة ، والفتلايل والإبر والديابيس ومنتجات معدنية أخرى ، كانت البندقية تشتريها من ألمانيا وتقايم بها المشرق لتحصل مقابلها على القهوة والتبغ ، والتوابل والحشيش ، والأقمشة الصوفية والقطنية ، وكان القطر السوري هو التجارة الرائجة في حوض المتوسط<sup>(٤)</sup>.

وكانت البندقية تشكل المحطة المهمة من محطات دورة دولية للبضائع ، وطريق التوابل الآتية من مرافئ الهند البعيدة ، وكانت تحمل القفل وزهر القرفل والمسوجات الفاخرة في بطن السفينة ، وعلى ظهور الجمال عبر رحلة بين البحار والصحاري ، حيث كانت حمولات من الأرز والحرب الصيني ترد من البنغال ، والقفل الأسود وجور للطيب من باتافيا ، (الاسم القديم لاندونيسيا) ، والقرفل من سيلان والقرفة من كوشين ، والألوي وخشب الصندل المعطر من ما هي ، واللؤلؤ من البحرين. لقد كانت سفن التجار العرب والفرس والهند تصعد الخليج العربي حتى تصل إلى ميناء النصرة ، وكان يصل عدد قوافل الجمال في القرن السابع عشر حتى عشرة آلاف دابة محملة بالبضائع ، ويتوقف في بغداد قطار طويل من السمن

(١) - دين - المرجع السابق ، ص ٢٧

(٢) - ريسر ، الكمبرس وباريك. تاريخ حلب الطبيعي ، د. خالد الجبيلي ، شعاع للنشر والعلوم ، حلب ، ط ١ ، ١٩٩٩ م ، ص ٢٥١

٢٦١

(٣) - الذوقات البندقية نقد ذهبي عيار ثقل يقرب من أربعة وعشرين قيراطاً ، وهو يمتد إلى جمهورية البندقية التي بدأت في صربيه عام ١٢٥٢ م

(٤) - كوسانتيني ، هيرا: المرجع السابق ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩

المتأرجحة المنهادية لتصل في نهاية المطاف إلى سوريا. وكانت حلب وقتها ، إحدى أكبر وأهم محطات التبادل التجاري في حوض المتوسط بأمره<sup>(١)</sup>.

وحفاظاً على العلاقات اللودية والتجارية بين السلطنة العثمانية وجمهورية البندقية ، صدر فرمان سلطاني من الباب العالي موجه إلى المسؤولين في ولاية حلب ، من أجل استيفاء الرسوم الجمركية عن البضائع التي ترد إلى موافى السلطنة العثمانية من نهار جمهورية البندقية ، ويطلب للفرمان بالعمل على التعهد والالتزام الممنوحين لمعتمد الجمهورية بالأسنانة، فلا يجوز مخالفتها، ويطلب أمباء الحمارك في حلب وإسكندرية وفي أطرافها من الأمباء والعمال بخصوص السفن الخارجة للتجارة ببضائعهم ، واستيفاء الرسوم عن بضائعهم المقرلة فقط ، وعدم استيفاء الرسوم عن البضائع غير المباعة. وذلك لأجل الاستمرار بالصدقة القديمة مع تجار البندقية<sup>(٢)</sup>.

وهكذا اردهرت تجارة البندقية في بلاد المشرق التي فتحت أبوابها لتجارها ، واستمرت لفترة طويلة من الزمن ، وتعرضت لصعوبات جمة ، وخصوصاً من خلال العلاقات المتوترة غالباً بين البندقية والسلطنة العثمانية ، والتي ألقت بطلانها على مسيرة العمل التجاري لتجارة البندقية. ولذلك انخفض عددهم وبالتالي نشاطهم التجاري حتى شاعت الأقوال أن تضع نقطة النهاية لجمهورية البندقية ، كدولة مستقلة في أواخر القرن الثامن عشر، لتصبح جزءاً من الوحدة الإيطالية ، محتفظة من خلال تجارها ومعاملاتهم التجارية بذكريات طيبة عن المشرق عامة وولاية حلب خاصة ، كونه كانت المحطة الرئيسية لتصدير بضائعها إلى بلادها الأصلية.

تجارة فرنسا: أصبحت سوريا في مطلع القرن السادس عشر عدة ولايات صمد السلطنة العثمانية ، ولم تشكل وحدة إدارية صمد ولاية عثمانية واحدة ، وتأثرت بالاتجاهات الاقتصادية التي بدأت توجهها الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية بشكل عام ومع فرنسا بشكل خاص ، إذ أخذت هذه الدول وعلى رأسها فرنسا تتجه بأنظارها نحو الدولة العثمانية ، هيمن التجار الأوروبيون داخل السلطنة العثمانية هيمنة كاملة على عمليات التبادل ، وكان لفرنسا دور بارز في هذا المضمار، وشكلت سورية أحد المحاور في هذا المجال<sup>(٣)</sup>.

والبنداية الحقيقية للعلاقات التجارية بين فرنسا والمشرق بعد توقيع اتفاقية ٩٤٢ هـ / ١٥٣٥ م بين فرانسوا الأول وسليمان القانوني، وأقامت جنليات في إسطنبول عام ٩٥٧ هـ / ١٥٥٠ م ، وأسست قنصلية

(١) - كوستانتيني ، هير: المرجع السابق ، ص ٢٥٠ - ٢٥١

(٢) - الفرمان رقم / ١٩٣ / تاريخ الفرمان (١١٩٢ هـ) ، من المجلد / ١٤ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٤٤ - ١٤٥ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٣) - رجائي المرجع السابق ، ص ٣٤.

فرنسية في حلب ٩٦٨ هـ / ١٥٦٠ م في خان الحال ، وكانت سابقاً في خان الجمرك ، حيث نقلها  
الفصل الفرنسي دارفيو عام ١٥٩٢ هـ / ١٦٨١ م ، وكان فيه آنذاك / ٨٠ / تاجراً فرنسيين<sup>(١)</sup>

وقدر الفصل دارفيو في عام ١٥٩٤ هـ / ١٦٨٣ م قيمة ما استوردته فرنسا من البضائع الحلبية  
بمليون ليرة، في حين وصلت تجارة الإنكيز إلى ستة ملايين ، وهما بعد تقلص الحجم الإجمالي للتجارة  
الفرنسية إلى أربع مائة ألف ليرة فقط عام ١١١٢ هـ / ١٧٠٠ م ، وجاء هذا الانخفاض في النشاط التجاري  
الفرنسي في حلب نتيجة واضحة لشروط عدة ، كان أهمها:

الوجود المتزايد للحريز الإيراني في إسطنبول.

إعادة انتشار التجار الفرنسيين سعياً للاستثمار في السوق اللبنانية.

عدم قدرة الأجواخ الفرنسية على منافسة الإنتاج الإنكليزي لدى المستهلكين الحلبين<sup>(٢)</sup>

وهما بعد نهضت التجارة الفرنسية من كبوتها، وعانت إلى النهوض من جديد. وتعمس سفيرها  
المختصرم المراكيز دي فيلفوف الذي أوفد من قبل الملك الفرنسي لويس الخامس عشر من الحصول على  
امتيازات كبيرة في معاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م ، حيث منحت الحربة للتجار الفرنسيين الذين يتجرون  
بأموالهم وأمتعتهم على مراكبهم ، في موانئ مدن السلطنة ، ويتجولون دهاياً وإياباً بكامل الثقة والأمن ، ولا  
يجوز لأحد اعتراضهم أو إزعاجهم<sup>(٣)</sup>. ونصت المعاهدة في أحد بنودها على حرية تجار فرنسا في شراء  
البضائع ، ولا يجوز لأحد إجبارهم على شراء ما لا يرغبون به<sup>(٤)</sup>.

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر بلغت تجارة النسيج الكتاني في حلب درونها ، حيث بلغت  
مليون ليرة ما عدا فترة الحروب ، وقد مثلت تلك النسبة بين عامي ١١٨٠ - ١١٨٦ هـ / ١٧٦٦ -  
١٧٧٢ م ( ٨٠,٨١ % ) من مجموع البلدان المصدرة للنسيج. ومن هنا يلاحظ بأنه كان للمشرق دور مهم  
وكبير في إنتاج وتطوير صناعة القطن في أوروبا ، فلقد كانت حلب بالنسبة إلى مرسيلية الهد القريبة أو  
الجارة للمتوسط<sup>(٥)</sup>.

وبذلك تكون مكانة حلب بصفتها مركزاً لإنتاج الأقمشة تعكس في نشاط التجارة الخارجية للمدينة  
(حلب) ، ولأخذ صورة عن هذا النشاط يكفي ذكر أرقام تجارة حلب مع مرسيليا المعروفة بشكل جيد  
والمشهورة بأهميتها ، فخلال القرن الثامن عشر ، كانت صادرات حلب من الأقمشة ، لاسيما القطنية منها ،

(١) - حجاز قنصلية دار بوخة ، المرجع السابق ، ص ١٨٩.

(٢) - ماسنر ، المرجع السابق ، ص ١١١.

(٣) - المعاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع السابق ، قيد / ١٩ /

(٤) - المعاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع نفسه ، قيد / ٢١ /

٢٨ - ٢٦ p ١٩٨٧ CNE ed levanted commerce of Fokasawa - Kaksum (٥)

حصلت على هذا المرجع من طالب دكتوراه فرنسي لتفتت به في القنصلية الهولندية في حلب.

نحو مرسيليا ، تترافد بصورة مطردة فوصلت إلى: (٨٥٠٠٠) ليرة في عام ١١١٢ - ١١١٤ هـ / ١٧٠٠ - ١٧٠٢ م ، وإلى (١٣٢٦٠٠٠) ليرة عام ١١٦٤ - ١١٦٨ هـ / ١٧٥٠ - ١٧٥٤ م و (١٦٩٦٠٠٠) في عام ١٢٠٠ - ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٥ - ١٧٨٩ م وكانت تمثل حينئذ (٤٨,٢٥%) من صادرات حلب ، و (٦٧ % ) من صادرات النسيج في المشرق كله. وبذلك تكون حلب قد قلبت صورة التبادل بين أوروبا والشرق الأدنى ، وفرضت نفسها في القرن الثامن عشر بصفتها مصدرًا للمنتجات المصنوعة ، هذه هي التجارة التي تكسر تصحيم صادرات حلب نحو مرسيليا التي تصاعدت ست مرات من (١٧٠٠ - ١٧٨٩) ، إضافة إلى القيمة الكبرى للحمولات التي تنطلق من الإسكندرية المرفأ المتقدم لحلب (٣٧٥٧٠٠) ليرة للمركب الواحد حتى أزمير (١٤٨٥٠٠) ليرة حتى مصر. هذه الفعالية الداخلية يجب أن تؤخذ بالحسبان لتقدير نمو حلب في القرن الثامن عشر<sup>(١)</sup>.

وقد تعبردت الأسباب الكامنة وراء النجاح الفرنسي النسبي ، إذ أنتجت المصانع الفرنسية قماشاً صوفياً أقل وزناً ، وأرحص ثمناً ، وأكثر جودة وانتقائاً ، مما اشتمل عليه من ألوان راهية ، فما كان من سكان حلب إلا أن فصلوه على غيره ، وألقموا على شرائه ، ومن ناحية ثانية استطاع الفرنسيون استعمال المنتجات التي كانت ولا تزال متوفرة في أسواق حلب وخصوصاً القطن والحرير السوري منها ، وهما منتجات كان في طور النمو والازدهار مما ساعد على تعديده صناعاتهم النسيجية<sup>(٢)</sup>. وتحولت فرنسا بسرعة إلى أهم مشتر للحرير السوري ، وأثبتت غرفة تجارة مرسيليا ، التي أعاد كولبرت تنظيمها من جديد ، جدارتها على الأحص بعد إصلاح ثان في عام ١١٦٤ هـ / ١٧٥١ م كأداة فعالة في هذه العلاقات التجارية الجديدة. وفي تبادلها التجاري مقابل الحرير والحيوط القطنية السورية ، قامت فرنسا بتوريد الأقمشة والأصبغة والسكر والقهوة ، وبعض المواد المعدنية والأثاث المنزلي بالإضافة إلى الحديد والرصاص والفصدير<sup>(٣)</sup>.

ولهذا السبب تمتعت حلب بعلاقاتها التجارية مع فرنسا ، بأفضل ميران تجاري ، ففي عام ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٩ م بلغت قيمة الصادرات ثلاثة ملايين ليرة ، من أصل القيمة الإجمالية للتبادل التجاري الذي قدر بحمسة ملايين ليرة ، وقيمة الواردات مليوناً فقط. مما يجعل نسبة الصادرات إلى الواردات (١٥) بعد أن كانت (١,١) عام (١١٤٨ هـ / ١٧٣٥ م) أما بالنسبة لميران التبادل مع بقية الأسواق الأوروبية الذي تتفوق فيه الصادرات على الواردات ، فهو يبين أن قيمة الصادرات أعلى من قيمة الواردات بنسبة الثلث فيما يتعلق بالتبادل التجاري الإجمالي مع أوروبا. حيث تمثل قيمة للمنسوجات (٤٨%) من القيمة الإجمالية

(١) - ريمون ، ندره ، قديمة العربية حلب في العصر العثماني ، ت. ملكة فليص ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ٢٠٠٧ م ، ص ٢٠٨.

(٢) - بروس المرجع السابق ، ص ١٥١ - ١٥٢

(٣) - غاوي وقيوت المرجع السابق ، ص ٦٢٧

للمصادرات نحو مرسيليا ، وقد زادت هذه القيمة عشريين مرة منذ أوائل القرن ، وإذا ما أضيف إليها الحياض النسيجية ، تزداد قيمة القطر المصنع إلى ( ٥٦ % ) من القيمة الإجمالية<sup>(١)</sup>.

وهما يتعلق بالرسوم الجمركية على البضائع الفرنسية ، فقد حددت السلطة في معاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م أن يدفع التجار الفرنسيون دائماً رسماً جمركياً قيمته خمسة بالمائة عن البضائع التي تصدرونها إلى السلطة أو يستوردونها منها ، وبما أنهم التمسوا من الباب العالي ، تخفيض هذا الرسم إلى ثلاثة بالمائة مرة واحدة لمودعهم القديمة مع الباب العالي ، وأن يدرج ذلك مع الامتيازات الحديثة لذلك استجاب الباب العالي لطلبهم وأمر أن لا يؤخذ منهم أكثر من ثلاثة بالمائة<sup>(٢)</sup>.

ويذكر بيير رينوفان العهد السلطنة العثمانية منذ عام ١١٨٤ هـ / ١٧٧٤ م على أن لا تتقاضى على السلع الفرنسية أكثر من ( ٥ % ) كرسوم جمركية محددة<sup>(٣)</sup>.

وعندما حاول التجار الهرب من دفع الرسوم الجمركية ، كانت العقوبات وسيلة لردع المخالفين ، وسوق مثلاً على ذلك ما حصل عام ١٢١٣ هـ / ١٧٩٩ م هذا ما جرى عندما فرضت السلطة رسوماً مصاعمة على البضائع التجارية ، التي نقلت عن طريق البحر بين حلب وأرمير والمباغة إلى الإسرنج في حلب ، حيث تبين بأن تلك البضائع نقلت خفية بالسفن دون أن تدفع الرسوم الجمركية<sup>(٤)</sup>.

وعندما دزلت الحملة الفرنسية في مصر عام ١٢١٢ هـ / ١٧٩٨ م توترت العلاقات الفرنسية العثمانية ، وأصبح المسؤولون في السلطة يتوجسون خوفاً من كل فرنسي ، وقد قبض على الفرنسيين في ولاية حلب وأودعوا السجن ، وبعد انتهاء الأزمة وانحساب الحملة الفرنسية ١٢١٥ هـ / ١٨٠١ م حاول التجار الفرنسيون العودة لممارسة أعمالهم التجارية ، فصدر أمر سلطاني يسمح بعض التجار من أنواع القنصلية الفرنسية في حلب ، تنهياً للبروتوكول المبرم بين الدولتين واستجابة لطلب المقيم العام الفرنسي ، وافق الباب العالي للتجار الفرنسيين (البس ديزال - براق ديزال - لورلق ديزال) وأربعة من أتباعهم بالتجول بين دمشق وحلب ، والإقامة فيها لتعليم بالأعمال التجارية<sup>(٥)</sup>.

(١) - عماد المرجع السابق ، ص ٢٧٤.

(٢) - المعاهدة / ١٧٤٠ م / : المرجع السابق ، البند / ٢٧ /.

(٣) - رينوفان ، بيير وجان باقيمت دوروزيل - تاريخ العلاقات الدولية ، ت. طير كم نقش ، دار منشورات عويدات بيسروت ، ط ١ ، ١٩٦٧ ، ص ١٠٨.

(٤) - العرجان رقم / ٣٢٩ / تاريخ الفرمان ( ١١٥٦ هـ ) من السجل رقم / ٤ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٦١ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٥) - العرجان رقم / ١٧٢ / تاريخ الفرمان ( ١٢١٢ هـ ) من السجل رقم / ٢٥ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٩٢ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

تجارة إنكلترا: تألفت الجالية الإنكليزية في حلب في منتصف القرن الثامن عشر من قنصل وشريف وعشرة تجار ورئيس ديوان وسكوتير وطبيب وموظف يدعى حاويش ، وكان عدد العائلات البريطانية ثماني عائلات عام ١١٦٧ هـ / ١٧٥٣ م ، وكانت قيمة التجارة السنوية الإجمالية تقدر بـ / ٣٠٠٠٠٠ / دوكات ، وكانوا يستخدمون / ٢ - ٣ / دواحر لنقل السلع الأوروبية والشرقية.

ولكي نلخص فكرة حول الحجم الكبير للتجارة الذي كن يقوم بها حوالي / ١٠ / بيونات تجارية بريطانية في القرن الثامن عشر ، يكفي أن نذكر بأنه لنقل السلع من إسكندرية إلى حلب كان يدفع / ٩٠,٠٠٠ / دوقاة وهي تعد أجرة معتلة<sup>(١)</sup>.

حيث حصلت حلب على ما يقارب نصف الصادرات المطلقة من مناطق الشرق إلى لندن ، والتي تولت عليها شركة المشرق الإنكليزية في النصف الثاني من القرن السابع عشر. ولقد عكس عدد الإنكليز العاملين كوسطاء في المدينة أهمية حلب في تجارة إنكلترا ، إذ أفاد القنصل الملقق بشركة المشرق في المدينة الإنكليزي هنري ماوندرييل (Henry maundrell) عن وجود أكثر من أربعين مقيماً في حلب من مواطنيه عام ١١٠٩ هـ / ١٦٩٧ م<sup>(٢)</sup>.

وعلى مدى القرن الثامن عشر تغير دور حلب الأصلي في التجارة بين الشرق والغرب بصورة جذرية ، فأصبحت المدينة سوقاً رئيساً لتبادل البضائع العثمانية والأوروبية ، حيث حافظ الأوروبيون على العائدة حتى العقد الزمني الأخير من القرن الثامن عشر ، وكان الإنكليز مهتمين بصورة رئيسية بسلعة واحدة وهي الحرير ، حيث كان الحرير الإيراني يباع بصورة جيدة في لندن ، أما للتوابعات السورية لأقل نفاذ والتي جاءت بديلاً له برهنت على أنها أقل نجاحاً ، ثم انحفت في مناسبتها مع الحرير الإيطالي المنفوق ، أو الحرير الهندي والصيني الأرخص. خفض الإنكليز مشترياتهم من الحرير السوري ، كما أن منتجي الحرير والقطن وغفصة الحرور في الريف استفادوا لعقود زمنية عديدة من الطلب الأوروبي ، والحقيقة هي أن متابعة الحرير من قبل الإنكليز كانت شديدة ، بحيث كانوا بين الحين والآخر يجرون إلى مناصرة مع عمال حرير حول طريقة الحصول عليه ، وعندما كانت أسعار الحرير تصل إلى ذروتها في لندن ، كان التجار الإنكليز مستعبرين لشرائه بأسعار لا يستطيع الحرفيون المحليون مجاراتها<sup>(٣)</sup>. مما يؤثر سلباً على النشاط التجاري للتجار المحليين.

فمن حلب بلغ التبادل التجاري عام ١١٢٧ هـ / ١٧١٥ م حوالي ٥٤% من إجمالي واردات الحرير الإنكليزية ، وقيمة إجمالية بلغت ٢٥٠٠٠٠ جنيه تقريباً ، ولم يمر ما بين عام ١١٦٩ ١١٧٣ هـ /

(١) سورمابل المرجع السابق ، ص ٣٦٨

(٢) بروكس المرجع السابق ، ص ١١١ .

(٣) - ماركوس: المصدر السابق ، ص ١٥ .

١٧٥٦ - ١٧٦٠ م أكثر من ٣٧ % فقط ، ولم يصل ذلك ما بين عامي ١١٨١ - ١١٨٨ هـ / ١٧٦٧ - ١٧٧٤ م إلا إلى ١٦ % فقط. بقيمة إجمالية بلغت ٥٠٠٠٠ جنية تقريباً<sup>(١)</sup>.

وصدر فرمان سلطاني في الأستانة موجه إلى المسؤولين في ولاية حلب ، لتحصيل الأموال العائدة عن البضائع المصدرة من ميناء إسكندرونة إلى إنكلترا (حرير - جلود - فراء - رصاص) ، وذلك حسب التعرفة الموضوعة بهذا الخصوص<sup>(٢)</sup>.

ورفع المقيم العام الإنكليزي بالوكالة في الأستانة (أنطويو هيس) كتاباً يهيد فيه ، أن الملحق التجاري الإنكليزي في مدينة حلب شكاً إليه أن التجار والسمايرة الذين يشترون القطن من مدينتي كلس وأصصة ، يعملون من قبل المعلمم خلاف التعليمات السلطانية ، رغم أن الأوامر بهذا الخصوص تقتضي أولاً دفع الرسوم الجمركية لنقل البضائع من ميناء إسكندرونة وتحميلها في السفن.

إلا أن المعلمم في المنطقة مصطفى آغا ابتدع بدعة جديدة وأصاب إلى الرسوم المعنادة ثلاثة قروش ، رسم يدفع عن كل قطار يؤخذ من مشتري القطن من أتباع الإنكليز ، وحال دون نقل كميات القطن من ميناء إسكندرونة إلى السفن ، وذلك بتهديد المستخدمين ، حيث تم إعلام قاضي حلب ، ولذلك أصدر الباب العالي قراراً بنوع / ٢ / أجرة<sup>(٣)</sup> قيمة كل أوقية من القطن للمزار ، وأجرة واحدة عن كل أوقية من القطن العسادي. وترك الحرية لتجار إنكلترا وأتباعهم في إجراء المشتريات من القطن والاقتصار على أحد (٣%) كرسوم جمركي دون زيادة<sup>(٤)</sup>.

وكانت إنكلترا تصدر إلى ولاية حلب ١١٥٤ هـ / ١٧٥٠ م بعض أنواع الحرير والذهب والمحمل ، يحمل من موانئ إنكلترا إلى حلب عن طريق ميناء إسكندرونة.

وصدر فرمان سلطاني لتحصيل الرسوم عن تلك البضائع وإرسالها إلى بيت المال في الأستانة<sup>(٥)</sup>.

(١) - غاوية وهيرت: المرجع السابق ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦

(٢) - العثمان رقم / ١٩٧ / تاريخ العثمان (١١٨٢ هـ) من السجل رقم / ٨ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٥٨ - ١٥٩ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٣) - الأجرة: وهي أصغر وحدات النقود الفضية العثمانية ، ووربت عفاً يصيعة أحشا في بعض المصادر ، وبخاصة في المصادر المصرية ، وهي كلمة تركية معناه اللعوي الصارب إلى اليأس ، ضربت من قبل أورشلي عام ٧٣٩ هـ / ١٣٢٨ م  
انظر محمود حاصر المكايل والأوزان والنقود ، مطبعة ابن حبان ، دمشق ، ١٩٩٧ م ، ص ١٨٢

(٤) - العثمان رقم / ٢٦٢ / تاريخ العثمان (١١٨٩ هـ) من السجل رقم / ١٢ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٠٤ - ٢٠٥ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٥) - العثمان رقم / ٣٤٢ / تاريخ العثمان (١١٥٤ هـ) من السجل رقم / ٤ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٦٧ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق



وكانت السلطة العثمانية حريصة على استمرار العلاقات التجارية الجيدة بينها وبين الإنكليز ، للمحافظة على المكاسب الاقتصادية لكلا الطرفين ، ومما زاد في فوائد التجارة البريطانية مع العثمانيين العداء المستحكم آنذاك بين العثمانيين وفرنسا في أعقاب حملة نابليون بونابرت على مصر وبلاد الشام ، كما أن القوة البحرية الكبيرة لبريطانيا مكنتها من فرض ما يشبه الاحتكار على التجارة الدولية مع بلاد المشرق ، فعادت المصدر الرئيس للصناعات المعصعة ولمنتجات المستعمرات البريطانية<sup>(١)</sup>

كما أصدرت السلطة العثمانية فرماً ١٢٠٨ هـ / ١٧٩٣ م يأمر بعدم التعدي على التجار الإنكليز المستوردين والمصدرين لبصائعهم ، وفق المعاهدة الموقعة مع إنكلترا ، وصدر هذا الفرمان بسبب عريضة رفعها إلى الباب العالي المعتمد المقيم الإنكليزي يارون هيربرت رانكل ، يعرب فيها بأن رعيته من الأجانب المستوردين للصناعات والمصدرين لبيعها هم أحرار يبيع وشراء بصائعهم ، ولا يحق لأحد التعدي عليهم<sup>(٢)</sup>.

وكذلك صدر فرمان آخر ١٢٠٨ هـ / ١٧٩٣ م أجل استرداد الرسوم الجمركية المدفوعة مكررة في ولاية حلب من قبل بعض تجار إنكلترا عن بصائعهم بحيث أن المدعو (جان بوم) التاجر الإنكليزي الذي كان لديه أنواع متعددة من البصائع ومنها (٧٠) ساعات يد وضعت داخل صندوق صغير لأجل بيعها في جزيرة قبرص بعد أن دفع عنها الرسوم الجمركية ، ولكن بعد التمسيد لم تنبع هذه الساعات فرجع بها التاجر المذكور إلى حلب مروداً بالتمكدة وإشعار تأدية الرسوم ، ولكن محصل حلب لم يقبلها لمخالفتها للتعهد السلطاني ، وقد استوفى الرسوم مكررة وبطريق الإزعاج ، لذلك يجب على والي حلب استرداد الرسوم المتكررة وإعادتها لأصحابها<sup>(٣)</sup>.

وصدر فرمان سلطاني موجه إلى المسؤولين في ولاية حلب ، بشأن التسون التجارية الإنكليزية المحملة بالبصائع من (حرير وصوف) والمارة عبر موانئ السلطنة لبيعها ، وقيل نقلها للأرياف ، حيث تدفع عنها الرسوم الجمركية ، وبعدها يصار إلى بيعها ، ولكي لا تطلب منهم رسوم جمركية مرة أخرى بناء على التعهد الخلفي الممنوح لإنكلترا ، علماً أن البصائع الحجازي يبيعها بالأرياف بعد استيفاء رسومها الجمركية ، وأم البصاعة التي لم تحرج من السفينة فلم يستوف عنها الرسوم. فإذا استوفيت تكون مكررة ، وتكون مخالفة للنشرع ومضايقة للقواعد التجارية، لذلك على أمراء الجمارك استيفاء الرسوم الجمركية فقط عن الأمتعة

(١) - حوري ، جورج. المصالح الاستعمارية البريطانية والحفاظ على الإمبراطورية العثمانية ، مجلة دراسات تاريخية ، ع ٤١-٤٢ ، ١٩٩٢ م ، ص ٩٠

(٢) - الفرمان رقم / ٢٧ / تاريخ الفرمان (١٢٠٨ هـ) من السجل رقم / ٢٤ / للأمر السلطاني لولاية حلب ، ص ١٧ ، ١٨ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٣) - الفرمان رقم / ٥٠ / تاريخ الفرمان (١٢٠٨ هـ) من السجل رقم / ٢٤ / للأمر السلطاني لولاية حلب ، ص ٤٣ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

المفرجة بعية بيعها ، لذلك تطلب الابتعاد وعدم التعتري على التجار وعدم العطالة بالرسوم عن البضائع غير المعادة<sup>(١)</sup>.

وصدر فرمان سلطاني حدد الرسوم الجمركية عن البضائع المستوردة من إنكلترا ، والتي كانت تدفع في الأرياف لولاية حلب ، ولذلك يجب أن تطبق الأنظمة للبضائع المستوردة من الدولة المذكورة ، والحاصلة برسوم تحميط القهوة وحيوط الزهر وبقية الأصناف المختلفة من البضائع التي يباع قسم منها في الصواحي والأرياف لولاية حلب<sup>(٢)</sup>.

ومن أجل تشجيع التجارة الإنكليزية في أراضي السلطنة العثمانية أصدرت السلطنة ، أمراً سلطانياً بتخصيص التعرفة الجمركية عن البضائع المصدرة (قطر - جلود مدبوغة) من ولاية حلب إلى إنكلترا بواسطة التجار الإنكليز<sup>(٣)</sup>.

وأخيراً استمر التجار الإنكليز بمراقبة ورصد وضبط أسعار التوابل والبن في حلب خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين ، وبقي الحرير ، سواء كان إيرانياً أم سورياً ، هو السلعة الأساسية التي تمحورت حولها مصالح التجار الإنكليز في أسواق المدينة ، حيث كان يتم ابتياع سلع متفرقة أخرى منتجة محلياً كالحرير الخام والحبوط الفظنية المستعملة في العرن والنسيج إضافة إلى العصاة الجوزية المستعملة من كردستان<sup>(٤)</sup>.

تجارة هولندا: كان الهولنديون يملكون أسطولاً تجارياً مهماً ، ولديهم مدن تستقطب التجارة الأوروبية مثل أمستردام وروتردام التي أصبحت مركزاً عالمياً للتجارة بعد اكتشاف البحيرة ، وكان أسطولها بحمولة / ٧٠٠ / طن ينقل الجوخ والألبان في بحر الشمال والمحيط الأطلسي ، فقد جذبت تجارة الشرق هولندا إلى السواحل الشرقية للمتوسط ، وكانت سفنهم تعمل تحت الراية الفرنسية في القرن السادس عشر ، واندفع الهولنديون إلى آسيا ، وطلبوا العمل تحت الراية البريطانية ، وأسست شركة الهند الشرقية الهولندية عام ١٦٠٢ هـ / ١٥٩٤ م وشركات أخرى ، وبعد انتصار الأسطول الهولندي على الأسطول الأسباني في عام ١٦٠٦ هـ / ١٦٠٧ م وفد إلى إسطنبول (كورنيليس فان هاغا) عام ١٦٢١ هـ / ١٦١٢ م لينال لدولته

(١) - فرمان رقم / ١٧٨ / تاريخ فرمان ( ١١٩١ هـ ) من سجل رقم / ١٢ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٦٤ - ١٦٥ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٢) - فرمان رقم / ١٨٦ / تاريخ فرمان ( ١١٩١ هـ ) من سجل رقم / ١٢ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٦١ - ١٦٢ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٣) - فرمان رقم / ١٩٤ / تاريخ فرمان ( ١١٩١ هـ ) من سجل رقم / ١٢ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٧٩ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٤) - بروس المرجع السابق ، ص ١٠٥.

امتيازات مماثلة، لما حصلت عليه فرنسا وإنجلترا والبنغال ووفق في ذلك ، ولقد لعب الهولنديون دوراً مهماً في حركة النقل التجاري مع الشرق ، وخاصة تجارتها مع الشرق الأقصى<sup>(١)</sup>

وحصل السفير الهولندي جوسيتومس كولير على امتيازات من السلطنة العثمانية ١٠٩١هـ / ١٦٨٠ م ، فعلى الصعيد الاقتصادي سمحت الامتيازات بحرية التنقل للتجار ، وكذلك الحق بدفع تعريفات جمركية مناسبة. وقد نصت المادة / ١٢ / على أن (تدفع على المنتجات التي يحملها التجار الهولنديون ، والتي يشترونها بداء على طلب مجلس للطبقات / ٢ % / صربية جمركية لا أكثر ، في حلب والإسكندرية والأماكن الأخرى)<sup>(٢)</sup>.

ويمكن التمييز بين صنفين من المنتجات المتنافسة بين سورية العثمانية وهولندا ، فالمنتجات التي تؤخذ من قلب السلطنة العثمانية (الكتان والصوف والقطن والحرير والصوف المعروى من وبر الماعز والحبوب). أما المنتجات التي ترد من بعيد (التوابل والبهارات واقضه وأقمشة الحرير) ، بينما يصدر العثمانيون إلى هولندا وبشكل رئيس (الحرير والقطن والصوف والمسوحات الأخرى) وكان الهولنديون يأتون بالفولاذ والسحار والملح البارود والسيوف والبارود وبعض القطع العضية.

ولقد شكلت التوابل تجارة مهمة بين آسيا وأوروبا ، فهي ضرورية للأطعمة ، وحلب تشغل مكانة مهمة في هذه التجارة، إذ أنها تقع على الطريق البرية بين آسيا والبحر المتوسط ، وتستخدم كمحزن للعديد من التوابل المستوردة من الهند. وكذلك السبع ، إذ بقيت دمشق طويلاً المفاصل لمدينة حلب ، ولكن بهصة تجارة الحرير بين الشرق والغرب وأهمية دمشق البعيدة كثيراً عن مراكز الإنتاج قلصت هذه المسافة ، وأصبحت حلب السوق الرئيسية للحرير بالنسبة إلى أوروبا<sup>(٣)</sup>.

وصدر فرمان سلطاني موجه إلى والي حلب من أجل بيع الحرائر والأجواخ العائدة للترجمان الهولندي التابع للقنصلية الهولندية في حلب ، وذلك لتمديد دين على الترجمان المذكور وتوزيع أثمانها على الدائنين<sup>(٤)</sup>

والمهم التأكيد على جلب واستيراد الحرير من الشرق وتصديره بواسطة التجار الهولنديين ، ومنهم ترجمان القنصلية الهولندية.

(١) حجار قنصلية دار بوخة بحلب، المرجع السابق ، ص ٨٩.

(٢) - للمدرس المرجع السابق ، ص ٢٤.

(٣) - للمدرس المرجع نفسه ، ص ٤٥.

(٤) - للفرمان رقم / ٩٧ / تاريخ فرمان (١١٧٨ هـ) من السجل رقم / ٧ / الأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٦٩ ، دكر الوثائق التاريخية بدمشق

وكذلك صدر فرمان سلطاني اخر عام ١١٨٢ هـ / ١٧٦٨ م موجه من الباب العالي إلى المسؤولين في ولاية حلب، للطلب من القنصل الهولندي لتسليم كمية من الحرير موجودة لدى التاجر أحداثت التابع للعنصلية الهولندية، حيث أودعها عند التاجر المذكور الحاج موسى آغا راده قبل وفاته، والمطلوب تسليم كمية الحرير إلى ورثة الحاج المتوفى<sup>(١)</sup>.

كان القنصل كما الحرير المنتج المطلوب كثيراً في حلب من قبل تجار هولندا، يأتي بعدهما الصوف والموهر تلك كانت المنتجات المرغوب بها من الهولنديين، وأصبح للتجار المذكورين يصدرون نحو الدولة العثمانية لأقطبة والفراشف والأكبسة للصوفية الزهية (لاكس) ومنذ عام ١٠٨٦ هـ / ١٦٧٥ م. بدأ تصدير هذه الألبان في أرمير وحلب بمعدل سنة آلاف قطعة كل عام.

واستمر وجود التجار الهولنديين في حلب، ومن أبرزهم دانييل بومستر ورميله جان جاكوب وفان ليدرغن وهانريك إبراهيم هيرمان، وكانوا يقومون بالمهام القنصلية.

وكان شركة فان هيمسكرك، ماسيك وشركاه، في نهاية القرن الثامن عشر وجود مزدهر في حلب<sup>(٢)</sup>. إلا أن هجوم الفرنسيين على مصر عام ١٢١١ هـ / ١٧٩٨ م أثر سلباً، حيث هاجمت السفن العرسية أساطيل تجار هولندا واستولت على حمولتها. الأمر الذي راد من أحوال التجار الهولنديين سوءاً، وبدء على ذلك طلب المقيم العام لجمهورية هولندا قطع العلاقات مع السلطنة العثمانية مؤكداً على استمرار الصداقة بين الدولتين. لذلك انسحب تجار هولندا من حلب<sup>(٣)</sup>.

وبعد استعراضنا لتجارة الجاليات في ولاية حلب من خلال المصادر والمراجع والوثائق التاريخية، لوحظ كيف بدأ جلياً اهتمام الأوروبيين بالتجارة مع أهم ولايات السلطنة العثمانية، وكيف تطورت التجارة الفرنسية مستفيدة من تطور العلاقات الدبلوماسية بين السلطنة وفرنسا، من خلال توقيع معاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م وتوسيع تجارة الفرنسيين، كما تطورت تجارة إنكلترا وهاست فرنسا، فكانوا يشترون الحرير بكميات كبيرة، ويجدون تسهيلات واسعة لتصريف منتجاتهم، التي كانت تتمتع بنوعية أفضل من المعسوجات الفرنسية.

أما المندقية فكانت أوضاعها مضطربة بسبب علاقاتها غير المستقرة مع السلطنة، ورغم ذلك مارست عملها التجاري عبر جالياتها في ولاية حلب، واستمرت في ذلك إلى نهاية القرن الثامن عشر، حيث انتهى

(١) الفرمان رقم / ٩٥ / تاريخ الفرمان (١١٨٢ هـ) من السجل رقم / ٨ / للأوامر السلطانية لولاية حلب، ص ٢٢، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٢) - للموسى. المرجع السابق، ص ٧٠.

(٣) الفرمان رقم / ١٠٦ / تاريخ الفرمان (١٢١٣ هـ) من السجل رقم / ٢٧ / للأوامر السلطانية لولاية حلب، ص ٧٨ - ٧٩، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

وجوده كنولة مستقلة، وانضمت إلى الاتحاد الإيطالي. أما للتجارة الهولندية فكانت تشبه التجارة البندقية في حالة عدم الاستقرار ، حيث كان اهتمام الهولنديين بالدرجة الأولى ممارسة العمل التجاري مع لأمير .  
وكون حلب مركزاً تجارياً كبيراً فقد استمر وجود التجار الهولنديين الذين كانوا يستوردون الحرير الخام والمسوجات الحريرية بكميات كبيرة إلى جانب سلع أخرى.

### جـ التبادل التجاري:

انطلق الأوروبيون يجوبون البحار والمحيطات بحثاً عن منتجات لشرق ، عبر مسالك وطرق عديدة ، وكان البحر المتوسط واحداً منها ، حيث دفعت الثورة للصناعية التي حدثت في أوروبا في القرن الثامن عشر، وطول القرن التاسع عشر للبحث عن أسواق لتصريف البضائع الأوروبية المصنعة ، وكذلك البحث عن المواد الأولية اللازمة للمصانع الحديثة، فأصبحت المواد الخام الزراعية غذاء المصانع، وصار استهلاكها لتلك المواد يريد الطلب عليها. لذلك ولثورة الصناعية الأوروبية نعتت من قارات آسيا وأفريقية وأميركا اللاتينية ، وكانت حلب من أهم المحطات التجارية مع أوروبا.

وفيما يلي سنلقي الضوء على أبرز ما حملته الجاليات الأوروبية إلى لوطانها من ولاية حلب. وعلى كل ما استوردته من أوطانها لتوزعه في أماكن إقامتها وممارسة نشاطها التجاري.

**صادرات ولاية حلب:** تعتبر منطقة حلب من أشهر مناطق زراعة القسق في العالم، وقد نسب إليها وعرف بالقسق الحلبي ، وأنجبت حلب أشهر الأصناف وأجودها نمياً ، وعدت الإقليم المثالي لزراعة هذه الشجرة ، وتذكر المصادر أن حلب كانت تصدر القسق، وكان غالي الثمر خارج حلب ، لذلك كان الأغنياء فقط هم القادرون على شرائه. أما الأوروبيون فكانوا يشحونه عن طريق البحر إلى بلادهم، حيث كان يباع بأسعار مرتفعة في أوروبا<sup>(١)</sup>.

وكانت السلطنة العثمانية مهتمة بهذا المحصول كثيراً ، لذلك أصدر اليب العالي فرماناً يفصي بقطف ثمار القسق من ساعتين حلب وإيداعها بالمستودعات ، وبيعها للتجار الأجانب بعد تجفيفها مع استيفاء الرسوم الجمركية عنها<sup>(٢)</sup>.

(١) ريويد المرجع السابق ، ص ١٥١.

(٢) - العثمان رقم / ١٩٢ / تاريخ فرمان (١١٩٦ هـ) من تسجيل رقم / ١٦ / للأوامر السلطانية بولاية حلب ، ص ١٥٠ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

وفي عام ١١٩٦ هـ / ١٧٨١م وصدر الأوامر السلطانية ، برصد كتاباً لقاضي حلب يذكر فيه عن صدور الأمر المتضمن كيفية تحمين محاصيل ثمار القسوق في نباتين حلب ، وبيعها للتجار الأجانب واستيفاء الرسوم الجمركية عنها<sup>(١)</sup>.

وتعد صناعة الصابون واحدة من الصناعات التقليدية ، التي اكتسبت موقفاً واسعاً في المناطق التي ترتبط اقتصادياً بحلب ، وحلت المعامل الكبيرة التي تمتلك قدرة إنتاجية عالية ، محل المشغل الصغيرة في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين. ويحصر المعامل السبعة التي عدها روسو في بداية القرن التاسع عشر ، قد بنيت في القرن الثامن عشر ومنها مصينة اترابيلي ومصينة الجبيلي ، ثم ازداد عدد المصانع في القرن التاسع عشر ، الأمر الذي يؤكد نشاط هذه الصناعة<sup>(٢)</sup>.

وشكلت صناعة الصابون ركناً أساسياً في تجارة حلب وإنتاجها الصناعي ، وخصوصاً الصابون الذي تصدره سورياً إلى أوروبا والذي قدر ثمنه / ٢٠٠٠٠٠ / تونة أو ما يساوي مليون ونصف من الفرنكات. وكانت أشجار الزيتون منتشرة في سوريا وزيتها الأساس في صناعة الصابون، وكان مركز رراعتة بظاهر حلب وإنتاجية<sup>(٣)</sup>.

ولقد عرفت حلب صناعة النسيج ، فهي صناعة موغلة في القدم ، وقد انتشرت هذه الصناعة وبالذات النسيج اليدوي ، الذي داعت شهرته داخل سوريا وحارجه بسرعة كبيرة ، لما تمتعت به من سمعة جيدة وجمالية وجودة ومثانة، وقد مارس سكان حلب نساءً ورجالاً ، هذه الصناعة في القيماريات وداحل البيوت السكنية ، وأقل وجود فيسرية أو بيت دور نول أو نولين يدويين ، وتحولت حلب إلى مصنع لصناعة النسيج اليدوي<sup>(٤)</sup>.

و يؤكد العزي ذلك فيقول " كان في حلب نحو خمسة عشر ألف نول تحاك بها الأقمشة القطنية والفرلية المعروفة بالألوجة ، والحريرية المعروفة بالجارة ، والمقصبة المعروفة بالمسيح والدوناطو وشغل والداسقود (دمشقي) وتقليد الشمال العجمي والأزر الحريرية المقصبة ، والملاحف المتنوعة الحريرية المقصبة والفرلية الموشاة، والماديل الحريرية المقصبة المعروفة بالدوشية. وكان يلزم لتشغيل كل نول منها ما لا يقل من أربعة أشخاص من الصناع والعملة ، مئتين حائك ومسد وصباغ وفنّال ودقاق وشطاف وقصار وصفال. ولا جرم أنه كان ينتفع منها ستون ألف نسمة ما بين غني وفقير وكبير وصغير وذكر وأنثى".

(١) - العثمان رقم / ١٩٥ / تاريخ القرمين (١١٩٦ هـ) من سجل رقم / ١١ / الأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٥٢ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٢) - ريسون - المرجع السابق ، ص ٢٠٦

(٣) - لصلي - المرجع السابق ، ص ١٤٥ - ١٥٧.

(٤) - العادي، مصيغ صناعة النسيج اليدوي بحلب، اقتصاديات حلب، العدد / ٢ / دار طوفاء للطباعة بحلب، ١٩٩٣ م، ص ٤٩ - ٥٠.

و اشتهرت حلب أيضاً بصناعة التطريز والرككشة ، كما اشتهرت بصناعة التجارة والدباغة والحدادة والصابون وصناعة القاشاني<sup>(١)</sup>.

ومع ذلك فإن وتيرة تطور إنتاج النسيج لم تكن واضحة في القرن الثامن عشر ، ولكن الإنتاج نفسه في أواخر ذلك القرن أصبح كبيراً ، فقد وجد في حلب / ١٢ / سوقاً شعبية كانت تتعاطى تحارة الأقمشة والملبوسات ، فوفقاً لمختلف التقديرات كان في حلب مائتين عشرة آلاف وعشرين ألف آلة نسيج<sup>(٢)</sup>. ولهذا ففي القرن الثامن عشر لم تكن حلب مركزاً مهماً لتجارة العصور بحسب ، بل كانت من أصحح المراكز التجارية الحرفية في الشرق ، لاسيما في مجال إنتاج الأقمشة المعدة للتصدير إلى الأسواق الخارجية<sup>(٣)</sup>.

ولقد بقيت البلاد الأوروبية حريصة على شراء المنتجات للصناعية للبلاد الشرقية قروياً عديدة ، وبقيت الأسواق الأوروبية حريصة للحصول على مسوحات حتى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، ويدل على ذلك الوثيقة التاريخية المهمة التي تملكها شركة الغزل والنسيج في حلب ، ويرجع تاريخها إلى عام ١٢١٢هـ / ١٧٩٨ م ، وهي عبارة عن " بوليصة شحن " تصف شحن كميات من الغزل والنسيج والحريز ومصنوعات النحاس<sup>(٤)</sup>. وهذه الوثيقة المنصنة شحن بضائع سورية من إسكندرية إلى أوروبا عام ١٢١١هـ / ١٧٩٨ م ، تدل على اعتماد الأسواق الأوروبية حتى أوائل القرن التاسع عشر على الصناعات السورية ، وأهمها الغزل والنسيج والحريز والنحاس.

ومن جهة أخرى استمرت تجارة الحريز وصناعته بحلب طيلة الفترة المملوكية ، وحافظت على هذا النشاط في العصر العثماني خاصة في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين من الحكم العثماني ، بسبب قربها من الأندلس ، كما حافظت على مركزها المتميز كمحطة مرور بين أوروبا من جهة ، وإيران والشرق الأقصى من جهة أخرى ، ولعل غنى حلب بالأسواق والحانات التي تقوم على تسويق البضائع وشحنها دليل على ذلك ، وكانت التجارة الحلبية كما ذكرنا سابقاً تأخذ طريقها إلى أوروبا عبر ميناء الإسكندرية وميناء طرابلس الشام ذهاباً وإياباً<sup>(٥)</sup>.

ولذلك برعت حلب في تقصيص الحريز وتاجرت به مع أوروبا ، التي كانت تقبل على شرائه نظراً لجودته أو لرخص أسعاره بالمقارنة مع أسعار الحريز الذي كان يجلب من لوسط آسيا

(١) - الفري المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٢ - ٩٧

(٢) - عمادة المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(٣) - سكبيد : المرجع السابق ، ص ١٦٩ .

(٤) - القسبي ، محمد سعيد وآخرون . قاموس الصناعات الحرفية ، ت. ظفر القاسمي ، دار طلائع للنشر ، ط ١ ، ١٩٨٨ م ، ص ٣٦

(٥) - شعث شوقي . حلب وتجارة الحريز وصناعته في المهديين المملوكي والعثماني ، مجلة الحوليات ، المرجع السابق ، ص ١٦٩ - ١٧٠

وأصبحت تجارة الحرير بكمية كبيرة في مطلع القرن الثامن عشر، بسبب احتلال روسيا في عهد القيصر بطرس الأكبر المناطق المنتجة للحرير في شمال بلاد فارس، فتوقف تدفق الحرير الفارسي إلى حلب وعبرها إلى أوروبا. ورافق ذلك في الوقت نفسه تدهور الوضع السياسي بين العثمانيين وحكام بلاد فارس، واستئناف القتال بين الطرفين في الربع الثاني من القرن الثامن عشر، حيث سيطر نادر شاه على الحكم وأنهى حكم السلالة الصفوية، وبالطبع كان لذلك أثره الكبير في تحجيم النشاط التجاري بين حلب وأصفهان والخليج العربي. وهذا يفسر الأهمية الكبيرة لمادة الحرير في تجارة حلب الدولية<sup>(١)</sup>.

وكذلك أصيبت تجارة الحرير في القرن الثامن عشر بكمية أخرى، وذلك بإقدام الحكومة العثمانية على فرض ضرائب باهظة عليها فكدست سوقها ولم يعد التجار الإفرنج يشترون خام الحرير من حلب وبلاد الشام الأخرى، وتقتصرت مشترياتهم على الأنسجة الحريرية التي كانت أنوال حلب تنتجها، وبعض مدن الشام الأخرى كالزبائير والكوفيات والعي والاطلس والمبروم المحمل<sup>(٢)</sup>.

ولذلك صدر فرمان سلطاني من الباب العالي، تضمن تعليمات عن فرض الرسوم على تجارة الحرير في أنطاكية، وأمر بملاحقة المتلاعبين بوجه فرمان إلى قاضي حلب وواليها لإصدار تعليمات فورية إلى مدير جباية حلب وإلى قاضي إنطاكية، بوجوب نقاضي الرسوم عن تجارة الحرير في قصص إنطاكية وجبايتها، التي كانت تعتبر المورد الرئيسي لهذه المنطقة. ومنع التلاعب في دفع الرسوم، كما وقع سابقاً بالحرير المستورد من مقاطعة آل بويه في ولاية حلب، لذلك حذر هؤلاء وأمر المسؤولين بملاحقتهم وجباية الرسوم الجمركية<sup>(٣)</sup>.

ولم تصدر حلب إلى دول أوروبا للحرير فحسب، بل العنصر وصوف الغنم الذي صنع الأوروبيون منه الأقمشة التي لا تبطل بالمطر، كذلك الأقمشة القطنية<sup>(٤)</sup>.

وأبرز ما استورده الهولنديون من حلب، الكتان والصوف والقطن والحرير والصوف المغزول من وبر الماعز والموهر والحبوب والمنتجات التي ترد إلى حلب من بعيد، كالتوابل والبهارات والفصصة وأقمشة الحرير<sup>(٥)</sup>.

(١) - رافق عبد الكريم: دراسات تاريخية، المجلد السابع عشر والثامن عشر، ١٩٨٤ م، ص ١١٦ - ١١٧.

(٢) - غرستوف: تاريخ الحرير في بلاد الشام، مجلة الشرق، العدد الخامس، ص ٢٨٥ - ٢٨٦.

(٣) - فرمان رقم / ٣٥٦ / تاريخ فرمان (١١٥٥ هـ) من سجل رقم / ٤ / للأوامر السلطانية لولاية حلب، ص ١٢٦، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٤) - توفل: للمرجع السابق، ص ٤٩.

(٥) - للمدرس المرجع السابق، ص ٤٤.



وكذلك أصدرت السلطنة العثمانية ١١٩١ هـ / ١٧٧٧ م ، فرماناً لتفريغ النعرفة الجمركية عن الصنائع (القطر والجلود المندوعة) المعاعة في ولاية حلب ، إلى التجار الإنكليز<sup>(١)</sup>.

وصدر فرمان سلطاني ١٢٠٧ هـ / ١٧٩٢ م موجه إلى المسؤولين في ولاية حلب ، ويتعلق بالنعرفة الجمركية التي تؤخذ عن كميات الأقطان المصدرة إلى خارج البلاد عن طريق ميناء الإسكندرية ، وكانت على كل قطر<sup>(٢)</sup> ٤٠ أفحة. وقد بلغت الرسوم التي حصلت سنوياً من ولاية حلب ، والمندوة في السجلات السنوية إيرادات القطر بين ٤٠٠٠ / إلى ٦٠٠٠ / قرشاً منها الرسوم الجمركية التي تؤخذ من التجار الأوروبيين<sup>(٣)</sup>. ومن خلال مبلغ الرسوم الجمركية المحصلة على صادرات القطر من حلب ، نرى أن حجم الصادرات القطنية إلى أوروبا كان كبيراً ، والتي كانت تحتاجها مصانعها الحديثة كمادة أولية الأمر الذي زاد من أهمية ولاية حلب في أعين الأوروبيين.

واردات ولاية حلب: استوردت حلب بدورها كميات كبيرة من السلع سنوياً ، ومصدر تلك البضائع كان من ريفها المجاور ومن مناطق أخرى من الشرق ، التي تبعد آلاف الأميال عن أوروبا الغربية تنقلها إلى مدينة حلب الحيوانات المختلفة ، فرادى أو على شكل قوافل لسد ما تحتاجه لإطعام المدينة ، ولترويض آلاف الحرفيين الموجودين فيها بالمواد الخام ، وكثرت حلب بدورها بمتنورد كميات معتبرة ومتنوعة من بضائع أوروبا، مثل لندن ومرسيليا وأمستردام وليفورمو والبنديفة وغيرها عن طريق موانئ شرق البحر الأبيض المتوسط كالإسكندرية واللاذقية.

أما البضائع المصنعة التي استوردتها المدينة من أوروبا للاستهلاك المحلي ، فكانت محدودة كمياً ومتخصصة نوعاً كالورق وساعات الحائط وساعات اليد والأدوات المنزلية والأسلحة البارية والمنتجات الكيماوية<sup>(٤)</sup>.

ويذكر العربي أن الإقبال كان شديداً على النسيج ، مما شجع عملية استيراد الورق من أوروبا إلى حلب، وساعد في إقامة المكتبات العامة والخاصة<sup>(٥)</sup>.

(١) - فرمان رقم / ١٩٤ / تاريخ فرمان (١١٩١ هـ) من السجل رقم / ١٣ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٧٩ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٢) - القطار من وحدات الورن ، وكان ورمه يختلف تبعاً للرمس ، وكذلك المكان الذي يستخدم فيه عملية الورن. وفي أواخر العصر المملوكي ، كان يتراوح ورته ما بين ٤٥ - ٩٦ كغ. وفي سنة ١٦٦٥ م وصل ورمه إلى ١٢٠ كغ

(٣) - فرمان رقم / ٨٢ / تاريخ فرمان (١٢٠٧ هـ) من السجل رقم / ٢٣ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٦٠ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٤) - ماركوس المصدر السابق ، ص ١٥٣ - ١٥٤

(٥) - العربي المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧٤

وكان الهولنديون يجلبون إلى حلب الفولاذ والحامس وملح البارود ، والسيوف والبارود، وبعض القطع من الفضة<sup>(١)</sup>. وكانت حلب تستورد كميات ضخمة من الأجواخ الإنكليزية التي أغرم بها لأغبياء<sup>(٢)</sup>. والفائض من تلك الأجواخ يرسل بنوره إلى أورفة وديار بكر وأتنة وأرضروم وبغداد ودمشق وبلاد العجم والهند ومكة<sup>(٣)</sup>.

وثمة فرمان سلطاني من الباب العالي وجه إلى المسؤولين في ولاية حلب ، يتعلق بالرسوم الجمركية ونسب توزيع تلك الرسوم على البصائع المستوردة من إنكلترا إلى ولاية حلب عن طريق ميناء إسكندرونة ، من جوخ يؤخذ عن كل حرمة في مركز جمرك إسكندرونة / ٤٠ / بارة ، وكل ستة من جلود الأرب / ٢ / بارة وفلسين ، وكل قطار شامي من الرصاص / ٦ / بارات. ويؤخذ كحمولة نقلها إلى حلب من إسكندرونة عن كل طرد / ٨ / بارات وفلسين ، وعلى كل رطل حلي من الرصاص بارة واحدة وعلى طرود (الخيم والجلود والخورسائي الهندي) / ٢.٥ / ريال قرشاً ، وعن كل طرد حريز أو قطر بارة عثماني ، وباقي البصائع يخمس تخمين بين زيادة ونقص وتؤخذ الرسوم من الملتزمين والمالكين طبق التعليمات المذكورة<sup>(٤)</sup>.

وبعد السماح بشرب القهوة في السلطنة العثمانية ، صدر أمر سلطاني بتطبيق التعليمات الصادرة بخصوصها ، وبخاصة ما استورد منها عن طريق ميناء الإسكندرونة ، ولهذا كانت مادة القهوة على قائمة الواردات لحلب<sup>(٥)</sup>.

(١) - المدبرين: للمرجع السابق ، ص ٤٤.

(٢) - صكايي المرجع السابق ، ص ١٧٧.

(٣) - توتل: للمرجع السابق ، ص ٤٩.

(٤) - فرمان رقم / ١١١ / تاريخ فرمان ( ١٢٠٥ هـ ) من السجل رقم / ٢٠ / للأوامر السلطانية لولاية حلب، ص ٧٧ - ٧٨ - ٧٩ ، دار الوثائق القارية بدمشق.

(٥) - فرمان رقم / ١٢٣ / تاريخ فرمان ( ١١٨٩ هـ ) من السجل رقم / ١٢ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٩٩ - ١٠٠ ، دار الوثائق القارية بدمشق .

وكانت السفن التجارية الإنكليزية المحملة بلبصانع من حرير وصوف ، والمارة عبر موسى السلطنة لبيعها ، وقيل عليها لأرياف ولاية حلب تدفع عنها الرسوم الجمركية وبعدها يصار إلى بيعها<sup>(١)</sup>.

كما صدر أمر سلطاني لاستيفاء الرسوم الجمركية عن بضاعة القصدير (٢٨ صندوقاً من لحم القصدير) الواردة إلى جمر ك حلب من إنكلترا<sup>(٢)</sup>. ويلاحظ استيراد معدن القصدير الذي يحتاجه حرفيو حلب في صاعاتهم المختلفة ، وهو أحد صادرات أوروبا إلى ولاية حلب.

وفي عام ١٢٠٨ هـ / ١٧٩٣ م صدر فرمان سلطاني، من أجل استرداد الرسوم الجمركية المدفوعة عن البضاعة الواردة إلى حلب التي كانت عبارة عن / ٦٢٥ / ثوباً من الفاش الهندي المستورد من إنكلترا<sup>(٣)</sup>.

وكان الميزان التجاري أحياناً يرجح لصالح المشاركة بين عامي ١١١٢ - ١٢١٥ هـ / ١٧٠٠ - ١٨٠٠ م ، تدهورت أسعار المنتجات الأوروبية بشكل حاد، ولتفعت أسعار المواد الأولية القادمة من الشرق تدريجياً. وشهدت الوكالات التجارية في حلب تنافساً حاداً بين الأوروبيين على شراء المواد الأولية<sup>(٤)</sup>.

وعلى أي حال ، شهد العقد الأخير من القرن الثامن عشر والعقود الأولى من القرن التاسع عشر ، تدهوراً حاداً في نشاط حلب. ومن أهم العوامل التي أدت إلى ذلك انهيار إنتاج الحرير في إيران ، وتحول الكثير من صادراته إلى الخليج العربي ، بدلاً من استخدام الطريق البري والبحر المتوسط. والعمل الآخر يتمثل في الصراع بين القوى السياسية في ولاية حلب (الحرب الأهلية بين الإنكشارية والأشراف) ، مما أضر باقتصاد الولاية المذكورة صرراً بالعلم ونتيجة لذلك أصبحت المصالح البريطانية في حلب ممثلة عدم ١٢٠٧ هـ / ١٧٩٢ م في شخص القنصل ، بعد أن كان هناك ٢٨ بيتاً تجارياً بريطانياً في حلب عند منتصف القرن الثامن عشر الميلادي<sup>(٥)</sup>.

يستنتج من كل ما سبق أن للجاليات الأوروبية كانت تستورد من ولاية حلب مواد أولية ضرورية لصناعاتها ، ونموها الاقتصادي. وتبيع في الولاية المذكورة مصوغاتها الاستهلاكية.

(١) - الفرمان رقم / ١٧٨ / تاريخ الفرمان (١١٩١ هـ) من السجل رقم / ١٣ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٦٤ - ١٦٥ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٢) - الفرمان رقم / ١٥ / تاريخ الفرمان (١٢٠٨ هـ) من السجل رقم / ٢٤ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٦ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٣) - الفرمان رقم / ١٦ / تاريخ الفرمان (١٢٠٨ هـ) من السجل رقم / ٢٤ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٦ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٤) - غاوية وهيرب المرجع السابق ، ص ٦٤٨ - ٦٤٩

(٥) - عيسوي ، شارل ، التاريخ الاقتصادي للتهلل الحبيب ١٨٠٠ - ١٩١٤ م ، ت: رؤوف عياض حامد ، مركز دراسات للوحدة العربية ، مكتبة أبو ذر الأنصاري ، ص ٢٢١

ومع مرور الزمن أصبحت بلاد الشام عامة ، تقدم نقدول الأوروبية للمواد الخام اللازمة لمصنعيها الصناعية الضخمة.

ولعبت حلب دوراً بارزاً في نقل تلك المواد باعتبارها تتمتع بموقع استراتيجي ، استرعى اهتمام وانشاء الجاليات الأوروبية لما تحتوي من محازن ضخمة للسلع والبضائع للتجارية . كانت دولها بحاجة ماسة لها لاستمرار نموها الاقتصادي.

#### د - النقود:

كانت العمليات التجارية بين أبناء المشرق والأوروبيين ، وقبل قيام الثورة الصناعية تتم بالمقايضة أو بالنقد ، ولكن بعد قيام الثورة الصناعية أصبحت تتم بالنقد حصراً ، أما حلب فكانت تتم فيها عمليات البيع والشراء قبل ذلك بالنقد ، الأمر الذي أدى إلى وفرة لدى الحلبيين ، ولقد وجد في حلب دار لضرب النقود السلطانية في عهد القديم وحتى القرن السابع عشر ، وقد وفر لها مركزها التجاري العديد من النقود كماً ونوعاً.

ويذكر دارفيو الفصيل العرسي في مذكراته بالقرن السابع عشر أن النقود كانت تصرب في حلب. وبافتتاح قناة السويس عام ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ م تحولت معظم التجارة الدولية مع الشرق إلى البحر الأحمر ، الأمر الذي أثر على حلب بشكل سلبي ، ومع ذلك برى التعامل بالنقد العصي والدحاسي المصروب فيها ، إضافة للعمل بالنقود الأخرى كالإسبانية والعربية والمجرية والمصرية وإمارة البندقية ، وكانت النقود السلطانية التي تساوي / ٢.٢٥ / قرشاً بينما للنقود الذهبية تتغير قيمتها حسب الأحوال ، ولما كانت حلب مدينة ذات تجارة ، سمح لها السلاطين بضرب النقود في قلعتها جيدة التحصين نجاء الهجمات الخارجية والمحروسة بالقوات النظامية. وكانت المدينة تستخدم في الوقت ذاته النقود الذهبية والعصبة التي صربت في إسطنبول بكميات كبيرة ، لذلك سمح لها بصرب النقود من الفئات الصغيرة ، بينما النقود من الفئات الكبيرة كانت تصرب في العاصمة العثمانية.

وشيدت دار ضرب النقود في حلب في الثلاثينيات من القرن السابع عشر ، عندما كانت حلب تعيش عصرها الذهبي تجارياً ، وتصدر كميات كبيرة من الحرير والسلع الهندية ، وتستورد الأقمشة والمنسوجات الحريرية والقصدير وغيرها من أوروبا بكميات كبيرة جداً. وتم الحصول على النقود الأوروبية في القرن السابع عشر عن طريق التجار والصرايين الأرمن ، ويذكر الفصيل دارفيو بأن النقود العصرية الأوروبية

المستوردة من مرسيليا ، كانت تدقق في حطب إن كان بينها قطع مزورة بدعوة الصرافين فحرب باب الجمارك أو خان الجمرك<sup>(١)</sup>

استخدم النقد في السلطنة العثمانية كوسيلة من وسائل التبادل التجاري من ناحية ، وكسلعة تاجر بها الأوروبيون من ناحية أخرى ، وكان لها أثرها في لوصاع للدولة العثمانية المالية والاقتصادية في أواخر القرن السابع عشر ، فلم تستطع موارد الدولة العثمانية من المعائن تلبية الحاجة المتزايدة للنقد ، فهي النصف الثاني من القرن السادس عشر وصلت الأزمة النقدية العثمانية إلى لوجها ، إذ تدفقت الفضة الرحیصة إلى بلاد البحر المتوسط من العالم الجديد (أمريكا) بواسطة المستعمرین الأمبان قارتبك النقد العثماني تبعاً لذلك ، وانهرت وحدته الفضية ، وهي الأقجة (تسمى أيضاً أسیر) وارتفع سعر الذهب ، وقل وجوده بسبب ازدياد قيمته بالنسبة للفضة ، وأصدرت الدولة العثمانية وحدة نقدية فضية عام ١٠٣٠هـ / ١٦٢٠ م وهي البارة ، لكنها لم تعد في العشاء على التضخم النقدي وغلاء الأسعار ، وهشلت كذلك محاولة أخرى لاحقة لإصدار عملة جديدة هي القرش<sup>(٢)</sup> في الربع الأخير من القرن السابع عشر<sup>(٣)</sup>.

وكان النقد المستخدم آنذاك متنوعاً بحيث لن الدولة العثمانية لم تلجأ إلى توحيد في ولاياتها المختلفة ، والعملة المتداولة كانت الأقجة أو العثماني ، وإلى جانبها عملتان فضيتان أجنبيتان أطلق عليها الأتراك اسم غروش ، إحداهما ذات أصل هولندي، وتحمل صورة الأسد وتعرف بالأسدي أو الأرسلائي ، وقد تضامل استخدام هذه العملة بوحل محلها القرش النعمساوي المسمى بالريال، أو قره غروش. وإلى جانب النقد الفضي كان التجار يتعاملون بالنقد الذهبي الأجنبي وخاصة لدوكلات البندقية<sup>(٤)</sup>.

وهما بعد صدر فرمان سلطاني موجه للمشرعين على نظام البيع والشراء والمعاملات وأمور الأحاد والعطاء والمعاملات المالية والنقدية والأورال وقيمتها ، عن طريق رئيس المحاسبة الذي كان له الحق في تعادي النقص والأخطاء في المعاملات المالية والمحاسبة ، بالنسبة لنظام العملات العثمانية ودرجاتها وقيمتها بين الأقجة والذهب ، وبين الذهب والفضة والدرهم والبارة. وقد بين فرمان السلطاني جدولاً مفصلاً يعطي هذه النسبة بالنسبة للعملة الأجنبية الواردة إلى الخزينة العثمانية من الخارج ، وقد صدر هذا فرمان

(١) - سرماميس المرجع السابق ، ص ٣٥٩ - ٣٦٠.

(٢) - تشبه القروش الفضية التي ستصدر تحت حكم السلطان أحمد الثالث / ١٧٠٢ - ١٧٣٠ م / أي أنها تحمل في النصف الأعلى من وجهها سنة الملك ، وسنة تسلط السلطان القروش ، واسم السلطان وأبيه في طعراء خضية ومن ثم سمي بالنقد الجديد بالطعراي

نظراً للصراع الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٣٧٦

(٣) - رافق. للمشرق العربي ، المرجع السابق ، ص ٨٨

(٤) - الصياح المجتمع العربي ، المرجع السابق ، ص ١٠٩

السلطاني ووصل إلى النواثر والمحاكم للعمل به ، حسب الزيادة والنقص ليتم التعاطي بموجبه حسب الصادات والواردات إلى الخزينة<sup>(١)</sup>.

ومع ظهور القرش ، بدأت هذه العملة النقدية الجديدة تفرض نفسها كعملة فصيصة أساسية ، وبدأ اعتبارها الوحدة الحسابية الرئيسية في أنحاء كثيرة من سوريا. ومع تقدم القرن الثامن عشر ، ازدادت أهمية القرش ، ولم يحل محل البيرة فقط ، التي كانت تعاني من صعوباتها الخاصة ، ولا سيما بعد منتصف القرن المذكور - وإنما أيضاً محل بعض النقود الأوروبية فهي حلت محل القرش وحدة الحساب ، وكذلك وحدة التبادل الرئيسية. واحتل القرش مركز الصدارة في كل من التجارة الخارجية وللتعاملات الداخلية بعد منتصف القرن الثامن عشر<sup>(٢)</sup>.

وسعت السلطنة العثمانية نقل الأموال النقدية خارج السلطنة ، ولذلك قام الأوروبيون بتحصيل أرباحهم وأحدها إلى أوطانهم على شكل بضائع ، أو تخصيص مبيعاتهم

وعندما فقد الإنكليز اهتمامهم ببضائع الشرق حصصوا صادراتهم من القماش وفقاً لذلك. أما الفرنسيون من الناحية الأخرى ، فقد كانوا يأتون بمبالغ نقدية كبيرة لتمويل مشترياتهم ، حيث كان التجار في حلب والمدن الأخرى يفضلون العملة المعدنية الفصيصة المستوردة (معظمها أسبانية ومكسيكية) على عملتهم المحلية، وكانوا يحصلون عليها بصورة جاهرة بمعدلات تبادل مريحة جداً بالنسبة للعملة الفرنسية ، وتأثير هذا على قيمة العملة أمر غير معروف. لقد رويت الفرنسيين بالتأكيد الشروط المفصلة ، وكذلك الأرباح، والتي لم تظهر في الحسابات التجارية النظامية<sup>(٣)</sup>.

ولذلك حصل الفرنسيون من السلطنة خلال معاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م؛ على أن التجار الفرنسيين الذين لم يكتفوا دفع صربية سابقاً على النقود التي يأتون بها من بلادهم إلى الدولة العلية فلا يكفون بذلك الآن، وعلى أسماء الحرائر ورجال المالية العثمانيين عدم التعرض لهم بحجة أنهم يصربون من دراهمهم نقوداً عثمانية<sup>(٤)</sup> يدل ذلك على أن النقود كانت تدخل في عمليات التبادل التجاري بين الجاليات الأوروبية وولاية حلب كسلع.

(١) - العرس رقم / ٨٤ / تاريخ العرس (١١٣٥ هـ) من السجل رقم / ٢ / للأوغر السلطانية لولاية حلب ، ص ٥٠ ، در الوثائق التاريخية بدمشق

(٢) - باموك ، شوكت: التاريخ المالي للدولة العثمانية ، ت- عبد الطيف الحارث ، دار المدار الإسلامي ، لبنان ، ط ١ ، ٢٠٠٥ م ، ص ٣٠٤

(٣) - ماركوس - المصدر السابق ، ص ١٥٨

(٤) معاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع السابق، البند ٣

وكذلك التجار والزراعياء للفرمسيون لا يدفعون رسماً ولا ضريبة جمركية على النقود الذهبية والفضية التي يأتون بها إلى الدولة العثمانية ، كما وأنهم لا يكرهون على تحويل نقود بلادهم إلى نقود عثمانية<sup>(١)</sup> .

وقد عملت الدول الأوروبية على منع حمل النقد المريب إلى بلاد السلطنة العثمانية ، فكتبت غرفة تجارة مرسيية إلى القناصل في الإسكندرية ، تحرم بيع النقود ، وتأمروهم بزيارة المراكب عند وصولها للتأكد من حلوها من هذه السلعة ، وكذلك فعلت شركة الليغانت الإنكليزية التي طلبت من سفيرها وقناصلها فحص المال الوارد إلى السلطنة العثمانية على مراكب إنكليزية ، بحضور الموظفين العثمانيين ، إلا أن نقاش السفن والأوامر والمصادرة ، والبلص ، لم تقطع دابر تجارة النقد المريب ، مما دعا العثمانيين إلى أخذ احتياطات أشد وأقصى وبخاصة في حلب ، حتى غدا من الصعب جداً إدخال أي نقد مريب إلى هذه المدينة (حلب) فجميع المال المتداول في التجارة أصبح يمر بأيدي الصرافين ، أو وسطاء الصرف ، وهم أفراد ماهرون جداً في معرفة أنواع النقد ، وصحيحه من مزيفه ، وغدت العادة المتبعة أن يجري البيع في حلب بواسطة أكياس مختومة بختم أولئك الوسطاء المسؤولين عن نوع النقد الموجود تحت ختمهم ووزنه<sup>(٢)</sup>.

كما صدر فرمان سلطاني حول كيفية وكمية وأوزان وأنواع العملات المستعملة في الممالك العثمانية ، سواء كانت عثمانية أم أجنبية وعدم التلاعب بقيمتها أو تزييفها ، والتهديد حتى بالقنصل للمتلاعبين بها أو مزيفيها ، لما في ذلك من الإصرار بعباد الله تعالى وإصرار وحساسة بالصناعة والتجارة وأمر المعيشة<sup>(٣)</sup>.

وعندما ظهرت بعض العملات المزيفة باقصة ألوزر ، بسبب إهمال بعض المسؤولين لوظائفهم وتلاعب الطرفين ، ولما كان هذا التزييف والتلاعب بالنقود موجياً لحسارة الناس واضطراب التجارة ، لذلك وجب جمع العملات المزيفة وإرسالها إلى دار الصرب بإستانبول ، وإبرال المعنوبات الشديدة بالمريعين والمحالين<sup>(٤)</sup>. أما الذهب ، فكان نادراً ، أو أنه كان يجمع ويخزن ، أو ينقل إلى الهند والشرق الأقصى ، ولم تكن الدول الأوروبية تدفع ثمن مشترياتها بالذهب ، لأنها كانت هي الأخرى تخبئه لاستخدامات أخرى في بلادها<sup>(٥)</sup>.

ولدينا دليل واضح على استخدام السدقات في اتعاملات المالية فيما بين التجار الأوروبيين والتجار المحليين كونها أكثر تسهيلاً للعمليات التجارية ، إذ أن نقلها من مدينة إلى أخرى لا يعرض صاحبها عبر

(١) المعاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع السابق ، البند ٦٤

(٢) الصياغ الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٢٨٩

(٣) - الفرمان رقم / ٤٤٠ / تاريخ الفرمان (١١٢٨ هـ) من سجل رقم / ٢ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٢٦٨ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق .

(٤) الفرمان رقم / ٢٧٢ / تاريخ الفرمان (١١٨٠ هـ) من سجل رقم / ٧ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٩٩ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٥) - الصياغ الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٣٩٠.

الطرق غير الأمانة للسلط والتهب ، ولا يتقل حملها ، لأنها مجرد ورقة. ويلاحظ في أمر سلطاني أن المقيم المدعو داليس من الحالبية الفرنسية ، الذي سلم أحد تجار حلب من الأقبات النقدية نحو خمسة وأربعين ألفاً وثلاثة مائة وأربعين قرشاً ، بموجب أوراق بوليصا (سندات) بعية لإرسالها للقاهر في الأستانة وتسليمها للتاجر فلورديس<sup>(١)</sup>. مما يدل على استخدام السندات والحوالات في العمليات التجارية بدل لأموال النقدية.

وكان النقد الذهبي المتداول آنذاك في حلب والمعروف بعندق يعادل قيمته / ٤٤٠ / أقة ، لا أن ظهرت في الأسواق عمله ذهبية شبيهة بفص ورنها بما قيمته / ٣٠٥ / أقة في كل قطعة ، مما أدى إلى ضرر الحربية ولأهالي عند التداول ، لذلك صدر فرمان سلطاني لمحب النقد الجديد وسك نقد قيمته / ٤٤٠ / أقة كما هو معروف<sup>(٢)</sup>.

وعندما ظهرت قطع نقدية ذات المائة نارة مولتي سكت من قبل الأجانب لاقت رواجاً وقبولاً كبيرين بالتعامل ، وسهولة تحصيل الضرائب الأميرية وإحلال وإحراج المبالغ. وبالنظر لهذه العادة فقد ورد أمر إلى مؤسسة دار الضرب ، بسك القطع وترويجها في السلطنة<sup>(٣)</sup>.

وبذلك كانت السلطنة حريصة على نظامها النقدي المتداول في ولاياتها ، كما كانت حريصة على صرب النقود الأصلية ومحاربة المزيفة ، وقد استخدمت الجاليات النقد كوسيلة تجارية مع ولاية حلب.

## هـ - الجاليات الأوروبية والوسطاء المحليون:

احتاج التجار الأوروبيون عند عقدم صفقات تجارية إلى وكلاء وتراجمة ومقارئين ، فلم يكن لهم من خيار سوى الإفادة من هذه الفئة من الناس الذين كانوا على استعداد للتعامل معهم ، وكان معظمهم من المسيحيين في المناطق الساحلية، بالإضافة إلى الأرمن في حلب ، فإن الكثيرين منهم ألدوا بطورون التجارة الأوروبية لمصلحتهم الخاصة ، بعد أن وضعوا أقدامهم فيها. وكان يساعدهم في ذلك اندماجهم في جنسية حماهم وقد لما جرى عليه العرف طبقاً للامتيازات الأجنبية التي كانت تخول السراء في الأستانة أن يمنحو براءات أو حصانات حماية يصدرها الباب العالي لعدد من الأشخاص الذين يختارونهم لخدمتهم<sup>(٤)</sup>.

(١) - القرام رقم / ١٠٧ / تاريخ القرام (١٢١٣ هـ) من السجل رقم / ٢٧ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٨٠ ، ٧٩ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٢) - القرام رقم / ٣٥٨ / تاريخ القرام (١١٥٥ هـ) من السجل رقم / ٤ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٢٦ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق .

(٣) - القرام رقم / ٣ / تاريخ القرام (١٢٠٣ هـ) من السجل رقم / ٢٠ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٢٠ ، ٢١ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٤) - هامبتون للمرجع السابق ، ص ١٦١ - ١٦٢



وقلة من الأوروبيين من تكبد غناء تعلم اللغة العربية ، لأن الوسطاء المسيحيين واليهود العاملين لديهم كانوا يرشدونهم فيما يختص بتعقيدات حياة العمل المحلية التجارية<sup>(١)</sup>. فكان للتجار الهولنديون في حلب لا يتعاطون البيع المباشر ، ولكن يتعاملون مع تحار الجملة الأغنياء ، لو مع الدلالين كوسطاء في عملية التصريف، وأغلب هؤلاء من الجالية اليهودية أو اليونانية أو الأرمنية. ومنذ انتقادون سوء النعام في الصفات التجارية<sup>(٢)</sup>.

كما تعتبر الحالية الأرمنية بحلب من أهم جاليات المهجر الأرمني ، ومن المرجح أن الأرمن كانوا يعرفون مدينة حلب جيداً منذ القرن السادس الميلادي ، من خلال مرور قوافل الحجاج الأرمن القادمين من أرمينيا وكيليك في طريقها لزيارة الأماكن المقدسة. ففي القرن السادس عشر وعلى مدى قرنين من الزمن عادت مدينة حلب مركزاً تجارياً كبيراً نتيجة لسيلا العثمانيين على القسطنطينية عام ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م ، وعلى طرابزون ٨٦٦ هـ / ١٤٦٦ م وبدأ التجار الأرمن يأتون إلى مدينة حلب من مختلف أنحاء أرمينيا. وفي هذه الأثناء ، بدأ ممثلو الدول الأوروبية ولا سيما ممتو هولندا وفرنسا وإيطاليا وأسبانيا ، يستقرون في حلب لعلايات تجارية ، حيث كانت قنصلياتهم أيضاً. وكانوا يتعاملون مع التجار الأرمن ، لدورهم الكبير نذاك في الحياة التجارية والصناعية لمدينة حلب<sup>(٣)</sup>، رغم العدد غير الكبير للجالية الأرمنية في حلب<sup>(٤)</sup>.

وكان لأرمن دور فعال في تجارة الحرير في القرن السادس عشر، إذ كانوا يجلبون البضائع من بلاد فارس ، ويقومون بها إلى تجار البندقية فيها ، وكان معظمهم يسكنون في حي الجديدة<sup>(٥)</sup>.

وعندما تطورت تجارة الألبسة القطنية في القرن الثامن عشر. لعب المسيحيون فيها دوراً مهماً. وقد أسهمت علاقاتهم المتميزة مع التجار الفرنسيين الذين كانوا يصدرون هذه البضائع ، لقد كانوا الوسطاء المحتومين في جميع العلاقات مع الفرنسيين ، ولكنهم عرفوا كيف يكونون شبكات تجارية لتسويق المواد الأولية والصناعات المصنعة ، فقد لعبوا دوراً مهماً في تجارة الحرير الإيراني في القرن السادس عشر ، واحتكارهم للتجارة في شمال ما بين النهرين وفارس ، وقد أسهم في دعم الجالية الأرمنية في حلب وحتى القرن الثامن عشر كانوا لا يزالون يسيطرون على تجارة القماش المطبوع بالأحمر المصنوع في ديار بكر ثم في حلب ، وفي القرن الثامن عشر لعب السريان الكاثوليك دوراً مماثلاً ، حيث يعول الرحالة فولني عام ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٥ م (إنهم للسريان يمارسون الفن والتجارة بوقد أكتسبتهم حماية الإفرنج أفضلية واضحة

(١) ماركوس - المصدر السابق ، ص ٥٨.

(٢) - المدروس المرجع السابق ، ص ٥٦.

(٣) عز الدين ، هري جاليات الأرمنية في البلاد العربية ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٩٩٣ م ، ص ٥٣ - ٥٦.

(٤) كشيبيان ، الكسندر إسهامات المواطنين الأرمن في الحياة العامة للبلاد السورية منذ أقدم العصور وحتى يومنا ، حلب ، ٢٠٠٧ م ، ص ١٨.

(٥) - حجار قصصية در بوجه في حلب ، المرجع السابق ، ص ١٩٢.

حيثما وجدت مكاتب أوروبية ، ولذلك فالازدهار الهائل الذي عرفته تجارة حلب في محال النسيج في القرن الثامن عشر، يجب أن يتم ربطه بالدور الذي أداه المسيحيون في حرفة حلب ، ومن جهة أخرى بالمكانة التي حققوها لأنفسهم على صعيد التجارة الدولية لحلب. وكل النجاح الاقتصادي للمسيحيين مرتبطاً إلى حد ما بالصلوات التي أقاموها مع الإفرنج ، ولكن قبل كل شيء ، بالمقدرة المهمة التي أبدوها على التلؤم وانفتاح الأفق وروح المبادرة لدى طائفة استطاعت أن تستعيد إلى أبعد الحدود من الظروف المواتية التي وجدت نفسها فيها في حلب<sup>(١)</sup>.

ولعب اليونانيون دور الوسيطاء، وقد احتلوا مكاناً بارزاً في السوق الداخلية ، وكانوا على اتصال بالأعيان والتجار العثمانيين ، ويشتركون أو يبيعون لحساب التجار العربيين ، وكان هؤلاء مقيمين في ولايات السلطنة موزعين عليهم الضعور بقربهم من الأوروبيين ، وكان اليونانيون يعملون لدى السفراء أو القناصل كمترجمين أو سكرتاريين ، وما لبثوا أن أصبحوا محميين من جانبهم وسوف يستفيدون في القرن الثامن عشر من لائحة الحماية الرسمية للأوروبيين ، وشكلوا جزءاً من " حاملي البراءات "<sup>(٢)</sup>.

ولم يقتصر هذا الأمر على الأرمن واليونان بل انضم إليهم بعض المولرنة الذين كانت لهم علاقات مع الإفرنج أكثر من أي طائفة أخرى ، وكانوا يرسلون أولادهم إلى المدارس الموجودة في الأديرة ليتعلموا اللغة الإيطالية ، بالإضافة إلى أشياء أخرى نؤمنهم للعمل في المحارن الأوروبية<sup>(٣)</sup>.

ونظائرها وثيقة لسفير فرنسا في إسطنبول، وهي عبارة عن عريضة رفعها للباب العالي ، مصمومة أن السماسرة من الطائفة المارونية للعائمين بالوساطة بين التجار الإفرنج وغيرهم ، يلاقون مشقات وصعوبات في أعمالهم رغم أنهم يدفعون ما عليهم من جزية ورسوم ، لذلك صدرت الأوامر السلطانية بجمع ذلك<sup>(٤)</sup>.

أما اليهود فقد عوملوا في ظل الحكم العثماني معاملة طيبة ، وتحسنت أحوالهم عما كانت عليه ، ولهذا تدفقوا ، ومنذ القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي على السلطنة العثمانية من بلاد أوروبا وخاصة أسبانيا والبرتغال ، ولقد استقبلهم العثمانيون استقبالا حسناً ، وسمحوا لهم بافتتاح الحوانيت التجارية والعمل بالتجارة والصناعة والطب ، واستعمل لليهود ذلك وتقربوا من الجاليات الأوروبية ، وبأل بعضهم الحماية ، وعملوا كمعادتهم بالربا وقرض الأموال بفوائد فاحشة، وكانوا أنشبه ما يكونون بمصارف متنقلة ، ولعبوا دوراً خطيراً في اقتصاد البلاد العربية وبخاصة في التجارة والصناعة اللتين كانتا بأيديهم ، وشاركوا

(١) - ريمون المرجع السابق ، ص ٤٠٤ - ٤٠٥

(٢) - مانزان ، روبرت تزيح الدولة العثمانية ، ت- بشير السباعي ، دار الفكر للدراسات والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٣ م ، ص ٣٨٦

٣٨٧

(٣) - ريمون المرجع السابق ، ص ٢٦٦.

(٤) - للفرمان رقم / ٢٢١ / تاريخ الفرمان (١١٧٩ هـ) من السجل رقم / ٧ / للفرمان السلطانية لولاية حلب ، ص ١٥٨ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

المسيحيين في أحد مصيبي من تجارة الوطن العربي مع أوروبا ، وفي التجارة الداخلية كوسطاء بين السكان والأوروبيين.

وكان لليهود في القرن الثامن عشر دور كبير ، وذلك لأنهم عملوا مع التجار الأوروبيين في بادئ الأمر ، وكان منهم المترجمون ، والوكلاء للمحليين ، والدائنون ، والوسطاء وما لبثت بعضهم أن كون تجارته الخارجية الخاصة على النمط الأوروبي<sup>(١)</sup> ، فقد كن أول مترجم للفصل الفرنسي في حلب يهودي في عام ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٠ م<sup>(٢)</sup>.

ورغم ما حصلوا عليه من الأرباح وفود تجاري كانوا في بعض الأحيان يحتفلون مع تجار السدول الأوروبية. ومما ذكره قنصل فرنسا في حلب عام ١١٠٤ هـ / ١٦٩٢ م بشأن اليهود أن: "ليس بين الأمم العاملة في تجارة الإسكالات من يسيء لتجارنا كما يفعل لليهود الوافدون من أوروبا. ولكن يجب التأكد من أن الفصل الهولندي لن يأخذهم تحت رعايته ، أما بالنسبة للإنكليزي ، فإنه لن يقبلهم حتماً بسبب لأوامر القاسية من الشركة الكبيرة بهذا الصدد"<sup>(٣)</sup>.

وحصلت فرنسا من خلال معاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م مع السلطنة العثمانية على ما يضمن سلامة هؤلاء الوسطاء ، حيث لم يسمح بمعارضة هؤلاء السماسرة في المستقبل عند دهابهم وإيابهم ، وتجولهم بين النجار لقضاء أشغال التجار الفرنسيين، وألا يعارضوا بأي وجه كان ، ولا يسوع لأحد إكره هؤلاء السماسرة أو منعهم من الخدمة من أية لمة كانوا. ولذا كان بعض اليهود وغيرهم يرفعون أن السمسرة عانت إليهم بالإرث فللفرنسيين الحرية في استخدام من يريدون ، وعندما يطربون من خدمتهم من استخدموه للسمسرة أو عندما يموت ، فلا يسوع لأحد أن يطلب ممن خلفه رسماً بحجة أحد رسم القطيعة المعروف بالكذك أو بقسم السمسرة ، والذين يخالفون منطوق هذا الحكم يعاقبون<sup>(٤)</sup>.

فصلاً عن ذلك وسعت الحماية الأجنبية كثيراً من حدود إمكانيات هؤلاء الوسطاء في العمل التجاري إلى درجة أنهم كانوا قادرين في منتصف القرن الثامن عشر على إثارة مشكلات كبيرة ، عندما ناقسوا تجار الشركات الأوروبية التي كانت تحميهم ، وعندما تنامي عدد الذين حصلوا على هذا التفويض ، ظهرت كسلاح ذي حدين ، فقد تعرض الإنكليز والفرنسيون لمهاجمة شركات التجارة المشرقية ، بسبب إثراء وغي طبقة اجتماعية طالبت مصالح الأجانب ، وكانت في الوقت نفسه طبقة تعيش في كنف السلطنة العثمانية ، وكان لذلك آثار مدمرة على تماسك اللحمة الداخلية في مجتمعات المدن العثمانية الكبرى.

(١) - المصدر: تزيح العرب الحديث والمعاصر ، المرجع السابق ص ١٨٩ - ٢٠٠

(٢) - حرياتي ، محمود تاريخ اليهود في حلب ، شماع للفكر والعلوم ، حلب ، ط ١ ، ٢٠٠٨ م ، ص ٦٢ - ٦٣

(٣) - المصدر: للجيالات الأوروبية ، المرجع السابق ص ٤٢٢ - ٤٢٣.

(٤) - المعاهدة ١٧٤٠ م ، المرجع السابق ، قيد ٦٠

وكان المواطنون المحميون يلبسون ثياباً ويعتَمرون قبعات تميزهم عن غيرهم من السكان ، وقد سببت الإغعاءات المالية لغير المسلمين التي وفرتها لهم الحماية الأجنبية شعوراً بالفرقة والتقسيم ضمن السلطنة العثمانية. ففي حلب عام ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م دفع الجزية (٨١٢٠) مسيحي ، وانخفض هذا العدد بعد أربعة عشر عاماً إلى (٧٢١٣) ليهبط في عام ١٢٠٨ هـ / ١٧٩٣ م إلى (٥٢٠٠)<sup>(١)</sup>. ويمكن تفسير ذلك بزيادة عدد من حصل على الحماية منهم.

وعندما ضعفت السلطنة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر ، تعاظمت سيطرة التجار الأوروبيين على المراكز التجارية الحساسة في ولاية حلب ، واعتمدوا بتسيير أعمالهم في التجارة الخارجية على التجار المسيحيين واليهود من سكان البلاد ليدوبوا عنهم كوسطاء وواب لهم ، ولعب هؤلاء دوراً كبيراً في اقتصاد الولايات العربية العثمانية<sup>(٢)</sup>.

وساعدوا الجاليات الأوروبية في أعمالهم التجارية في ولاية حلب عن طريق تقديم التسهيلات للتجار ، واستفاد هؤلاء الوسطاء بتحسين أوضاعهم المادية والمعيشية من خلال البراءات التي حصلوا عليها من الباب العالي ، بواسطة المسؤولين عن الجاليات الأوروبية ، وأعتت تلك البراءات حاملها من الضرائب والرسوم والجرية . الأمر الذي خلق أوثق العلاقات بين الوسطاء من أهل البلاد وبين التجار الأوروبيين ، فكان كل منهما بحاجة إلى الطرف الآخر لتسيير أموره.

## و - الصعوبات التي واجهت تجارة الجاليات الأوروبية في ولاية حلب:

كانت ولاية حلب كما أسلفنا نعج بالتجار الأوروبيين ، يشترون ويبتلون ما يشترونه إلى المراهي التابعة لولاية حلب لترسل بدورها إلى بلدانهم ، ويستلمون البضائع المرسله إليهم ليقوموا ببيعها في الولاية المذكورة وغيرها . ومع ذلك لم تكن هذه العمليات تتم بسهولة ويسر ، بل اعترضت سبيلها صعوبات جمة تلك التجارة قطعت مصاجع التجار الأوروبيين أحياناً ، وأعاقت منورستهم لأعمالهم أحياناً أخرى . وأهم هذه الصعوبات:

١- تأخر وسائل النقل: داخل الدولة العثمانية ، إذ بقيت على حالها كما كانت في العهد المملوكي تعاني من عقبات ، منها تأخر وسائل النقل والمواصلات وانعدام الأمن في الطرقات التي تسير عليها القوافل ، وكانت وسيلة النقل في سورية الجمال والبعال ، والاعتماد على الجمال كان أكثر انتشاراً<sup>(٣)</sup>.

(١) كوستانيني المرجع السابق ، ص ٢٥٥

(٢) الحكيم المرجع السابق ، ص ١٥٦ - ١٦٠

(٣) - سكايا ، المرجع السابق ، ص ١٩٠

٢ اعتداءات البدو: لم يكن توسع التاجر أن يقل بضائعه من مدينة إلى أخرى على جمل أو عدة جمال وحده ، وإنما كان عليه أن ينتظر قافلة كبيرة لتقوم بهذه المهمة ، وذلك لعدم استتباب الأمن في كثير من الطرق. وكان قطاع الطرق من البدو منتشرين في أماكن عبور البضائع التجارية. وكانوا يعبرون على القوافل الصغيرة، ولا يكتفون سلب ما تحمل، وإنما يعتكفون على أفرادها ، لذا كان التجار يلتجئون إلى القوافل الكبيرة المشتركة ، ويرودونها بالحراسة المطلوبة . و مثل هذه القوافل سارت بانتظام بين دمشق وحلب وطرابلس مارة بحمص وحماة<sup>(١)</sup>. وقد حاولت الدولة العثمانية القضاء على غزوات قطاع الطرق ، فعملت على إنشاء الحصون ، وترميم الموجود منها على طريق القوافل التجارية. ولم يكن هدفها من وراء ذلك قوافل التجارة فحسب ، وإنما قافلة الحجيج أيضاً ، وتكون تلك الحصون مراكز حربية ، أيضاً تراقب البدو والعاشق بالأمن المنتشرين في تلك البقاع. ومع ذلك لم تستطع وضع حد للمصائب والاعتداءات. والحكومة العثمانية إذ لم تستطع حماية الطرق التجارية الحماية الكافية ، وإن كانت قد بذلت جهداً في تمهيد طرق المواصلات بين المدن<sup>(٢)</sup>.

واتخذ العثمانيون ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين التدابير التي كانت سائدة أيام المماليك نفسها كدفع أموال لشيوخ قبيلة الموالي (mawali) لتلعب أمير العرب أو سيد الصحراء ، مقابل حمايته للقوافل العابرة للممرات الخطرة للفرات والواقعة اليوم بين بيره جيك التركية وعانة الموجودة على تخوم العراق ، حيث لم يكن من وجود للمستوطنات ولا حتى لملاجئ يلود بها المرء من قطاع الطرق على الرغم من أن هذا الاتفاق كان عريضة للتفكك كما حصل عام ١٠٥٤ هـ / ١٦٤٤ م عندما لم يتوان الموالي عن إبادة الحامية الحلبية ، إلا أنه كان يؤمن ما يكفي من الحد الأدنى من الأمن لإبقاء الطرق إلى العراق مفتوحة.

وطراً في القرن الثامن عشر ما غير هذه الأمور، إذ قام اتحاد قبائل عنزة (anaza) القوي بالإطاحة بالموالي ، ربما أن اتحاد قبائل عنزة رخص بيع خدماته الأمنية للعثمانيين ، مفصلاً غزو القوافل وسلبها ، تكررت الغزوات التي لم توفر حتى قوافل الحجاج ، مكيدة إياها العديد من الأرواح ومنزلة بها الخسائر، فأدى هذا الوضع المندهور في الصحراء إلى محاولة تسوطين قبائل التركمان (turkoman) أولاً ، ثم بعد ذلك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر اللاجئين من الشركس على طول التحم الصحراوي ، سعياً منهم لضبط البدو ، غير أن مثل السبل المنتعة في إخصاعهم وما نجم عنه من

(١) - الحصري المرجع السابق ، ص ١٣٣.

(٢) - الصباغ المجتمع العربي ، المرجع السابق ، ص ١٧.

انعدام الأمن على طريق الصحراء ، أسهم على الأرجح ، في انهيار تجارة القوافل وأدى إلى استبدالها بالنقل البحري في القرن التاسع عشر<sup>(١)</sup>.

ولذلك فالعرب البدو الذين عاشوا حياة رعوية في النياحية السورية وفي أراض على أطرافها ، كان لهم وجود هائل في القرن الثامن عشر ، إذ نصحت أعدادهم بنيحة الدروحات الكبيرة من الجزيرة السورية ، وقاموا بتأسيس رئاسة اعراضية على مناطق الدروح والاستقرار الموسمي ، بجمع الآتوات من المسافرين وسلب القوافل وإخضاع القرى للابتزاز والسرقة<sup>(٢)</sup>.

وتذكر المصادر التاريخية أن تجار برومية الأمان في حلب الذين تقدموا بعريصتهم للمقام السلطاني ، أعربو فيها بأنه منذ سنوات ، ظهر بجوار حان قره موط بحلب أشقياء من الأكراد ينتمون إلى عشيرة بكاشلي ، يقومون بأعمال سلب التجار واغتصب أموالهم بعارتهم المألوفة ، وكانت قد صدرت الأوامر لوضع حد لهذا الأشرار ولزوم تطهير الحان المذكور، ولكن الأشقياء لم يتفقدوا بذلك ، وقد أقدم بعض الأفراد منهم على الهجوم على المحلات، واستولوا على / ٢٩ / لعبة حرير ومائتي ذهبية موشاة ومساد رأسية و / ٥٢ / بعلأ مع أمتعة و أشياء ، بما فيهم حمسة تجار تم إعدامهم مع بعالهم ، وإن الأشرار من هذه الرمرة القائمين على منع المرور والعبور على الطرق أثناء غاراتهم قاموا بأعمال سلب الذهب والحيوانات والأمتعة، وتركوا أماكنها هباءً منثوراً.

وكان الأمر يعرض وجوب الحفاظ والحرس من طرف المسؤول عن أمن المنطقة ، المدعو فتح الله ، ونظر لفساد ، وعدم التمكن من السيطرة على الأشقياء ، الذين اغتصموا الفرصة وقاموا بهذه العارات ، الأمر الذي أجبر الباب العالي للطلب من الوالي بعد التعيين المباشر للعمل على استرداد الأموال المنهوبة المسلوقة من لأشقياء ، وإعادتها إلى أصحابها من التجار الأجانب<sup>(٣)</sup>. ودرءاً لأخطار الأشقياء من مفسدتهم الطاهرة ، كان قد صدر الأمر بوجوب إسكان عشيرة بكاشلي في الرقة ، وبذلك يؤدي إلى استتباب الأمن في الطرق ويتم الاستقرار، علماً بأنه في الأصل كانت هذه العشيرة من سكان الرقة الذين تركوا ديارهم، واتخذوا مكاناً لهم في جوار حان قره موط بحلب لأعمال السلب والنهب<sup>(٤)</sup>.

(١) - ماسترز المرجع السابق ، ص ١٤٠ - ١٤١.

(٢) - ماركوس المصدر السابق ، ص ٤٢

(٣) - العرمان رقم / ٣٩ / تاريخ العرمان (١١٩٥ هـ) من السجل رقم / ١٦ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٢٥ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٤) - العرمان رقم / ٤٠ / تاريخ العرمان (١١٩٥ هـ) من السجل رقم / ١٦ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٢٦ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

واضطرب الباشا في حلب أحياناً إلى الاتفاق مع زعماء تلك العصابات ، لتهتئة الأحوال في المقاطعة ، وحماية القوافل التجارية ، مدركاً في الوقت ذاته ، أن تهتئة تلك القبائل البدوية ، ومنعها من السطو يحتاج إلى مصاريف كبيرة إضافية ، عدا خطورة قتالهم<sup>(١)</sup>.

وكان الباب العالي يتدخل أحياناً بإرسال حملات عسكرية إلى حلب ، للقبض على قطاع الطرق والأشقياء من العربان والأكراد ، وتأمين الاستقرار في المنطقة<sup>(٢)</sup>. وكان يأمر وبشكل مستمر بوجوب ملاحقة رجال العصابات وقطاع الطرق والقضاء على تجمعاتهم ، ومعاقبة المتعاونين معهم من رجال العشائر وأفراد القبائل<sup>(٣)</sup>.

إن الأمن والسلم هما شرطان لممارسة أي عمل تجاري ، لذلك تضرر التجار الأوروبيون نتيجة تعرضهم للسرقة والنهب على يد البدو ، الذين تعبدوا على سلب القوافل التجارية ، ومن أجل صمان سلامة التجارة كانت السلطنة العثمانية تلاحقهم ، وأحياناً تلجأ إلى شراء ودهم بعية انقاء شرهم ومسدتهم لإفساح المجال للمرور للقوافل التجارية بأمان.

٣- قطاع الطرق: عندما يسافر الأوروبيون يكون تعرض السكان المحليين لهجمات السلب والنهب أقل حدوثاً من قبل العربان والأكراد بسبب تواطؤ حاكم حلب مع زعماء تلك العصابات وتقديم الهدايا المنيوية لهم.

وكان هناك اتفاق بين باشا حلب والعصابات الكردية المتمركزة حول بيلان والتي تدافع عن الطرقات الجبلية طمعاً بالهدايا ، وتهاجم قوافل التجار المحليين ، لأنها لا تحدث صجة مثل مهاجمة قوافل التجار الأوروبيين التي كانت تؤدي إلى عواقب غير مريحة. لأن الأوروبيين كانوا في مثل هذه الأحوال يطالبون الحكومة بالتعويض عن خسائرهم ، وفي حال عدم التعويض للقاظلة المسروقة ، والتي تخص أكثر من قنصلية يجتمع القنصل ، ويحبرون سفراءهم في إسطنبول. ومن ثم هذه الدعاوى تضر الباشا، وخاصة إذا وصلت الشكاوى إلى الباب العالي ، وهناك حالات حنسة لا يرد على السهر فيها ، ولا يستلم جواباً لها<sup>(٤)</sup>.

(١) - سورمايان المرجع السابق ، ص ٢٤٧.

(٢) - الفرمان رقم / ١١٢ / تاريخ الفرمان (١١٥٢ هـ) من السجل رقم / ٤ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٥٠ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق .

(٣) - الفرمان رقم / ٦٦ / تاريخ الفرمان (١١٨١ هـ) من السجل رقم / ٨ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٤٧ - ٤٨ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق .

(٤) - سورمايان المرجع السابق ، ص ٣٧٣.

وكما صدر أمر سلطاني للمسؤولين عام ١١٥٥ هـ / ١٧٤٢ م عن ميناء إسكندروية ، بطالب الحفاظ على التجار الإفرنج من الأتقياء في الجبال ، لتأمين المرور والعبور إلى حلب وأقصيتها وبيلاز وإطاكية في الداخل ، والحفاظ والحراسة من أعمال الشقاوة<sup>(١)</sup>.

وكذلك صدر فرمان سلطاني عام ١١٩٥ هـ / ١٧٨٠ م بوجود تطهير المدن والقرى من عصاة الأتقياء المستطير عليها بين إطاكية وأصصة والقضاء عليهم حفظاً للأمن وسلامة الرعية<sup>(٢)</sup>.

وكذلك وجد رجال الأكراد المقيمين في سلسلة جبال الأمانوس الوعرة إلى الشمال من مدينة حلب ، حيث سيطروا ومن خلال قلاعهم المستقلة على الطرق الاستراتيجية في مناطقهم ، وبخاصة الطريق الساحلي من سورية إلى الأناضول<sup>(٣)</sup>.

وقد صدر فرمان سلطاني عام ١١٩٠ هـ / ١٧٧٦ م بناءً على طلب السفير الإنكليزي بالأسنانة أطوبو هيس يشرح فيه ، قيام الأتقياء بقطع الطريق على قوافل التجار الإنكليز ، ونهب أمتعتهم وأخذ أموالهم تعديراً وظلماً ، وعدم إطفائهم الأوامر السلطانية طمعاً بجلب الأموال وقتل النفوس وسفك الدماء ، لذلك يجب قتلهم والقضاء عليهم<sup>(٤)</sup>.

كما يذكر الرحالة شارل رو (Chariel Roux) بأن قافلة مؤلفة من مئة وثلاثين جملًا غادرت حلب في ١٢ / شباط ١٧٤٣ م متجهة إلى الإسكندرونة تحت حراسة شديدة بعد شكاوى تفصل فرنسا إلى اليانسا ، لأن القافلة التي سبقتها بيوم واحد تعرضت لهجوم مجموعة من قاطعي الطرق الأكراد ، وكانت القافلة لحساب فرنسا<sup>(٥)</sup>.

وكذلك صدر أمر سلطاني آخر إلى والي حلب حول وضع الطرق وإيجاد الأمن والطمأنينة فيها ، لأنه عندما يأتي فصل الربيع وتحضر الأشجار ، فإن زمرة الأتقياء في الجبال تكثرون ممارسة السلب والنهب ،

(١) - الفرمان رقم / ٣٩٤ / تاريخ الفرمان (١١٥٥ هـ) من السجل رقم / ٤ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٩٥ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٢) - الفرمان رقم / ٨٤ / تاريخ الفرمان (١١٩٥ هـ) من السجل رقم / ١٦ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٥٨ - ٥٩ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق .

(٣) - ماركوس - المصدر السابق ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(٤) - الفرمان رقم / ٨ / تاريخ الفرمان (١١٩٠ هـ) من السجل رقم / ١٣ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٩ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٥) - لوطكي : المرجع السابق ، ص ٢٨٠



حيث يكون أفراد القبائل والعشائر في حالة خلو الطريق ، لذلك يجب القبض وتأديب الأشقياء وتوقيف الطمأنينة للرعية وأبناء السبيل ليتصرف الجميع إلى أعمالهم<sup>(١)</sup>.

وكذلك صدر فرمان سلطاني وهو عبارة عن إنذار موجه إلى المسؤولين الرسميين في ولاية حلب ، وأمر بالصرب على أيادي السارقين واللصوص وقطاع الطرق ، بسد عريضة قدمها سفير فرنسا بالأسفنة فور دوس الروس ، وهي عبارة عن شكوى ، حول تعرض تجار فرسيين كانوا قادمين إلى حلب من الإسكندرية ، حيث تعرضوا للسرقة في قسبة بلاك ، ولم يتم القبض على اللصوص والسارقين وإعادة المسروقات ، وذلك يدل على نهائون المسؤولين ، وعلى احتلال الأمن ، ولذلك طالب فرمان السلطاني بذل الجهود لإعادة المسروقات إلى أصحابها ومعاقبة اللصوص<sup>(٢)</sup>.

ولهذا تعهد رئيس معرة مقاطعة سراقب في ولاية حلب ، بتحصيص / ٨٠ / فرداً من حرس عسكري الخيالة لتأمين حراسة حدود المنطقة من أولها إلى آخرها ذهاباً وإياباً ، وذلك على الطرقات والمعابر المؤدية من وإلى المقاطعة ، لتأمين مرور القوافل والمسافرين ورعايا القرى والمزارعين من تعسيري الأشقياء وصيانة حياتهم وأموالهم<sup>(٣)</sup>.

وكذلك رئيس مفررة حان طومان التابعة لولاية حلب ، فقد تعهد بدوره بتحصيص / ١٤ / فرداً من الحماة و / ٤٠ / فرداً من حرس الخيالة ، لتأمين سلامة المسافرين وقوافل التجار في المعابر والطرق الواقعة في تلك المنطقة ، وصيانة حياتهم وأموالهم من الأشقياء وقطاع الطرق<sup>(٤)</sup>.

٤- القراصنة: كانت التجارة الأوروبية تلقى صعوبات ليس على البر فقط ، بل كان أيضاً للبحار نصيب من هذه الصعوبات ، فقد كانت مراكب الشحن التابعة للتجار الأوروبيين عريضة لهجوم القراصنة ، فالمقيم العام الفرنسي باستانبول ثولبردة سينيرية ، رفع تقريراً إلى الباب العالي يشرح فيه تعرض بعض سفن القراصنة الروس التي ظهرت في سواحل سلطنة ، والتي اغتصبت بعض القوارب ، حسب المعلومات التي وردت من أهالي بيلس. فيجب العمل على إبعاد السفن الروسية المحتمل ظهورها ثانية ، وتم توجيه

(١) - فرمان رقم / ٢٦٤ / تاريخ فرمان (١١٦٣ هـ) من السجل رقم / ١ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٤١ ، دو الوثائق التاريخية بمشق

(٢) - فرمان رقم / ٥٧٣ / تاريخ فرمان (١١٦٣ هـ) من السجل رقم / ١ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٣١١ ، دو الوثائق التاريخية بمشق .

(٣) - فرمان رقم / ٣٦ / تاريخ فرمان (١٢٠٧ هـ) من السجل رقم / ٢٣ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٣٠ ، دو الوثائق التاريخية بمشق

(٤) - فرمان رقم / ٣٧ / تاريخ فرمان (١٢٠٧ هـ) من السجل رقم / ٢٣ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٣٠ ، دو الوثائق التاريخية بمشق .

كتاب إلى قنصل الإفرنج في ميناء إسكندرونة ، يطلب إليهم صملا تعويض الأضرار الواقعة في الأفسس والمال<sup>(١)</sup>.

ومما جاء في معاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م الموقعة ما بين فرنسا والسلطنة العثمانية ، بأن تقوم الأخيرة بحراسة ومساعدة المراكب الفرنسية التي تنتمي إلى موانئ السلطنة ، وأن تخرج منها بكل أمان ، وإذا سلب شيء من أدواتها وأشيائها فليس الواجب بذل فسط قصارى الجهد لإعادة المسلوب إن كان أناساً أو أشياء ، وإما يعاقب المعتكفون بصرامة أيّاً كانوا<sup>(٢)</sup>.

وهي بعد آخر من المعاهدة المذكورة ، نصت على أنه إذا كان للتجار الفرنسيون مسافرين على مراكب العدو بقصد التجارة ، ولو أن منهم ولأمرهم محتلفين للشرائع ، لأنهم وجدوا في مراكب العدو ، فلا يسوع لهذه الحجة ضبط أموالهم وأسر أشخاصهم ، بشرط ألا يكونوا في مراكب الفراسة ، وألا يبدو منهم عمل عدائي أو يخطوا حدود مهنتهم<sup>(٣)</sup>.

وإذا شحس فرسي مركبه مؤونة من بلاد العدو وحملها إلى بلاد العدو ، والتقى بسفن المسلمين ، فلا يسوع أخذ مركبه وأسر الأشخاص بحجة لهم ناقلو ميرة إلى بلاد العدو<sup>(٤)</sup>.

٥- الحروب: كان للحروب دور في إعاقة التجارة لما تسببه من فقدان الأمن ، ونشر الذعر والفوضى والسلب والنهب ، فعندما نشبت الحروب بين الدولة العثمانية والعجم ما بين عامي ١١٣٦ - ١١٥٩ هـ / ١٧٢٣ - ١٧٤٦ م وخاصة سلسلة من الحروب الطويلة مع إيران ، حيث كانت حلب صاحبة تلك الحروب. صحيح أن حلب كانت بعيدة عن ساحات المعارك بشكل مباشر ، إلا أنها عانت من صرر الحروب الذي كان ثقيلاً ، فمقاتل الدوع الكبيرة استعدت أموال الدولة ، وبذلك كان السكان عرصة لطلبات الضريبة المرتفعة ، التي أثارت الكثير من الامتعاض والاعتراض للعالم ، علاوة على ذلك فإن استمرار الحروب لمدة طويلة مع إيران على طول الجبهة العراقية ، لعب دوراً مدمراً لتجارة حلب ، المتجهة نحو الشرق ، فكانت العداوات واللجوء إلى الحرب الاقتصادية من قبل الطرفين ، يوقف شحنات الحرير الإيراني إلى المدينة ، مما وضع حداً لنهاية نشاط تجاري كان قد أعى تجار المدينة سابقاً ولعدة قرون. ومن جهة أخرى عرصت الحروب الإيرانية حلب لعبور جحافل الجيش العثماني من وإلى الجبهة الإيرانية<sup>(٥)</sup>. وفي ذلك ضرر كبير لحلب وتجارها.

(١) - الفرمان رقم / ٣٢ / تاريخ الفرمان (١١٨٧ هـ) من السجل رقم / ١١ / للأوامر المملوكية لملاية حلب ، ص ٢٦ - ٢٧ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٢) - معاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع السابق ، المبتد / ٣٠ /

(٣) - معاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع نفسه ، المبتد / ٤ /

(٤) - معاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع نفسه ، المبتد / ٥ /

(٥) - مارغوس ، المصدر السابق ، ص ٣٦.

إضافة إلى ذلك فإن أموراً أخرى أعاقَت التجارة والعمل التجاري ، وكان على رأسها الإحلال بالأمن الناتج عن الحروب والأطماع الدولية والعسكرية ، والصراعات على المنطقة ، والمشكلات الكثيرة التي كانت تؤدي إلى عدم الاطمئنان وإلى نهب الأموال والممتلكات ، وحواف التجار على بضائعهم ، وأموالهم وبالتالي تعطيل السير على بعض الخطوط التجارية والبحث عن طرق آمنة طويلة أكثر كلفة ، الأمر الذي أدى إلى انخفاض النشاط التجاري وجموده<sup>(١)</sup>.

ويصف الرحالة الإنكليزي بوكوك (pokoek) عندما حظ في حلب ، خلال العام ١١٥٠ هـ / ١٧٣٧ م بالقول: إنها من أجمل مدن الشرق ، ولكن أوضاعها أحدث بالجمود بالنسبة إلى ما كانت عليه في الماضي ، بسبب الحرب بين العثمانيين والعجم بوائقي أوقفت حركة القوافل للتجارة بين العجم ، وأرمير عن طريق حلب وجبال طوروس.

وفي عام ١١٦٠ هـ / ١٧٤٧ م قامت الحرب بين العجم والدولة العثمانية. فاضطرب حبل الأمن وتوقفت حركة التجارة<sup>(٢)</sup>.

وفي نهاية القرن الثامن عشر تهددت التجارة الأوروبية في ولاية حلب ، وذلك بسبب الحملة الفرنسية على مصر وسورية عام ١٢١١ هـ / ١٧٩٨ م ، وكانت حكومة باريس تعلم أن الباب العالي سيكون شاهداً عياناً على احتلال فرنسا لمصر ، وكان رد الفعل لدى السلطنة قوياً ، حيث أعلن السلطان سليم الثالث الحرب على فرنسا، وتم اعتقال السفير الفرنسي بدير روفيه مع موظفين آخرين من السفارة الفرنسية في العاصمة العثمانية ، وتوسعت حملة الاعتقالات ضد جميع الفرنسيين من دبلوماسيين وتجار وغيرهم ، وتمرض الجميع لسوء معاملة الحكام العثمانيين ، وكانت حالة الفرنسيين في حلب هي الأسوأ ، فقد وصل عدد المعتقلين منهم إلى ٤٠ / شخصاً في نهاية القرن الثامن عشر ، وكانوا يحتلون المكانة الأولى بين التجار الأوروبيين في حلب ، وكان القنصل الفرنسي (Jean. choderlos) البالغ من العمر ستين عاماً ، وكان قنصل فرنسا في أرمير وطرابلس سابقاً ، وبقي إلى حلب قسلاً وبعد وصوله بمدة ١٦ / شهراً ، أعلنت السلطنة العثمانية الحرب ضد فرنسا. ومن ذلك التاريخ تبدأ عذابه فحسب وأتباعه من الفرنسيين في قلعة حلب<sup>(٣)</sup>.

وفي الحقبة التي امتدت من عام ١٢٠٤ - ١٢٣٠ هـ / ١٧٩٠ - ١٨١٥ م والتي شهدت قيام الثورة الفرنسية وحروب نابليون الاستعمارية ، كانت الطرق للبحرية عبر البحر الأبيض المتوسط معطلة من جراء

(١) - ريوذ المرجع السابق ، ص ١٤٨.

(٢) - توتل المرجع السابق ، ص ٦٣ - ٦٨.

(٣) - مورمان المرجع السابق ، ص ٦١٧.

ذلك ، وتفقرت التجارة الدولية إلى حد كبير . وفي تلك الحقبة عانت التجارة في حلب أيضاً من فتور وتدهور حاد<sup>(١)</sup>.

ومع ذلك فالموسوعة البريطانية أشارت بحلب ، ووصفتها المدينة الرئيسة في شمال سوريا والسوق الأساسية للشرق ، وأن ثرواتها الاقتصادية استمرت حتى أواخر القرن الثامن عشر ، على الرغم من الحروب والصراعات مع إيران<sup>(٢)</sup>.

٦- البلبس: إن أكثر الصعوبات المحلية التي اصطدمت بها تجارة الجاليات الأوروبية في حلب ، بل أعظم الآفات التي ابتليت بها ، هي البلبس وهو عبارة عن ميلغ من المال طالب بها باش حلب أو حكامها التجار الأوروبيين ، وألزموا بدفعها بذرائع وحجج واهية لا أساس لها من الصحة أو الواقع ، أو المنطق ، وعندما كان البلبس يحرص ، كان قنصل الجالية يجمع مواظبه للبحث معهم عن وسيلة للتخلص منه ، وكانوا في أغلب الأحوال يعرفون أنه لا فائدة من المعاقبة والتداول ، لأن طلبات البلبس لا ترد . وعندما تزداد عمليات البلبس ، كانت الجالية ترسل وفداً يحمل شكواها إلى إستانبول ليخبر السفير بذلك ، إلا أن الأخير كان عاجزاً عن حل المشكلة بسرعة ، لأن الديوان قد يتأخر في عقد اجتماعه ، أو يكون السلطان حارح المدينة في أحد معسكراته ، والديوان مرافق له<sup>(٣)</sup>.

أما حلب فإن مراسلات قناصل البندقية وفرنسا وهولندا وإنجلترا ، تنج بالشكاوي من الباشوات وعمال الجمارك ، وبخاصة في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، حتى أن القنصل الفرنسي دارفيو يجبر بأن جميع الأوروبيين سواء في تحمل البلبس والتعريفات. إلا أن الأمة الفرنسية كانت تدفع منها كميات أكبر ، لأن الإنكليز والهولنديين والبلداتقة نفهموا الواقع العثماني ، وعرفوا كيفية التعامل مع الباشوات وتحقيق رغباتهم بالهدايا أو بإعطائهم ما يطلبون دون مقاومة ، لأن المقاومة كانت تعني بلبساً أكبر أو سجنًا أطول ، والشكوى تكلف نفقات كثيرة ولا تنتهي عادة إلى حل إيجابي<sup>(٤)</sup>.

#### مظاهر البلبس:

آ- الهدايا والهبات: كانت تنخرج من هدايا عدت مع الزمن تقليداً من الصعب التخلص منه إلى بلبس صريح. فصل الواجب على القنصل مثلاً أن يقدم إلى السلطات الحاكمة في الإسكندرية سلماً وبصانع من أوروبا. يقول القنصل دارفيو " كان علينا إرسال هدايا المعتادة ، لأنه لا أحد يمكنه الاقتراب من هؤلاء الموظفين الكبار العثمانيين أو يبال حظوة التكم معهم دون إرسال القنصل الجديد هدايا مسبقاً ، وأقول دون

(١) غاييه وفيرت. المرجع السابق ، ص ٢٩

(٢) التوبجي ، محمد: التفاعل الاجتماعي في ولاية حلب بين العثمانيين والعرب ، مركز الدراسات والبحوث الحثائية ، رعبو ، ١٩٨٨ ، ص ٢٢١ - ٢٢٢.

(٣) الصباغ الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٣٥٢ - ٣٥٣.

(٤) Darvoux' p ٣٦٤

إحفاء الحقيقة بأن هؤلاء يعدون الهدايا المرسله إليهم رشاً أو بعض النظر عن حجمها وكبرها ، ولذلك كان على السفير في إسطنبول والقنصل في حلب أو غيرها من المدن ألا ينقص هديته نصف يرده من الفساح ، أو قرشاً واحداً لأنها سترفض هداياه بخلافه ، مصحوبة بكلمات تكل على قلة أتب ، وعدا ذلك فإن الموظفين الحكوميين مهرون في القرون والقياس ، وكل هدية تقدم إليهم يسجلون أوصافها المفصلة في دفتر ، وفي مرات لاحقة سيطالبون بهدايا أخرى كحق مكتسب لهم ، وعليها ألا ينسى أن العثمانيين طماعون وقدرون إلى درجة أنهم يعدون الهدايا والتمنح التي تقدم لهم قابلاً وواجباً " وقد سجل القنصل الهدايا المقدمة وكانت على الشكل التالي (بحدنصار) الثياب الحريرية - الأقمشة الصوفية التي يصل ثمنها إلى / ٥٠٠ / فريك ذهبي فريسي. مصريف أخرى تصل إلى / ٥٠٠ / ليرة ذهبية ، وبضع ليرات<sup>(١)</sup>.

وكان الحكام من الولاة ، يصعون بعد شرائهم من الولاة عليهم من السلطان بمبالغ ضخمة لاسترداد المبالغ التي دفعوها من تحصيل الضرائب ، فقتلوا في فرض المبالغ الباهظة على أهالي المدينة الذين رفضوا دفعها ، وتمردوا عليها بعنف أكثر من مرة ، حتى أنهم في بعض المرات طردوا الولاة من المدينة ، وفي عام ١١٨٩ هـ / ١٧٧٥ م وفور وصول علي باشا إلى مدينة حلب ، بدأ بتطبيق عملية تلص وسلب منظمين على طبقات اجتماعية يبدأ بالموردين ، ثم بالصرايين وكان أهل المدينة يسمونهم صراقي (sarafiti) وصولاً إلى صناعات النسيج ، وجماعات أخرى من أهل الحرف والصناعة في المدينة ، فهرب الصرايون من المدينة لينفذوا المبالغ الضخمة التي أودعها عندهم للتجار الأجانب. وطلب هؤلاء التجار من السلطان العثماني عزل الباشا اللص من منصبه ، قبل أن يتعرض أعمالهم للتلف وأوراقهم للهلاك<sup>(٢)</sup>.

وصدر فرمان سلطاني إلى باشا حلب وقاصيها ١١٦١ هـ / ١٧٤٨ م ، جراء شكوى ضد محصل وجابي حلب ، حيث أن الأمتعة والأشياء التي ترد إلى حلب من بغداد وأرضروم وأطرافها وما يرد عن طريق البر إلى حلب ، حيث يؤخذ عليها ما يسمى (بيلوص) الذي يقدم زيادة ، عما يطلب منه من التجار الأجانب المقيمين في حلب<sup>(٣)</sup>.

وفي عريضة مرفوعة من القنصل الهولندي في حلب إلى الباب العالي ١١٧٧ هـ / ١٧٦٣ م يشتكي فيها ، أن التجار والسفن التابعة لحكومته يلاقون الصعوبات والإزعاجات رغم البراءات التي يحملونها ، لذلك صدرت الأوامر السلطانية بالامتناع عن ذلك ومنع أحد الهدايا والهباء<sup>(٤)</sup>.

(١) مورطايان المرجع السابق ، ص ٣٨١.

(٢) - كوستانتيني: المرجع السابق ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

(٣) الفرمان رقم / ٢٢٣ / تاريخ الفرمان (١١٦١ هـ) ، من السجل / ٦ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٢٤ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٤) الفرمان رقم / ١٦ / تاريخ الفرمان (١١٧٧ هـ) ، من السجل / ٧ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٣ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

ب- الاستدالة: وهي شكل من أشكال البلبس إذ كان الولاية والحكام يستفيدون من التجار الأوروبيين ملاً معيماً ، ولكنهم لا يردونه في معظم الحالات ، أو كانوا يردون جزءاً قليلاً جداً منه ، ويرود القنصل دارهيو لاحقاً معلومات عن طمع الموطعين الرسميين للكبار الذي وصل أحياناً إلى درجة التسول ، فمثلاً والي حلب (محمود باشا) قد سلب القنصل الممثل الشرعي للملك الفرنسي لويس السادس عشر ، ورعاياه والهولنديين من التجار الذين تحت الرعاية الفرنسية. فاضطر دارهيو قنصل فرنسا في حلب عام ١٠٩٣ هـ / ١٦٨٢ م إلى دعوة تجار بني قومه ، لإرسال رد مناسب إلى والي الذي كان قد طلب ثلاثين قطعة قماش قطنية خفيفة شريطة دفع ثمنها ، ومن العادات السيئة التي انتشرت كالأمراض السارية ، تأميم جميع حكام المدينة السلع لحاجاتهم الشخصية (كالمشروبات الروحية وغير الروحية والحلويات والورق والشمع الأسباني وسيراميك الأرض والرجاج وغيرها) ، وعلى الرغم من الأهمية غير الكبيرة لهذه السلع إلا أن الحكام طلبوها بكميات كبيرة جداً ، ويقول دارهيو (أن الحاكم محمود باشا الذي طلب شراء / ٣٠ / قطعة قماش منا بحجة خياطة البسة لرجاله ، كنت أعلم علم اليقين بأنه سيوفي بعض ديونه التي تراكت بثمنها ، لذلك لا يمكن أن أكله، وكنت أعتقد بأنه يتوجب علي عرض المسألة في اجتماع عام ، فقرر المجتمعون تقديم قطع القماش باسم الجالية الفرنسية وكفالة للشهيد وصراف السراي عند التجار ، وباعوا اليشاشا أقمشة بقيمة / ٢٠٠٠ / قرشاً فوعد والي بإيفاء الدين خلال شهر ، ولم تدخل شخصياً بهذا الأمر ، مخافة عديم وفاء الباشا بوعده ، فوصل ساع من الباب العالي إلى حلب ، وأخبر حاكم حلب محمود باشا بوجوب معارضة المدينة خلال ثلاثة أيام والم توجه إلى إسطنبول لتوليته منصب جديد حصل عليه من السلطان ، ودور إصاعة الوقت طالبت محمود باشا ب / ٢٠٥٩ / قرشاً ثمن الأقمشة ، فقدم لي أمر قبض وبدء عليه سيدفع المبلغ بعد فترة معقولة ، ونظراً لعدم وجود أي حل آخر كان من الضروري قبول الاقتراح<sup>(١)</sup>. يلاحظ من حديث دارهيو طمع وجشع بعض ولاية حلب ، من خلال التطلع على الجاليات الأوروبية.

وصدر فرمان سلطاني إلى قاضي حلب ومحصلها ، بشأن الوريث السابق المنوفى حسين باشا الذي كان والياً على حلب بقي بدمته للتجارين الفرنسيين المقيمين في حلب مدرك وبرلويل ، مبلغ قدره / ٣٨٢٦ / قرشاً مقابل رهن حاتم ذهب وحاتم زمرد ، ولذلك يجب حل هذه القضية ، ويطلب من قاضي حلب ومحصلها ، تقدير قيمة الأشياء المرهونة بوجود أهل الخبرة. هي حال زيادة قيمتها عن الدين أرسلها إلى الباب العالي ليصار إلى تسديد الدين من قبلنا ، وفي حال كفاية قيمة المرهونات أو نقصها عن مبلغ الدين تسلم المرهونات إلى صاحب الاستحقاق ، والتراضي عن النقص إذا وقع<sup>(٢)</sup>.

(١) - مورمان: المرجع السابق ، ص ٣٥٨.

(٢) - القرمان رقم / ٢٠ / تاريخ فرمان (١١٨٨ هـ) . من السجل / ١٢ / للأمر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٦ - ١٧ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

وبعد ذلك تم إحضار وكيل أصحاب الدين ترجمان القنصلية الفرنسية في ولاية حلب ، إلى مجلس الشرع وبحضور المحصل والوجوه وأهل الحير، ففروا قيمة الأشياء المرهونة بمبلغ / ٢٧٥٠ / قرشاً ، وهو أقل من قيمة الدين المطلوب. فجرى تسليم المرهونات إلى الوكيل الشرعي، وجرى التراصي على المبلغ الناقص بمعرفة قاضي حلب<sup>(١)</sup>.

وهي وثيقة أخرى يدعي فيها تاجر فرنسي أن له ديناً في ذمة محصل حلب للسابق المتوفى ، وهو الحاج يونس آغا ، وبجمالي الدين / ٥٠٠٠ / قرشاً، ويرجو تحصيل دينه من محلفات أو متروكات المحصل المذكور. فصدر فرمان سلطاني موجه إلى قاضي حلب ، لإجراء اللزم بشأن دين التاجر الفرنسي<sup>(٢)</sup>. مما يدل على أحوال التجار الأوروبيين المعتارة.

٧- الرسوم الزائدة: وهي الرسوم التي يجب أن يدفعها التجار الأوروبيون على بضائعهم عند دخولها وخروجها من وإلى أراضي السلطنة العثمانية ، ومن المعروف أن رسوم الجمرك ، كانت تفرض في الدولة العثمانية على السلع والبضائع المستوردة من أي مكان ، و إلى مركز ما برأ أو بحراً ، أكانت للبيع أو لإعادة نقلها ، وكذلك كانت تفرض على البضائع والسلع المصدرة منه. أما القيمة المفروضة فكانت تختلف من مكان إلى آخر ، فحسب العادة المتبعة سابقاً ، وبوع السلع ، ولقد أصدرت السلطنة تعريفات تفصيلية خاصة بكل مدينة أو مباءة في سوريا في القرن السابع عشر ، حيث صدرت تلك الرسوم والتي تتراوح ما بين / ٥ ٪ - ٣ ٪ / حسب الأوضاع للتجارية<sup>(٣)</sup>.

وكان التجار الفرنسيون يدفعون ( ٥ ٪ ) عن بضائعهم في أراضي السلطنة العثمانية ، وحاولوا تخفيض ذلك إلى ( ٣ ٪ ) مستغلين ما تمتعوا به من امتيازات ، فاستجابت السلطات العثمانية للطلب بموجب الائتماس المقدم من فرنسا لدى السلطنة<sup>(٤)</sup>.

وعندما اشتد ضعف السلطنة العثمانية في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، واشتدت حاجتها إلى المال ، استغل تلك الباشوات وعمال الجمارك في الولايات العثمانية ، ونصروها من أنفسهم دون النظر إلى قرارات أو قرارات ، ولا أدل على ذلك من الشكوى التي تقدمت بها بشكل متكرر سنة ١٠٧٩ هـ / ١٦٦٨ م

(١) - فرمان رقم / ٢١ / تاريخ فرمان ( ١١٨٨ هـ ) ، من سجل / ١٢ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٧ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٢) - فرمان رقم / ١٠١ / تاريخ فرمان ( ١٢٠٤ هـ ) ، من سجل / ١٠ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٧٠ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٣) - لصياح الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٣٦٨ - ٣٦٩.

(٤) - المعاهدة ١٧٤٠ م\* المرجع السابق ، البند ٣٧

ضد محصل الجمارك في حلب الذي يأخذ رسماً إضافياً في الإسكندرونة / ٢,٥ % / إلى جانب / ٣ % / في حلب<sup>(١)</sup>.

يلاحظ أن سفراء بريطانيا والبنديقية في الأستانة تقدموا بشكوى ، معادها أن التجار الأجانب التسعين لهاتين الدولتين وغيرهم من التجار ، اللذين يأتون إلى حلب قد تعرضوا للمضايقة ، لإجبارهم على دفع رسوم رائدة عن الحد القانوني خلافاً لتعهدات السلطات العثمانية للأجانب<sup>(٢)</sup>.

وفي وثيقة أخرى عبارة عن فرمان سلطاني إلى والي ومحصل حلب ، ينص على تعليمات وتبنيها حول شؤون مالية وإدارية ، فحواها أن النظارة على تجارة الأقمشة وتجارها القادمين برأ إلى حلب ، من بغداد والبصرة وأطروم وتوابعها هي من شؤون الولاية أنفسهم.

ومع ذلك كان بعض الموظفين المعيين من قبل هؤلاء الولاية لجمع الرسوم ، كثيراً ما أرفقوا التجار المذكورين بمطالبهم، وتدخلوا في شؤون الأقمشة الواردة من البلاد الأخرى ، الأمر الذي خلق لدى التجار المذكورين عدم الرغبة بالمجيء إلى حلب وأدى ذلك إلى تناقص الواردات المذكورة إليها<sup>(٣)</sup>.

ويلاحظ في فرمان سلطاني آخر موجه إلى باشا حلب وقاصيها ، يطالب بعدم أخذ الرسوم الجمركية والقضائية مرة ثانية من التجار البريطانيين المقيمين في حلب ، عن البضاعة والأقمشة الواردة إلى حلب ، عملاً بالعهود السلطانية ، وتلبية لرجاء التجار المذكورين والسفير الإنكليزي في الأستانة<sup>(٤)</sup>.

وكذلك عريضة السفير الفرنسي في الأستانة تذكير دي تستال بخصوص تجار دولته ، اللذين كانوا يضطرون إلى دفع رسوم البضائع والأمتعة في أحد الموانئ العثمانية ، ثم إجبار أمناء الجمارك لهم بدفع الرسوم مرة ثانية وما في ذلك من المخالفات<sup>(٥)</sup>.

ففي معاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م بين السلطنة العثمانية وفرنسا التي نصت في أحد بنودها ، على أن البضائع التي يشحنها التجار الفرنسيون من بلادهم إلى أراضي السلطنة ، وكذلك البضائع التي يشحنونها من أراضي السلطنة إلى بلادهم فرنسا ، تقدر في تجمارك بالتمن الذي كانت تقدر به قديماً لصبط الرسوم

(١) - الصباغ. الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٢٧٠.

(٢) - الفرمان رقم / ٢٧٣ / تاريخ الفرمان (١١٦٣ هـ) ، من السجل / ١ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٤٨ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٣) - الفرمان رقم / ٢٧٣ / تاريخ الفرمان (١١٦٣ هـ) ، من السجل / ١ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٤٨ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٤) - الفرمان رقم / ٦٤٢ / تاريخ الفرمان (١١٦٣ هـ) ، من السجل / ١ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٣٥٢ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٥) - الفرمان رقم / ٤٧٦ / تاريخ الفرمان (١١٥٨ هـ) ، من السجل / ٥ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٢٢٥ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق



الجمركية وتحصيلها ، وكانت تؤخذ قبلاً دون زيادة في ثمنها<sup>(١)</sup>. ماهيك عن ضريبة العصائية (الجرارة) والبياح وهو رسم البضائع الداخلة من القرى<sup>(٢)</sup>.

وفي شكوى أخرى تقدم بها السفير الإنكليزي في الامتانة عام ١٢٠٣ هـ / ١٧٨٧ م يشرح فيها ، أن دائرة الجمرك في حلب تتعاضى رسوماً أكثر مما هو منفق عليه على البضائع الإنكليزية ، خلافاً للعهد السلطاني الصادر ، فصدر فرمان سلطاني تضمن عدم السماح بأخذ أية رسوم زيادة على ما هو منفق عليه مع التجار الإنكليز<sup>(٣)</sup>.

وكذلك صدر فرمان سلطاني بلرغم تطبيق التعليمات الخاصة بالرسوم الجمركية ، التي تؤخذ على البضائع المستوردة من قبل تجار إنكلترا إلى حلب وعدم أخذ أية رسوم مكررة<sup>(٤)</sup>.

كما وجه أمر سلطاني عام ١٢١٢ هـ / ١٧٩٧ م إلى قاضي حلب ومحصله وإلى التجار الأجانب ، الذين يتعاملون مع موانئ قبرص ، حول البضائع التي تترك في ميناء طورية بجريدة قبرص ، حيث عندما تفتح الطرود وتعرض للبيع يدفع التجار الرسوم الجمركية عن البضائع التي بيعت فقط في قبرص ، ويعطى بها إشعار ، وتنقل بعية البضائع التي لم تنع إلى حلب لتباع هناك ، وقد عمدت السلطات الجمركية بحلب إلى أخذ الرسوم الجمركية عن البضائع المباعة في قبرص رغم إبرار التجار الإشعارات بدفع الرسوم ، ولذلك يجب العمل على استرداد الرسوم المدفوعة<sup>(٥)</sup>.

كما أن محصل حلب لا يقبل إلا أن يأخذ رسوماً إضافية مما سبب ضرراً بالتجار الأجانب ، وبعد إجراء التحقيق وبحضور محصل حلب ومعتمدي تجار (فرنسا - إنكلترا - برومبيا - إيطاليا) وبوجود مترجمهم ، جرى استنطاق التجار الأجانب والتحقيق معهم في هذه الشكوى ، تبين أنه لم تؤخذ رسوم مكررة عن البضائع المباعة في قبرص<sup>(٦)</sup>.

(١) - المعاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع السابق ، البند ٨.

(٢) - المعاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع نفسه ، البند ١٠.

(٣) - فرمان رقم / ٢٦ / تاريخ فرمان (١٢٠٣ هـ) ، من السجل / ٢١ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٨ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٤) - فرمان رقم / ١٤٩ / تاريخ فرمان (١٢١١ هـ) ، من السجل / ٢٥ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٧٩ ، ٨٠ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٥) - فرمان رقم / ١٩٥ / تاريخ فرمان (١٢١٢ هـ) ، من السجل / ٢٥ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٠١ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٦) - فرمان رقم / ١٩١ / تاريخ فرمان (١٢١٢ هـ) ، من السجل / ٢٥ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٠٢ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

وفي وثيقة أخرى يلاحظ براءة محصول حلب من التهم الموجهة إليه من قبل التجار الأجانب المذكورين<sup>(١)</sup>.

٨- الطاعون: أصبحت إلى أزمات كسب الرق انتشار الأمراض المalarie في حلب ، ومراكز التجارة الأخرى التي كانت تعلق الناس بين الحين والآخر ، وتؤثر بنورها على الحركة التجارية، إذ وضعت حداً لكافة الأعمال التجارية ، ففي عام ١١٧٥ هـ / ١٧٦١ م لشكى رجل إنكليزي من مرض الطاعون الذي صرب المدينة (حلب) ، وفي ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣ م عطل طاعون قاس اجتاح كلاً من العراق وإيران بصورة مؤقتة شح البضائع إلى حلب من تلك الأطراف<sup>(٢)</sup>.

وخلال القرن الثامن عشر عانت حلب من ثمانية أوبئة انتشرت فيها في عام (١١١٨ هـ / ١٧٠٦ م حتى ١١١٩ هـ / ١٧٠٧ م و ١١٣١ هـ / ١٧١٨ م حتى ١١٣٢ هـ / ١٧١٩ م و ١١٤٢ هـ / ١٧٢٩ م حتى ١١٤٦ هـ / ١٧٣٣ م و ١١٥٥ هـ / ١٧٤٢ م و ١١٥٧ هـ / ١٧٤٤ م و ١١٧٤ هـ / ١٧٦٠ م حتى ١١٧٦ هـ / ١٧٦٢ م ومن ١٢٠١ هـ / ١٧٨٦ م حتى ١٢٠٣ هـ / ١٧٨٧ م و ١٢٠٨ هـ / ١٧٩٣ م) أما الأوروبيون الذين كانوا مقيمين في حلب فقد استخدموا الأسلوب الوقائي لمنع انتشار الوباء بينهم، وحددوا اتصالهم بعدد محدود من زبائنهم وشركائهم وإخوانهم في الدين، فكانوا يحجرون على أنفسهم في مجموعات خلال أوقات للطاعون<sup>(٣)</sup>.

ونتيجة اعتكاف الأوروبيين وعدد من المسيحيين واليهود تراجعت التجارة ، وحتى التجار المسلمين اعتكفوا في بيوتهم عند انتشار الطاعون بشدة ، لهذا لم يصل إلا عدد قليل جداً من القوافل من المدن الأخرى<sup>(٤)</sup>.

كل ذلك انعكس سلباً على التبادل التجاري بين حلب وأوروبا ، ما بين عامي ١١٨٩ - ١٢٣٨ هـ / ١٧٧٥ - ١٨٢٢ م ، فانحصص التبادل التجاري من ٤٦ مليون إلى ٢٣ مليون قرشاً. وميت حلب والمراكز التجارية في وسط سوريا وجنوبها بكساد مريع. وتبعاً لذلك فقد انحصت تجارة حلب مع أوروبا من ١٨ مليون عام ١١٨٩ هـ / ١٧٧٥ م إلى ١٠ مليون فرنك في الأعوام ١٧٨٣ - ١٧٩٢ م. وإلى ٥ مليون في الأعوام ١٢٣١ - ١٢٣٨ هـ / ١٨١٥ - ١٨٢٢ م<sup>(٥)</sup>.

(١) الفرمان رقم / ١٩٢ / تاريخ الفرمان (١٢١٢ هـ) ، من سجل / ٢٥ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٠٢ - ١٠٣ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٢) - ماركوس المصدر السابق ، ص ١٥٩.

(٣) - ماركوس المصدر نفسه ، ص ٢٥٦ - ٢٥٩.

(٤) - راسل المصدر السابق ، ص ٤٢٦.

(٥) - غاوية وفيرت المرجع السابق ، ص ٦٣٤.

## ي - الطرق التجارية ووسائل النقل والموانئ البحرية التي اعتمدت عليها حلب:

الطرق التجارية: إن تنظيم حركة المواصلات بين أوروبا والهند على جسر بري شمال بلاد الشام يربط سواحل المشرق بالخليج ، يدل على أهمية موقع حلب في إطار أوسع نطاقاً وأبعد مدى ، فقد تحولت حلب إلى نقطة تلاقي العديد من خطوط المواصلات العابرة للقارات<sup>(١)</sup> لم يكن في بلاد الشام كلها سوى طريقين عريضين تستخدمهما القوافل ، وتنتشر على جانبيهما الحانات ، وتحرسهما الحاميات ، وهما يحترقان الولايات السورية من الشمال إلى الجنوب.

وحتى القرن الثامن عشر كانت لا تزال تستخدم فيها بعض الأجزاء من الطرق الرومانية الشهيرة ، وكانت إحدى الطريقين العريضين تمتد على طول الساحل من غزة إلى اللاذقية ، بينما تمتد بممراتها إلى الشرق من سلسلة الجبال طريق القوافل الثانية التي تربط حلب بدمشق عبر حماة وحمص ، وكان سلوك هذا الطريق يستغرق من تسعة إلى عشرة أيام.

وهي الشمال كان الطريقان يتلاقيان ثم يتجهان إلى إستانبول عبر بيلان وبلياس ، وإلى أرمينيا وإيران عبر كليس وديار بكر . وفي الجنوب كانت للطريق الشرقية تنجته إلى مكة عبر حوران وشرقي الأردن ، وبين دمشق ومكة مسيرة خمسين يوماً كانت تنجته عبر جسر بسات يعقوب وطبرية إلى نابلس ، ومن هنالك إلى القدس لمسيرة عشرة أيام من دمشق أو إلى باقا والقاهرة عبر غزة. ومن الشرق إلى الغرب امتدت طريق القوافل من البصرة وبعداد وإلى حلب ودمشق.

وأخيراً كانت المراكز الداخلية مرتبطة مع المدن الساحلية بطرق قصيرة لمسيرة ثلاثة أو ثمانية أيام ، تبعاً لتعبير الوصول . منها طريق حلب والإسكندرونة عبر إنذب وجسر الشعور مع اللاذقية وطرابلس ، وحماة وحمص مع طرابلس ، ودمشق طرابلس وبيروت وصيدا ، القدس مع صيدا وعكا وباف.

كان يتطلب قطع المسافة من حلب إلى القدس مسيرة لا تقل عن عشرين يوماً وكانت الطرق محفوفة بالأخطار ، ففي الشمال كانت القوافل تتعرض لحظر السلب والنهب على أيدي القبائل الكردية ، وفي الجنوب لعروات البدو .

وهي أواسط القرن الثامن عشر كانت القوافل منتشرة على الطرق الرئيسية ، بفواصل مسيرة نصف يوم أو يوم كامل بين الخار والآخر وكان باستطاعة خانات القوافل الكبيرة استغلال أكثر من ألف رجل بين جدرانها.

وكان المسافرون من الأغنياء ومن بينهم بعض الأوروبيين يسعون للحصول على ممرات سلطاني ، يلزم القوافل المجاورة لطريق السمر ، بتأمين للمأكول والمبيت لمن يحصل عليه مستقطعة من الالتزامات

(١) - غارلة وميرت: المرجع السابق، ص ٢٨ - ٢٩.

المعروضة عليها<sup>(١)</sup>. ومعظم شبكة الطرق تعود إلى ما قبل الحكم العثماني منكمها الإنسان وروعي هي ذلك ، مقر الإنسان والأحوال الاقتصادية والأمن بسبب التضاريس ومجاري الأنهار وغيرها<sup>(٢)</sup>.

وكانت بعض الطرق التجارية تنطلق من المناطق المنتجة للسلع الاستهلاكية لتنتهي في المراكز الحضرية الكبرى ، واشتهرت بعض الطرق المهمة بأسماء سلع معينة مثل (طريق الذهب) عبر الصحراء أثناء العصور الوسطى، و (طريق الحرير) الذي احترق آسيا الوسطى، و (طريق البحور) الذي عبر جنوب الجزيرة العربية إلى البحار. وكان من شأن تلك الطرق التجارية أن تصل دائماً بين التجمعات السكانية الكثيفة والمناطق الاقتصادية الشهيرة ، التي قامت على زراعة الأرض وتربية العاشية. فتأتي الرواحل من (إبل وبغال وحمير) إلى المدن ، محملة بالإنتاج الحام ثم تفادها محملة مزودة بالملح المصنعة كالنسيج والقماش والجلد المدبوغ والحلي والأدوات الزجاجية<sup>(٣)</sup>.

ومن أبرز الطرق التجارية التي ندرعت من مدينة حلب ، كانت خمس طرق رئيسية هي:

- ١- طريق حلب - اللاذقية وهي قصيرة مئة بلابل فحمر الشعور فاللاذقية.
- ٢- طريق حلب - إسكندرونة وتجر بمر بيلان ثم تتعطف جنوباً فتقطع جبال طوروس حتى الإسكندرونة
- ٣- طريق بري من حلب - قلعة جعبر - طرس - نصيبين - الموصل ومنها إلى الشرق حتى الصين والهند.
- ٤- طريق من حلب إلى مسكنة على الفرات ، وتسير شهر إلى أن تصل فالحلي العربي ومنه للهند بحراً.
- ٥- طريق يتجه إلى الجنوب نحو دمشق من حلب - صراقب - فالمعرة - فحان شيوخ - فحماء - فحمص - فحسيه - فالنابك - دمشق<sup>(٤)</sup>.

وسائل النقل: وهي التي كانت تسلك جميع الطرق التجارية محملة بالبضائع التجارية ، ففي المشرق العربي ظلت الدواب الوسيلة الرئيسة لنقل البضائع حتى ظهور سكة الحديد في أواخر القرن التاسع عشر ، ومن تلك البضائع: الأخواص والموارص الحشبية والزيت والنقش والقمح والحديد كلها نقلت على ظهور الدواب، أما الناس فكانوا ينتقلون في الهواذج وعلى ظهور البغال والحمير والجمال والحمير وسيراً على الأقدام ، أما العربات فزادت العجلات فقد استعملت على نطاق ضيق ، وفي الطرقات الوعرة استخدمت لأبقار في جرها ، وفي الأماكن المسهلة والممهدة استخدمت بقية الحيوانات لجرها (مثل الحمول والبغال والحمير). لا

(١) - سكاك: المرجع السابق ، ص ١٩٠ - ١٩١.

(٢) - اليمسوف ، يكتبي طرق المواصلات في بلاد الشام ما بين القرنين ستم عشر وثمانين ، ت: بدر الدين الرفاعي ، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ، ١٥١٦ - ١٩٣٩ م ، ج ١ ، ص ٢٩٤.

(٣) - اليمسوف: المرجع السابق ، ص ٢٩٦.

(٤) - ريدان ، ردا. للحصائر المعمارية لحانات حلب ، مطبعة جامعة تشرين ، ١٩٩٤ م ، ص ١٣٠ " بحث أعد لنيل درجة الدكتوراه في الهندسة المدنية "

سيما العربات داخل المدن ، ولم يكن نقل البضائع على الدواب تحتاج إلى بناء طرق ، فقد كانت المسالك الصيقة التي تستخدمها الدواب تحترق كل المناطق السورية وتربط القرى بعضها ببعض<sup>(١)</sup>.

ومن حلب كانت تتطرق إلى الشرق أيضاً أربع قوافل ، وكانت طريق القوافل بين حلب وبعداد تستغرق

/ ٢٨٠ / مائة ، وكانت القافلة تصمم عادة ما بين / ٣٠٠ إلى ٤٠٠ / رأس من دواب النقل.

وعلى الرغم من أن عدد الجمال في كل قافلة منها يصل إلى / ١٠٠٠ حتى ١٣٠٠ / جمل ، باستثناء القوافل المتجهة من البصرة إلى حلب ، فكانت تصمم أحياناً ستة آلاف دابة نقل ، وكان وزن حمل الجمل في القرن الثامن عشر يقدر بثلاثمائة كيلو غرام.

وفي المسافات البعيدة التي تزيد على / ٢٠٠ / كم كان باستطاعة قافلة واحدة ، أن تصمم ما بين / ٢٠٠ إلى ١٠٠٠ / جمل. وكانت حلب تتلقى قرابة ستة آلاف طن من السلع يقدر ثمنها بمبالغ كبيرة<sup>(٢)</sup>. وبقيت الدواب حتى منتصف القرن التاسع عشر الوسيلة الشائعة لنقل البضائع عن طريق البر ، ومن المعروف أن النقل البري كان عملاً شاقاً وبطيئاً إلى درجة ، أن المسافات كانت تقاس بالأيام وليست بالكيلومترات ، وكانت مدة الرحلة تتوقف على فصول السنة ووعورة المسالك<sup>(٣)</sup>.

وقدر عدد الجمال العاملة على خط بغداد حلب بحمسة آلاف جمل في أوائل القرن التاسع عشر ، علماً أن الرحلة من بغداد إلى حلب كانت آنذاك تستغرق ثمانية عشر يوماً ، أما الرحلة من إسكندرية إلى ديار بكر التي تبعد / ٢٥٠ / ميلاً فكانت تستغرق ستة عشر يوماً ، في حين كان السعر عبر طريق القوافل الواصل بين حلب وإستانبول يستغرق أربعين يوماً ، وتشير المصادر إلى أن أربع قوافل كبيرة كانت تتطرق سنوياً من حلب إلى إستانبول خلال القرن الثامن عشر ، وكانت هذه القوافل في أغلب الأحوال تتقل مختلف أصناف السلع الحفيلة مثل: الأقمشة والمنسوجات والبهارات<sup>(٤)</sup>.

كما استفاد منها بدو بادية الشام عن طريق حمايتهم للقوافل ، وتزويدها بالجمال والأدلاء ، وقد بلغ دخل العربان أكثر من نصف مليون قطعة ذهبية سنوياً ، وقد أتاح هذا الوضع للبدو في بلاد الشام ، أهمية كبيرة في البناء الاقتصادي ، والقوافل هي الوسيلة الوحيدة للنقل والسفر حتى القرن التاسع عشر ، وكان البدو يتعهدون تلك الحيوانات بالتربية والإكثار منها ، وأوجدوا لهم في المدن الرئيسية وكلاء يتعاقبون مع الراغبين في السفر أو نقل البضائع.

(١) سكيّا: المرجع السابق ، ص ١٩٠.

(٢) - سكيّا. المرجع نفسه ، ص ١٥٧.

(٣) كولفرت ، دويلا القولة العثمانية ١٧٠٠ - ١٩٢٢ ، ص ١٠٢. ليس أرمنازي ، مكتبة الجيكا ، الرياض ، ٢٠٠٤ م ، ص ٢٤٤.

(٤) كولفرت: المرجع نفسه ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

وكانت القافلة تصمم قليلاً بتوبياً واحداً وعدداً من الحراس المسلحين، يمثلون القبائل التي تمر القوافل من منطقتها، ويحصلون مقابل ذلك على مبالغ معينة، وكثفت القوافل التي تقطع الصحراء أهم وأكبر من غيرها، إذ كان يصل تعتبر أجمالها أحياناً إلى ثلاثة آلاف جمل، واستمرت تلك القوافل وسيلة السفر والنقل الرئيسية حتى أواخر القرن التاسع عشر، إذ تآخر مد الخطوط الحديدية في بلاد الشام إلى عام ١٣١٠ هـ/ ١٨٩٢ م<sup>(١)</sup> وتآخر ظهور السيارات.

**موانئ حلب البحرية:** لم تكن تجارة الجاليات الأوروبية في ولاية حلب تعتمد على النقل البري فقط، وإنما كانت تعتمد كذلك على النقل البحري من وإلى الموانئ القريبة من حلب، ومن أهم تلك الموانئ ميناء الإسكندرية الذي يقع على بعد ٧٠ كم غربي حلب بحط مستقيم، وعن إنطاكية بعشرين ميلاً، واسمها باللغة الفرنسية الكسندرت وبالإنكليزية ألكسندرية.

وقد اعتمدت حلب من قبل على ميناء طرابلس إلى أن رفع الإفرنج للمتنوطنون في حلب معروصاً للدولة العثمانية مدعوماً ببدل الأموال لجعل ميناء الإسكندرية يستقبل صادراتهم ووارداتهم إلى حلب، وكان الباعث لهم على ذلك أمران: أحدهما ظلم حكام طرابلس الذين كانوا يعتبرون على تلك البصائع، وثانيها قربها من حلب وحسن موقعها الطبيعي<sup>(٢)</sup>.

وكثر بعد ذلك وجود الإفرنج والروم في الإسكندرية، وكثر فيها الحانات، وعتاد الغادي إلى الإسكندرية، أن يعتك ليالي الشتاء في تلك الحانات، حتى صارت تشبه الحانات.

وكان في الإسكندرية وكلاء أو قناصل لسبع دول، أما للقناصل الأصليون فكانو يتمركزون في خان الإفرنج في حلب، ولما كانت الإسكندرية مرسى بحرية وباب تجارة لحلب وضواحيها، وجدت إلى جانب جمرتها مخازن عظيمة، وقام تجار الإفرنج بالبيع والشراء فيها دون انقطاع، وكانت سفن الإفرنج ستة وعشرين مليوناً رأسياً في الميناء، أما بيلان فكانت مركز قضاء يتبع ولاية حلب<sup>(٣)</sup>.

وتميزت الإسكندرية بقربها من حلب وما وراءها من البلاد الممتدة حتى العراق والعجم والهند، أما مينائها فلا بصارعه في حسه أي ميناء في الساحل الشمالي، لوقوعه في خليج مصون من الأنواء، إلا أن هواء الإسكندرية وبيل، لوفرة المستنقعات حولها، ولهذا فإن تجار الإفرنج والمرفهين من أهلها لا يمكنون في الصيف إلا سحابة النهار، وفي الليل يصعدون إلى بيلان ذات الهواء الجيد، وعلى الرغم من هذه الحالة فقد كان موقع

(١) - غراية المرجع السابق، ص ١٥٤ - ١٥٥.

(٢) - العربي المصدر السابق، ج ١، ص ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٣) - زكريا، أحمد وصفي: جولة أثرية في بعض البلاد الشامية، دار الفكر، ص ١٦ - ١٧.

الإسكندرونة الجغرافي، وكثرة توافد سفن البحر وقوافل البر، يريدونها نمواً في العمران والسكان ولواء الإسكندرونة يتألف من ثلاثة أقضية، الإسكندرونة وقرق حلس وإنطاكية، وكل منها نواح عديدة<sup>(١)</sup>.

لقد تفرق ميناء إسكندرونة على ميناء طرابلس، الأمر الذي أفقد الأخيرة منزلتها في بظر الأوربيين، وزاد في الطين بلة المسافة البعيدة الفاصلة بين حلب وطرابلس، إذ كان يلزم النواف ثمانية أيام من السير لعبورها، إضافة إلى الظروف الخطيرة المحيطة بالطرق المؤدية إلى المدينة، وقد أمكن للقوافل القادمة من حلب، بنوع طرابلس عبر ممرين، الأول دلطي بحرق حمص وحماة، والثاني ساحلي يمتد على طول ساحل الشرق.

وكذلك الرسوم الجمركية التي فرضها حكام طرابلس على كل من شاء استعمال مرفأها، وطرأ لبعده هذه المدينة عن حلب. عند الأوروبيون وعلى نحو مستمر وسري طيح الاسكندرون مرفأ ترسو فيه سفنهم، وعلى الرغم من أن شاطئ الإسكندرونة كان كالمستنقع لكثرة التبعوض فيه، إلا أنه كان على بعد ثلاثة أو أربعة أيام فقط من السفر على ظهور البغال من حلب، أصعب إلى ذلك موقع إنطاكية على مضبة يحلو مظلها، ويرتاح فيه المسافرين، ويجنون فيه ملجأ يلونون به من السلاب والنهاب.

وكان للإسكندرونة فائدة أخرى تكمن في وقوعها تحت الإدارة المباشرة لحكام حلب، فقرر الأوروبيون حصر تجارتهم المرفئية مع الإسكندرونة<sup>(٢)</sup>.

وكان خليج الإسكندرونة يدخل في اليابسة ثلاثين ميلاً، وموقعة الجغرافي يدعو إلى تأسيس مرفأ بحري يكون من أعظم موانئ البحر المتوسط. فالإسكندرونة بموقعها لها مصالحت عظيمة فهي المرفأ الوحيد لمس حلب - أنطاكية - كلبس - عينتاب - مرعش - أورفة - لبيزة - نيزيكر، ولجميع مدن شمال الجزيرة حتى مدينة الموصل، ويمكن بواسطته الاتصال مع الداخل. وهو أكبر مرفأ في بلاد الشام لأن بإمكانه استقبال البواخر والأساطيل الصخمة. ولذلك اقتضى أن يكون هذا المرفأ هو الطريق الطبيعي للتجارة مع أوروبا والبحر المتوسط<sup>(٣)</sup>.

وكان هناك مجموعة من التجار الذين ينقلون البضائع من وإلى مقاطعات كرك بوبه وبلاد موطن وبيباغي في ولاية حلب عن طريق ميناء إسكندرونة وبياس، وأكثرهم من الأوربيين دون دفع الرسوم الجمركية، لذلك صدر أمر بملاحقة هؤلاء التجار ومنعهم من تحميل سلعهم بالبضائع، ثم معرفة البضائع التي هربوها لوضع الحجر عليها، وجباية الرسوم مضاعفة، وفي حثل معانعة التجار المشار إليهم إرسال أسمائهم وصورهم إلى الأستانة للإطلاع والتنفيذ<sup>(٤)</sup>.

(١) - ركربا المرجع السابق، ص ٤٩.

(٢) - ماستر المرجع السابق، ص ٩٥ - ٩٩.

(٣) - كرك علي، محمد خطط الشام، مطبعة العقيد بدمشق، ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٨ م، ٦ أجزاء، ج ٥، ص ١٧٤ - ١٧٥.

(٤) - الغرمان رقم / ٣٥٩ / تاريخ الغرمان (١٦٥٥ هـ)، من السجل / ٤ / للأوامر السلطانية لولاية حلب، ص ١٧٧، دار الوثائق القومية بدمشق.

كما سارعت السلطنة إلى ضبط تحصيل الرسوم الجمركية عن البضائع ، فأرسل الباب العالي أمراً سلطانياً إلى والي حلب و قضاء إقطاعية ويايلاس وإلى محصل و أمراء الحمارك في حلب وإسكندرونة ويايلاس، المتضمن أن البضائع التي تنتج من مفاطعات (كرك بوية يلاموط بياعي قلضي) في منطقة حلب وتصدر إلى الحارح لا تدفع عنها الرسوم كاملة عند نقلها بطريق ميناءي إسكندرونة ويايلاس من قبل التجار ، لذلك صدر أمر بتحصيل هذه الرسوم ، وعدم تحميل البضائع في المرسى إلا بعد دفع الرسوم بشكل مضاعف<sup>(١)</sup>.

لذلك صدر فرمان سلطاني يطالب بالحرص عند انتقاء الأمراء لتحصيل الرسوم الجمركية عن البضائع الصادرة والواردة إلى ولاية حلب بواسطة ميناء إسكندرونة<sup>(٢)</sup>.

وعلى مدى أربع سنوات اعتدت ما بين ١١٨٢ هـ / ١٧٦٨ م و ١١٨٦ هـ / ١٧٧٢ م كانت هناك ٦٢ سفينة أوروبية لا تزال تخرج على ميناء إسكندرونة، ٢٧ سفينة منها من مرسلها ٨ من ليعربو و ٥ من هولندا و ٥ من البندقية. وفي الفترة نفسها الممتدة لمين علمي ١١٨٢ هـ / ١٧٦٨ م و ١١٨٦ هـ / ١٧٧٢ م و ٦٨ قافلة لنقل البضائع على الطريق الممتدة ما بين حلب وإسكندرونة، صمت كل واحدة منها ٢٥٠ - ٢٠٠٠ جبل<sup>(٣)</sup>.

كما سعت السلطنة العثمانية لضبط الأمن وتوفير الحماية للتجار والمسافرين من وإلى ولاية حلب ، عن طريق ميناء إسكندرونة ، ولذلك صدر فرمان سلطاني موجه إلى قضاء بيلان وبياس يتضمن تعرض التجار الأوروبيين أثناء تحميل ونقل البضائع في الميناء المذكور للاعتداء عليهم ، من قبل المدعو دانيال وبعض الأشقياء معه وذهب البضائع. مما تسبب بضرر في الميناء، وألحق نقصاً في إيرادات الجمرك عليه. لذلك يجب إحصاء دانيال والأشقياء وسجنهم ، وإعادة الأمن والاستقرار<sup>(٤)</sup>.

وفي أواخر القرن السابع عشر وخلال القرن الثامن عشر ، تحول قسم من عمليات حلب التجارية إلى اللانقية ، التي تبعد عن مدينة حلب مسيرة أربعة أو خمسة أيام ، ووفقاً لمذكرات البريطاني موندريلا عام ١١٠٩ هـ / ١٦٩٧ م كانت اللانقية مدينة مزدهرة، ويعود الفضل في إبعاشها إلى قبائل أغا، وكان رجلاً غني قبض على رمام السلطة في هذه المدينة، وكان مولعاً جداً بالتجارة.

وفي عام ١١٢٢ هـ / ١٧٣٥ م عين ممثل فرنسي في اللانقية ، لأن فرنسا أولت اهتماماً خاصاً لتجارة الحرير الخام عبر هذا المرفأ. وفي عام ١١٧٠ هـ / ١٧٥٦ م طلب القنصل الفرنسي في حلب من حكومته

(١) - الفرمان رقم / ٣٦٠ / تاريخ الفرمان (١١٥٥ هـ) ، من السجل / ٤ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٧٨ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٢) - الفرمان رقم / ٣٢٠ / تاريخ الفرمان (١١٨٢ هـ) ، من السجل / ٨ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ - ٢٦٨ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٣) - غاوية وهيرت: المرجع السابق ، ص ٢٤٠.

(٤) - الفرمان رقم / ٣٩٦ / تاريخ الفرمان (١١٥٥ هـ) ، من السجل / ٤ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٩٦ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.



تعيين نائب للفصل في اللادقية ، ولكن طلبه لم يتحقق إلا بعد ثلاثة وعشرين عاماً<sup>(١)</sup>. ولذلك كان تجار حلب يولون أهمية للادقية ، وإن كان الطريق إليها أبعد من غيرها ، وذلك لأمن طرقها ، رغم أن هذا أبعد من طريق حلب - إسكندرونة<sup>(٢)</sup>.

.....

(١) سكايا المرجع السابق ، ص ١٧٥

(٢) - الحموي المرجع السابق ، ص ١٨٥.

## الفصل الثالث

### الحياة الاجتماعية للجاليات الأوروبية في ولاية حلب

أماكن السكن.

حياة الجاليات الخاصة.

علاقات الجاليات الأوروبية فيما بينها .

علاقات الجاليات الأوروبية مع الإدارة الرسمية العثمانية في ولاية حلب .

علاقات الجاليات الأوروبية مع القوى الاجتماعية المحلية في حلب.

كانت الجماعة المعتمدة من التجار الأوروبيين والوكلاء التجاريين ، الذي يعود وجودهم في حلب لقرون عديدة ، كبيرة وواضحة ، ففي القرن الثامن عشر تجاوز حجمها مئة شخص ، معظمهم من الفرنسيين والإنكليز يتبعهم القليل من التجار الإيطاليين والهولنديين.

عاشوا في حلب كمواطنين أجنب محميين بامتيازات خارجة عن التشريع الوطني ، وهذه الامتيازات نصمتها اتفاقيات بين الحكومات الأوروبية والسلطنة العثمانية ، وأهمها معاهدة لامتيارات (Capitulation)

أما تفاصيلهم في حلب فكانوا يمثلون مصالحهم التجارية وقضاياهم الشخصية أمام السلطات الحاكمة، رغم أن بعضهم أقام لسنوات عديدة في حلب، لكنهم بقوا غريباء عن مجتمعها. ولم تكن بالنسبة لهم سوى محطة عمل مؤقتة، وبلد إجنبي عاشوا فيه مرتاحين، وكانوا دائماً توافين إلى لوطناتهم، وقلة منهم أحصرت زوجاتهم معهم، أو تزوجوا من نساء محليات مسيحيات، وكانوا يعيشون في برل عديدة (الخانات) في قلب المنفعة التجارية، بعيدين عن المناطق السكنية للسكان المحليين، كما أن قلة منهم تكبدوا عناء تعلم اللغة العربية، لأن الوسطاء المسيحيين واليهود العاملين لديهم كانوا يرشدوهم فيما يخص تعقيدات العمل اليومية<sup>(١)</sup>.

لم تكن الجاليات الأوروبية في ولاية حلب مهتمة فقط بالنشاط التجاري ، والحصول على البضائع والأرباح. فقد كان للجاليات حياتها الاجتماعية التي تنميه إلى حد ما حياة سكان الولاية المذكورة.

فقد اهتمت بأماكن سكناها (الخانات) من حيث إعدادها وتأمينها بشكل يوفر كل وسائل الراحة ، كما اهتمت الجاليات بتوفير السعادة والبحث عنها في موائد الطعام والشراب والدرجات في ضواحي حلب ، وإقامة الاحتفالات الوطنية والدينية وحفلات للتسلية ، وسعت لإقامة علاقات حميمة فيما بينها ، ومع سكان حلب من مختلف الطوائف (الإسلامية والمسيحية واليهودية) ، وكل ذلك للتخفيف من حدة الشوق والحنين إلى أرض الوطن (أوروبا). وفيما يلي سنبسط بعض النواحي الاجتماعية لتلك الجاليات بدءاً من:

## ١ - أماكن السكن:

لم تكن تلك الأماكن متجمعة في مكان واحد حاص. وكان جل اعتمادهم في سكنهم على خاناتها التي كانت مبعثرة في مدينة حلب ، ولم يكن سكن هذه الجاليات وفقاً على هذه الحقبة فحسب ، بل كانت حلب منذ منتصف القرن الرابع عشر الميلادي تعتبر أهم العقد التجارية بين الشرق والغرب ، وأول من جاءها من العرب منجراً البنادق والفرنسيون ، حيث أقاموا فيها المكاتب التجارية ، ثم جاءها الإنكليز في القرن

(١) - ماركوس: المصدر السابق ، ص ٥٨

السادس عشر وتلاههم اليهوديون ، وتقاتل بعض أفراد الجاليات الأوروبية في حلب وعدوا كأهم من أهلها ، وكان من الطبيعي أن تكثر في حلب الخانات كمساكن للتجار الإفرنج<sup>(١)</sup>.

والدور السفلى من كل خان كان معداً لإيواء الضائع والرواحل ، أما العليا فكانت مخصصة لسكن التجار طيلة إقامتهم في حلب الشهاء.

وكانت غرف النوم تشبه إلى حد بعيد غرف العائق ، أي أنها كانت متسلسلة ، بعضها بجانب بعضها الآخر ، يمتد أمامها رواق طويل يثرب على أرض الخان ، وكل قسم من ذلك الغرف مخصص لمبيت كبار التجار والقناصل ، يمتار عن القسم الآخر الذي يدرل فيه الوقفون العاديين.

وكان لكل جالية أوروبية خان خاص لنزولهم فيه ، فيستقبلهم ويكبلها ومعاونوه يحتفون بأبناء قومهم ، ثم يودعوهم مرزبين ببعض الهدايا التذكارية من صنع حلب.

وكلمة خان<sup>(٢)</sup> فارسية وتعني بيت ، وخان التجار كما يقول " محيط المحيط " منزلهم للتجارة ، وخان المسافرين هو محل نزولهم. وقد دخلت هذه الكلمة إلى العديد من اللغات الشرقية والغربية منها. إذ أن (Kan) الفارسية تعني محط القوافل. وكان في حلب عام ١١٤٥ هـ / ١٧٢٣ م أربعون خاناً تفصل بالوافدين من أوروبا وبلاد فارس وأنحاء السلطنة العثمانية وغيرها<sup>(٣)</sup>.

كما تعود الخانات في نشاطها إلى عهود قديمة ، ولعل بداية ظهورها كان انطلاقاً من إقامة الآبار وما حولها من سراج على طرق القوافل ، ثم تطورت إلى الأبنية الضخمة والفخمة المرودة بكل وسائل الراحة والأمان.

وكانت الخانات تقام على طريق القوافل على مراحل محددة ولمسافات معينة، ولا تستغرق أكثر من مسيرة يوم واحد بين الخان والذي يليه صمماً لراحة المسافرين وحفاظاً على أموالهم وأرواحهم من اعتداءات وعيث قطاع الطرق والصوص. كما أقيمت داخل المدن وعلى أطرافها أيضاً ، فكان لها دور مهم في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في التاريخ الإسلامي ، ففيها كان يلتقي للتجار ليتبادلون السلع ويتقابل المسافرون ليتبادلون الأخبار والتقصص.

(١) حلاق ، عبدالله يوركي: حلييات ، مجلة الصدا ، حلب ، ١٩٨٣ م ، ص ٧٣ - ٧٤.

(٢) أصل الكلمة فارسي وهناك من قال أنها تعني الجنوب أو المتجر ، أو منزل المسافرين. ويرادف كلمة الخان أيضاً الوكالة أو القنصلية ويذكر خير الدين الأمدي في موسوعته " ومعني هذا منزل بالخان لأنه يبيت فيه الخان أعني الملك " كما سميت بعدة " للقسرية " لأنها مسموبة إلى القياصرة ، فهي ملحقة بالخان أحياناً ودورها مختلف كثيراً عن الخان انظر عبد الله حلاق حلييات ، المرجع السابق ص ٧٦

(٣) حلاق: المرجع السابق ، ص ٧٦

كان يقوم عليها إداريون مهمتهم تجهز النزل بما يحتاجون من مبيت وطعام. وعمال تلقي عليهم مهمات تنظيم الحان وتنظيفه ، كما تضم الحانات الكثير من المرافق كالمحارن لتحريق السلع ، وحوص الماء ، وحظائر للماشية ، إضافة إلى المسجد والكنيسة والكتيب وغرف للممامة<sup>(١)</sup>.

وفي الحقيقة ازدهرت الخانات التي تسمى الوكالات في العصر المملوكي ، لكن العناية الخاصة بالحانات اردهرت في العصر العثماني بسبب توسع وازدياد المبادلات التجارية بين البلاد الخاضعة للسلطة العثمانية. ونظراً لأهمية جلب التجارة فقد كثرت فيها الحانات ، فهي تصمم مجموعة من هذه المباني المتميزة التي تشتهر بواجهتها المربعة برخارف بديعة ، ومداخلها القوسية الصحن ، وتعلق بواسطة مصراعي باب خشبي مصفوح بالحديد والنحاس ، وفيه باب صغير للدخول في حين يغلّق مساءً.

من خانات حلب يشبه بعضها البعض من حيث التخطيط والتقسيمات المعمارية ، كما أن أغلب واجهات تلك الخانات لمدانة برحرف حجرية وهندسية وبيانية تدل على روعة الفن والصناعة.

لقد كانت الحانات في حلب منذ القرن السادس عشر وحتى للعقد الأول من القرن العشرين مكاناً للسكن الدائم ، والذي كان ضرورياً حتى القرن التاسع عشر للتجار الأوروبيين الذين كانوا يشكلون مجتمعات صغيرة يلتف حولها فاعل ، وأماكن صغيرة للإرساليات الدينية التبشيرية ، في الواقع لقد تلائم هذا النموذج المعماري لكونه مرتبطاً بالنشاطات والمحطات التجارية ، مع سياق جديد وهو الخانات.

وتأتي أهمية هذا للتطور المعماري في حلب بشكل خاص ، من نورها التجاري الاستثنائي من جهة ، ولكثرة عدد التجار سبباً الذين مارسوا نشاطات فيها خلال عدة قرون من جهة أخرى لقد تحول التجار الأجانب هذه الأمكنة المعيدة إلى سكن له طابع الأبدية ، مظاهره مميزة ومختلفة عن المنزل المدني التقليدي ذي المساحة الداخلية.

لقد أظهر الوصف القديم وبالتحديد وصف الطبيب راسل في منتصف القرن الثامن عشر ، أن هذا السكن اكتسب معظم ملامحه في تلك العصر. حيث وصف راسل بشكل دقيق صيرورة تحول الحانات إلى شقق ، وقد ذكر عدداً من السمات الأساسية لهذه العمارة ، هذا بوصف الشكل الأصلي للحان ، فقد حصص الطابق الأول لاستقبال المسافرين الذين يستأجرون العرف بسعر رخيص ، كما يوجد في الطابق الأرضي ممشى مفتوح توصل إلى صنف من العرف ، والإضاءة في معظم هذه الشقق أقل منها من الطابق الأرضي الذي تندر فيه النوافذ في الحلف ، أما السجاد فكان هو الأثاث الأساسي في الحانات. كما وصف منازل الأوروبيين بأنها وحدات مستقلة منازلهم واسعة وعملية، حيث يشغل المنزل نصف وأحياناً كامل جانب مربع المساحة. الرواق مسقوف ، وبوادر كبيرة على النمط الأوروبي تفتح على الساحة ، أما الأرضيات فهي مرصوفة بالحجر والمرمر ، الشقق واسعة ومعروشة أيضاً، والمكاتب التجارية في الطابق الأرضي وأصبح الممشى هو

(١) - فارس ، محمد كمال. حانات حلب، مجلة اقتصاديات حلب، ع ٢ ، دار الفواء للطباعة، حلب، ١٩٩٢ م، ص ٥٥ - ٥٦

العنصر الأساسي في تنظيم الحيز السكني، لأنه يعد مساحة دائرية جامعة ، مساحة شبه عامة ، مستمرة ومحيطية مفتوحة بشكل واسع على الساحة بأقواس ، أصبح مساحة داخلية للتوزيع ضمن شقة ، ولم يعد مساحة جانبية بالنسبة للمساحة وبالنسبة لمجموعة المحلات التي تقضي إليه ، بل أصبح مساحة محورية بفصل القيام بعدة حيل تنظيمية ، وخاصة في التوزيع وشكل الفتحات المتناظرة على طرفي الممشى بحيث تكون أبواب العرفه مواجهة للتوافذ المفتوحة على الساحة حتى الجانب الآخر<sup>(١)</sup>.

أما التعبير الثاني والمميز الذي وصفته راسل هو معالجة الأرضيات ، حيث امتعاض عن البلاط الحش والبسيط المتواتر التكرار ، ببلاط أملس ومرمر أكثر نقاوة وجمالاً. وكانت الرسومات على المرمر عبارة عن مربعات وأشكال هندسية تدل على المركزية وانعلاق للعرفه وعلى تنظيمها الداني ، كما تتم إلحاق قسم من الممشى الذي كان معرولاً بشكل كامل عن باقي النمط التكراري والمتصل للآخر.

والسعة الثالثة التي لاحظها راسل هي أهمية الديكور والأثاث ، فقد كانت المفروشات في الأماكن الحلبية بسيطة بيضاء كانت في منازل الأوروبيين أبيض<sup>(٢)</sup>.

وقد أدخل الأوروبيون بعض التعديلات على القسم المخصص لسكنهم ، بحيث يتلاءم مع حاجاتهم ودوقهم الفني ، وبضمن لهم الراحة ووسائلها. فالأروقة التي تطل عليها الغرف ، أحاطوها بحاجز حديدي مرخرف "هرايزون" على النمط الإيطالي ، لتكون أسطحه يتنزهون فيها ، وفتحوها بوافد واسعة ، على النمط الأوروبي مظلة على التباحة ، كما حولت بعض العرف إلى مطابخ<sup>(٣)</sup>.

وبذلك درج التجار الأوروبيون على الإقامة في الطبقات العلوية من خانات المدينة بحثاً عن الهدوء، وبعدد عن ضوضاء الحركة التجارية اليومية وصحيجها<sup>(٤)</sup>.

ومن أبرز خانات حلب خان الجمرك ، وقد تركه الفرنسيون واستأجروا حل الحبال لسكنهم واستعمالهم الخاص ، وسكن قسطنطين في مبنى مجاور وكان يسمى حان الفرنسيين. يعد خان الجمرك أوسع خانات حلب شهرة في عالم التجارة ، بل في العديد من بلدان الشرق والغرب ، فقد كان منذ القرن السادس عشر ، مقر التجار الأجانب<sup>(٥)</sup>. وهناك خان البنادق وهو حل مهم ، يقع قرب الجامع الكبير، وكان يشغله البنادقه وقلصلهم<sup>(٦)</sup>.

(١) - دافيد، جان كلود إقامة تجار الجملة في خانات حلب ، ت غادة فحسين ، مجله الحوليات ، المرجع السابق ، ص ٣٥٠.

(٢) - دافيد، المرجع نفسه ، ص ٣٤٩ - ٣٥١.

(٣) - الصباغ الجليليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٦٥٦.

(٤) - بروبي - المرجع السابق ، ص ١٤٤ - ١٤٥.

(٥) - حلال: المرجع السابق ، ص ٧٦.

(٦) - قلعة جي - المرجع السابق ، ص ١٦٦.

وخان الوزير، الذي يقع بين قلعة حلب والجامع الكبير، بقي في العصر العثماني عام ١٠٩٥ هـ/ ١٦٨٣ م، ويعد من أشهر حانات حلب، ويمتاز بواجهاته الدخلية والخارجية المزخرفة، وبوابه الصحن الجميلة، وبواقفه العنية بالرحارف، وهو نموذج رائع لخانات حلب، له صحن معنوي واسع، تحيط به المستودعات والمحارر التجارية، وفي الطابق العلوي مظل على الصحن بواسطة سلسلة من القاطر، ويلي الرواق غربا ومستودعات<sup>(١)</sup>.

وقد تحول الحان إلى حارة لأوروبية معلقة، تحوي للتجار والمبشرين ورجال القنصلية، وفاقت حلب بذلك جميع مدن السلطنة العثمانية<sup>(٢)</sup>.

ومن جهة أخرى وفرت السلطنة الحماية لأماكن سكن الجاليات الأوروبية، ففي أحد بنود معاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م بين السلطنة العثمانية وفرنسا يلاحظ عدم السماح لموظفي الباب العالي ورجال القوى المسلحة أن يدخلوا بدون سبب ضروري بالقوة بيتاً يسكنه شخص فرنسي. وإذا دعت الحالة الدخول يعلم بذلك السفير أو القنصل إذا وجدا في محل الحادثة، ويكون الحضور إلى ذلك البيت الممنوع عنه مع الأشخاص الذين عيّنهم السفير أو القنصل لينوبوا عنه، وإذا خالف أحد هذه الأحكام يعاقب على ذلك<sup>(٣)</sup>.

ترود الكثير من الحانات بخرانات مياه كبيرة توجد تحت الأرض تدعى (صهاريج)<sup>(٤)</sup>. وترود بعض هذه الصهاريج بالمياه بواسطة الأنابيب الموصولة من القناة مباشرة إلا أن معظمها يملأ في أوائل الربيع بواسطة السقائين. وبعد ملء الصهاريج بالماء، تعلق فتحتها، وتحفظ المياه فيها حتى الأشهر الحارة، وتُسحب بواسطة رعاء رصاصي وحبل، وتكون لذبة وباردة، وتُستمر على هذه الحالة طوال الصيف<sup>(٥)</sup>.

(١) الحمصي المرجع السابق، ص ١٣٦.

(٢) الأسدي المصدر السابق، ص ٤٧.

(٣) - المعاهدة ١٧٤٠ م: للمرجع السابق، ص ٧٠.

(٤) - تسمى للصهاريج تحت أرض الحان وبشكل متكرر، والصهاريج فتحات التهوية كي لا تصيب المياه ألسنة، كما يتم نظيفها بشكل دوري.

(٥) - رسل المصدر السابق، ص ٦٣.

## ب - حياة الجاليات الخاصة:

كانت الجاليات الأوروبية في ولاية حلب تشكل مجتمعاً صغيراً ، ولهذا المجتمع حياته الخاصة يتميز بها عن المجتمع المحلي ، فلم ينس أفراد الجاليات الأوروبية حياتهم الاجتماعية رغم تعقيدات العمل التجاري وصعوبتها ، فكانوا يستغلون جميع العرص ليملأوا أوقات سعيدة من خلال قيامهم برحلات وبرهات حول مدينة حلب إلى بعض المواقع الأثرية القريبة والسعيدة ، وأيضاً رحلات الصيد والقبص ، وإقامة الولائم الفاخرة العبية بمختلف أنواع الأطعمة ، عدا عن ممارسة بعض الألعاب الرياضية وألعاب التسلية الأخرى. فمثلاً في مجال:

٦٧٥٢٩٦

### التزهات وحفلات الصيد:

كانت بعض الجاليات الأوروبية تنظم رحلات للصيد واقتصص ، كانوا يخرجون إلى الريف المجاور ، ليصطادوا الحيوانات البرية. حيث كان القنص يجري بشكل جماعي ، أو إفرادي الأمر الذي يعرض بعضهم لاعتداء قطاع الطرق.

ومع ذلك كان الإنكليز أكثر الجاليات اهتماماً بحفلات القنص ، لأنهم كانوا لا يتلقون قوافلهم البحرية إلا مرة واحدة في السنة ، فلا عمل لديهم إلا ثلاثة أشهر ، أما بقية العام فيقضونه بالتسلية والترويح عن النفس. لذا نظموا أوقاتهم تنظيمًا حسناً ، فكانوا يخرجون مرتين في الأسبوع إلى صواحي المدينة ابتداءً من شهر تشرين الثاني إلى نهاية آذار ، وكانوا يمتطون الحيون العربية المظهمة التي كانوا يعتنون بها عناية دقيقة. وكانوا يأخذون معهم كلابهم وسورهم. وكانت رحلات الصيد والقنص هذه رياضة جسمية ضرورية بالنسبة لهم ، وترهبها نفسياً لا عني<sup>(١)</sup>.

وامتلك الإنكليز الحيون الجميلة وقاموا بالتره على ظهورها مرتين أسبوعياً ، وتناولوا طعام الغداء هناك ، بعد تشييد حيمة كبيرة في موقع جميل خارج المدينة وعلى بعد ٤ - ٥ أميال منها.

وكان طبائهم يصطحب كل ما يحتاجه من أدوات المطبخ وينتجه إلى المكان صباحاً مع الحماليين الذين أعدوا موزن المطبخ ، وحملوا البسط والكراسي والطاولات التي يمكن طيها ، وكان بإمكان الطباخ أن يقلب ويشوي ومطبخ الأطعمة في العراء وبأقل أنية ، وتجهيز ٥ - ٦ أنواع من الأطعمة بكميات كبيرة ، ويساعده ٢٠ / شخصاً للخدمة ، وهي حالة لا يمكن للطباخ الأوروبي إنجازها لوحده. وكانت تشاد الحيمة عامة على المرح قرب نهر أو يسوع ماء ، وكان ينوع رجب باشا من الأمكنة الممصرة الذي يسميه السكان المحليون "العير المباركة" ، ولكن يتغير موقع الخيمة لتعبير المنظر العام أو لتأمين حاجات الجماعة التي خرجت إلى النقص صباحاً ، ويصل الجميع عند الظهر ، وتصفد أرجل الحيون بالحديد ، وتترك للرعي في المواقع القريبة ،

(١) - الصياغ: الجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٧٠٠ - ٧٠١.



ثم توصع الصقور وكلاب الصيد قرب الحيمة، وتعلق مختلف أنواع الطرائد على مدخل الحيمة. ويكون الطقس جميلاً في معظم الأحيان، وتنتس الطبيعة حلة حصراء بعد الأمطار الحريفة وتظهر الينابيع الصفراء الفارسية في الأراضي المحروثة، ولا تتعري الحقول من هذا الحمل حتى فصل الشتاء<sup>(١)</sup>.

وكانوا يصيدون من الطيور الكم الكثير في أوائل الحريف وأواخر الربيع وكذلك الطرائد من غزال وأرانب حاصلة بالكلاب والذراة<sup>(٢)</sup>. وكان للإنكثير في ذلك القصر طريقة طريقة يمكن تلخيصها فيما يلي: إذ يقف عشرون أو ثلاثون فارساً (وهيهم الحدم) صفّاً واحداً، وهي خط مستقيم، يفصل أحدهم عن الآخر سبع أو ثمانية أقدام، وهو ما يعرف عندهم بالبرابر<sup>(٣)</sup>. ويقف عند كل من طرفي الصف خامس رجلان، يمسك كل منهم برمام كلبين (سلوقيين). ويتقدم الجميع الباربار (حامل البار) وقد امنطى جواداً ووقف على بضع خطوات من وسط الصف.

أما مهمة اكتشاف الطرائد فمهمة بقلادة الكلاب، ولهم في ذلك حنق غريب تشجده المكافآت التي يألونها كلما أحسوا التنبيه، والشعار المتفق عليه بينهم، وعند العثور على الطريدة، ينادون بحرص وتحفظ "ياتو"<sup>(٤)</sup> ومعناها ياتم أو نائمة. فإذا سمعها الصيادون أخذ صفهم يتحرك تتال إلى الأمام، حتى إذا اعتقدوا أن الطريدة أصبحت في متناول أيديهم أرسلوا إليها كلباً أو كلبين من الكلاب القريبة منها، واطلق على أثر الكلبين حامل البار مغيراً ومحرراً بنزه، ويتبعهم من أحب من جماعة الصيادين. وعمل البار في الصيد هو أن يحول دون فرار الطريدة، وذلك بأن يصفعها بجناحيه أو مخالبه على وجهها صفعات متتالية يرتفع أثناءها قليلاً، ليعود إلى الصعع بعزم جديد، وهكذا تواليك، حتى تصطرب الطريدة وتحتفي أمام عينيها معالم الهرب، فتأتي الكلاب وتقبض عليها حية<sup>(٥)</sup>. وينتهي الصيد قبيل الظهر، ويولي الصيادون وجوههم شطر المخيم، حيث يكون طهاتهم وخدامهم في انتظارهم، وقد انتهوا من إعداد الطعام، وتهبئة السرايق لاستراحة ساداتهم بعد الطعام، فيدخل هؤلاء السادة السرايق ويتناولون ما على المائدة المنصوبة في وسطه من شهي المأكول وسائغ المشروب، بينما تمرح حيولهم على بعد خطوات من محيهم، وقد قيدت منها الرجال بسلاسل حديد، وتقف الكلاب والبراة حول الحيمة تحرس الصيد<sup>(٦)</sup>.

وكانت الفصول التي اختارها الإنكثير لنزهاتهم هي أجمل فصول السنة في حلب، حيث تكون السماء صافية باهرة الصياء، والأمطار الحريف تلح على الحقول المحروثة ثوباً أبيضاً من الحصرة النضرة،

(١) - سرمدان المرجع السابق، ص ٢٧٠ - ٢٧١

(٢) - البراة: مغرد، بار، وهو طير يستحمه الأوروبيون للانقضاء على الطرائد لبعض طيها.

(٣) - البرابر: نقطة تركية من أصل فارسي يراد بها التماسق والتماثل والتلازم.

(٤) - ياتو: لأرجح أنها مقتبسة من لفظة "ياتور" صيغة الحال التركية من مصدر "ياتق" الذي يعني النوم أو الاصطجاع

(٥) - قسطنطين المرجع السابق، ص ٥٠ - ٥١

(٦) - قسطنطين. المرجع نفسه، ص ٥١ - ٥٢

تطورها أرهاق السوس العجمي بصغرتها الزاهية لنافقة ، ولا تحلو الطبيعة هنا (حلب) حتى في قلب الشتاء من عصر الجمال. ولكن سحرها وفتنتها إنما يتجلى في فصل الربيع ولا سيما منتصف آذار يوم ترتدي الأرض حليتها الخضراء الرائعة للبهية من أرهاق الحقول ، وأنواع الأشجار متنوعة الصور والألوان ، حيث القطعان ترعى على صفاق نهر قويق ، ولقوافل تمر أحياناً على مرأى الجالس في السرايق ، فتزيد المشهد جمالاً في مختلف فصول السنة.

وكان التجار البريطانيون في شهر نيسان يخرجون إلى البساتين الواقعة قرب باب الله ، ويفنون هناك حتى نهاية شهر أيار ، وينتج بعضهم إلى المدينة صباحاً ليعودوا ظهراً أو مساءً بعد قضاء بعض الأعمال. وخلال الصيف كان الأوروبيون يتناولون طعامهم في معص الأحياء في البساتين ، بالقرب من المدينة أو تحت الحبة ، غير أن هذه النزهات لا تكون ممتعة جداً ، وذلك لاستحالة إيجاد طريقة تقبهم من شدة الحرارة وإزعاج النباب ، بالإضافة إلى عدم توفر مكان لأحد العيولة المعتادة<sup>(١)</sup>.

وبيوت الإنكليز الريفية مريحة، ويمكن جعلها أكثر راحة بسهولة ، لأن الفريجة يعدون أنفسهم مسافرين في كل لحظة ، ولذلك لا يصرفون كثيراً على هذه البيوت ، وهي ليست ملكاً لهم في الأصل.

ويظهر من سبق بأن الإنكليز كانوا يتمتعون بالنزهات بشكل كاف ، لأن حبانهم التي كانوا يعيشونها قليلة الحركة ، لأنهم يقصرون ساعات طويلة في مكائهم ، ويتمشون بكسل على الشرفات ، ومن رياضاتهم أيضاً الدور حول باحات بيوتهم وركوب الخيل<sup>(٢)</sup>.

ولم تكن تلك النزهات خارج المدينة مقصورة على الجالية الإنكليزية فحسب ، بل قامت الجاليات الأوروبية في حلب بذلك، فنزهة الفرنسيين كانت تقصد بشكل خاص " تكية الدراويش " في منطقة شيخ أبي بكر ، حيث كانوا ينطلقون إليها مع ضيوفهم ، لما فصلهم فكان يذهب أحياناً للراحة والاستجمام في حديقة المفتي<sup>(٣)</sup>. رحبنا في هذا المجال ما جاء لدى القنصل الفرنسي في حلب آنذاك دارفيو الذي وصف كيف قدم برهة متطلياً حصانه للمرة الأولى برفقة جماعته الفرنسيين والهولنديين حول أسوار المدينة، ودهابهم للاستراحة في دير الدراويش يسمى الشيخ أبو بكر ، وهو صرح جميل جداً ومتين البناء. كما وصف استقبال كبير الدير له مع احترام في قاعة كبيرة مقبية ، وتناول أطراف الحديث معه لنضع دقات ، وشرب القهوة ثم قام بزيارة مدافن الدير وأثاره الأخرى ، ويقول أن رجال الدير كانوا مؤدبين وطيبين جداً ، وبعد رش العطور تم وداعهم ليعود دارفيو ومرافقوه إلى المدينة<sup>(٤)</sup>.

(١) - رسائل. المصدر السابق ، ص ٢٥٦

(٢) - سورمائي المرجع السابق ، ص ٣٧٠ - ٣٧٢.

(٣) - الصباغ: الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٧٠٤.

(٤) - سورمائي: المرجع السابق ، ص ٣٩٣.

أم البنادقة والهولنديون فلم يكن لهم مكان خاص بهم ، وإنما كانوا يشتركون مع الفرنسيين أو الإنكليز في نزهاتهم ، وبعض هذه النزهات لم تكن تخلو من بعض المنعصات ، من قطاع الطرق والبدو ، وكان يجري أثناءها تبادل لإطلاق النار ، ويسقط جراء ذلك بعض الجرحى ، وتحتج الجاليات وتهدد وتتوعد ، لكن دون جدوى<sup>(١)</sup>.

ولم يكتب أعضاء الجاليات الأوروبية بالنزهات ورحلات الصيد حول المدينة فقط ، بل كان فضولهم وحس الاستطلاع أو الدراسة يدفعهم للبحث عن المناطق الأثرية وزيارتها للتعرف على معالم البلاد الحضارية ، وأكثر الجاليات اهتماماً بهذا الأمر كان الإنكليز ، الذين شكلوا مجموعات تخرج لزيارة قلعة القديس سمعان العمودي ، وضفاف الفرات ، وبطائية وغيرها من المواقع الأثرية التي أثارَت فضول السياح ، ومما يجدر ذكره أنه من حان للحاسين انطلقت مجموعة من التجار الإنكليز عام ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م لاكتشاف تدمر ، لكنهم تعرضوا لعدوان البدو ، وتم احتطافهم ، ولم يطلق سراحهم إلا بعد أن دفعوا الفدية المطلوبة. وقد عادت المجموعة نفسها إلى تدمر بعد / ١٢ / عاماً بصحبة القس هاليفاكس ، الذي قام بنسخ أول ثلاث كتابات ، أدت فيما بعد إلى فك رموز الكتانة للتدمرية عام ١١٦٧ هـ / ١٧٥٣ م من قبل العالمين الألب بارتملي الفرنسي و سويتن الإنكليزي<sup>(٢)</sup>. ومن كل ذلك يتضح أن الجاليات الأوروبية لم تكن لتتمتع بحرية الإقامة في أرجاء الدولة العثمانية فحسب ، وإنما بالتنقل والتجول في جميع جيباتها ، وإن كان عليها أن تنال تصريحاً خاصاً لزيارة القلاع وبعض الأماكن الأثرية ، من حكام المناطق<sup>(٣)</sup>.

ومن خلال رحلة قام بها الهولندي كورنوليس دوبرويجن إلى حلب ١٠٩٤ - ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٢ - ١٦٨٣ م وأقام فيها أحد عشر شهراً شارك خلالها في حياة الأوروبيين في المدينة ، وجمع قطعاً أثرية يونانية - رومانية ، كما قدم وصفاً عن حياة الأوروبيين الاجتماعية ، ويقول: " يوجد في حلب أنواع عديدة من الطرائد ، وهذا ما متاح للأوروبيين ، مجالاً للتسلية في الصيد ، إما بإطلاق النار على الأرانب والحجل (تسلية شارك بها أحياناً) ، أو بالقص بواسطة الباز ، وهي طريقة في الصيد تعجب العثمانيين كثيراً. وفي يوم كنت أشارك في الصيد بعض العثمانيين والإنكليز ، بعيداً بما فيه الكفاية عن المدينة ، على أطراف النهر ، الذي يمر قرب هذه المدينة (نهر قويق) ، قام أحد العثمانيين بإطلاق النار على إوزة ، وهذه بمجرد ما أبصرت الباز غطست في الماء. وبعد قليل مر سرب من الطيور الضخمة ، يشبه الإوز البري يطير فوقنا على علو شاهق. فأطلق باز ، عاد بعد قليل بواحدة منها إلى الأرض. وإن مثل هؤلاء الداهيين إلى الصيد لا يظلمون بكثير مما كنا نأمله ، من المتعة والحركة \*.

(١) للصباح الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٧٠٥.

(٢) - حجار إصصاف طيبة ، المرجع السابق ، ص ١٠١.

(٣) للصباح الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٧٠٦.

ويرف قائلًا (وللإنكليز صيدهم الممتع مع كلابهم (السلوقية) ، ويقومون به عادة مرتين أسبوعياً. يبدأون حارح المدينة قليلاً ، ويصلون حتى الجبل الذي يدعو به الجبل الأخضر ، وحين يهوى الصيد ، يتناولون طعام العشاء تحت خيمة كبيرة يحملونها معهم. وكل واحد منهم مضطر لأن يحمل معه طعامه الحاصل وبيده ، يصعدون للطعام سوية ليتمتعوا بالصيد، وكان يوجد في الجالية دائماً واحد يحمل اسم "كابو" فهو بمثابة رئيس المجموعة ، ولديه معاونان وحارح. ليساعده في إدارة العمل بشكل دوري ، وينتخب دائماً من جديد ، ويتم الانتخاب بأكثرية الأصوات ، والعائز بذلك يرفع فوق أكتافهم وينقلونه إلى القنصل الذي يشارك عادة في حفلة الصيد هذه ، وكل واحد بعد الاعتراف به رئيساً عليهم خلال كل العام ، والكابو الذي يعترف بهذا الشرف ، وحلال أول حفلة صيد تجري ، يلتقي على الجبل الأخضر بالجالية وبالقنصل وكل الأفراد الذين يحبون للصيد والذين يريدون الانضمام إلى هذه لفئة. وبعد أن يتم هذا بمزيد من البهجة ، كان بعض الأشخاص يتوجب عليهم أن يذهبوا إلى مكان معين من هذا الجبل قبل يومين من حفلة الصيد ، حيث يتم اصطيد الخنازير البرية وتخصير لحوم هذه الحيوانات الصارية ، لقد تمتعت (كورنوليس) بهذه السعادة خلال إقامتي في حلب ، بمشاركة كثير من الهولنديين في هذا الاحتفال الرائع ، وأن أشرب نخب صحة الكابو وأن أصرخ "هوساي" على الطريقة الإنكليزية في مناسبة هذه الاحتفالات<sup>(١)</sup>

أما عدد الزعمات وحفلات الصيد والقنص كانت الجاليات الأوروبية تهتم بالأعياد الدينية ، إذ كان جميع الأفراد يتوجهون إلى الممثل الرسمي لهم ، لمرافقته إلى الكنيسة بموكب حافل ، وقد ارتكوا ملايسهم الجميلة ، والقنصل على رأسهم ، يتقدمه تراجمته ، وإلى جانبه النواب والمستشار ، ووراءهم التجار ثم وكلاء التجارة. وكان كبير رجال الدين ، وهو الحادم الأول للكنيسة القنصلية ، يقوم باستقبال الموكب على باب الكنيسة ، ويقدم الماء المبارك للقنصل ، ثم يقوده إلى مكانه الشرفي ، وأثناء الصلاة يقوم العاملون في الكنيسة بتخيره ، ويقدمون له الصليب والإنجيل ليقبلهما. وكانت فرنسا والبنديقية حريصتين على هذه المظاهر ، أما إنكلترا (ذات المذهب الأنجليكاني) فإن هذه المظاهر لديها كانت بسيطة نسبياً ، فقد كان يكتفى بيوم الأحد والأعياد بتجمع الجالية في الكنيسة والاستماع إلى عظات من رجل الدين.

ولم تكن المناسبات التي تظهر فيها الجالية وحدة واحدة خارج الخان في الأعياد الدينية وأيام الأحاد فقط، وإنما كانت هناك مناسبة وصول قائما جديد ، وزيارات السفطات الحاكمة ، وتعيين قنصل جديد ، واستقبال السفير ، والاحتفالات العرقية والوطنية ، مثل ولادة ولي العهد ، أو وفاة الملك. ففي كل هذه المناسبات كانت الجالية تسير على شكل مواكب برئاسة القنصل أو نائبه<sup>(٢)</sup>.

(١) المسرور المرجع السابق ، ص ٨٥ ٨٦.

(٢) الصباغ للجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٦٩٠ ٦٩١.

وكانت الاحتفالات القومية ، وبحاصة الانتصارات في الحروب مثلاً أكثرها أبهة وفحامة وتنفق أثناءها الجاليات كثيراً من الأموال ، متفاخرة أمام بعضها البعض ، وقد بلغت تكاليف الاحتفالات في حلب للجالية الفرنسية ألف قرش ، وكان من نتائج هذه النفقات ، أن احتجت غرفة التجارة على هذا الأمر ، وبيّنت أن حلب أنفقت أكثر من جميع مدن البروفنس مجتمعة. لذلك صدر أمر من حاكم البروفنس عام ١١٠٦ هـ / ١٦٩٤ م ، بالألا تجرى احتفالات في الإمكلات ، إلا تلك التي تأمر بها العرفة.

ولم تكن فرنسا لوحدها المضيفة في هذا المجال ، وإنما سبقتها إلى ذلك البندقية نفسها ، التي عرفت بحب البذخ والترف. فقد منعت الهدايا والمآذب التي تقام أثناء الأعياد البندقية أو العثمانية<sup>(١)</sup>.

وكما كان القنصل يستقبل ، كان يودع أيضاً باحتفال رسمي تشترك فيه جميع الجاليات الأوروبية في حلب . وكانوا يرافقونه إلى بعد أربعة أو خمسة أميال خارج المدينة ، ومثالنا على ذلك استقبال القنصل الفرنسي الجديد دارفيو، وفي اليوم الأخير وصل إلى البساتين جمع الأوروبيين (إنكليز - سنانقة - هولنديين) ممنطين الحيلول لمرافقة دارفيو حتى المدينة ، فقدم طعام العداء للجميع وبعد شرب كأس كل منهم نخب الأحر<sup>(٢)</sup>.

يلاحظ من كل ما سبق أن الاحتفالات الرسمية كانت تسهم في تجمع أفراد الجالية الواحدة. ودعماً لمركز القنصل ، كما كان اجتماع الجاليات مع بعضها البعض لقضاء أوقات العرج والمرح تخرجهم من رتابة حياتهم اليومية ، ومن الاستعراق في العمل الروتيني ، ويتمتع التجدد والحركة في حياتهم العادية ، وتحف من وطأة الحياة عليهم . كما كانت الجاليات تؤدي واجب الضيافة حير أداء ، وتستمتع به. ولم تكن مناسبات الضيافة محدودة أو معدودة، بل إن المائدة القنصلية لمعظم الجاليات دأراً ما كانت تحلو من صيف وافتد ، ولا سيما في حلب التي كانت معبر للعديد من السياح الأجانب والتجار ورجال الأعمال ، ورجال الدين وغيرهم ، حتى أن الإنكليز أسموا في حلب جمعية الصيوف ، أطلقوا عليها اسم " فرسان وادي الملح " ، وينسب إليها الأجانب بطقوس معينة ، وهدوها الاحتفال بالصيوف وتسليةهم<sup>(٣)</sup>.

وأكبر الأعياد التي كان التجار يحتفلون بها على هواهم ، وبحرية ودون أي قيد من قيود الرسميات ، ويعيدون فيها تكري احتفالات الوطن الأم " عيد الكرنفال " ففيه كانوا يلهون ويرقصون ، ويولمون الولائم ، ويمثلون الكوميديا

وأشد الجاليات انغماساً في اللهو أثناء الحفلات من هذا النوع ، كانت الجالية الإنكليزية ، فقد كان التجار الإنكليز يتعاطرون النبيذ بكثرة ، وكانوا يشربون حتى يفقدوا الوعي ، فيكسرون ويحطمون الكؤوس وما على

(١) - لصياغ: الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٦٩١ - ٦٩٢

(٢) سورمايل: المرجع السابق ، ص ٣٩٧.

(٣) - Wood p ٢٤١.

المائدة ليشرفوا (بحسب زعمهم) صيوقهم ، ومن يشربون على حبهم. وإذا كان الإسراف في اللهو يدل على شيء فإنه يبرهن على مدى الكبت الذي كان يعانيه أفراد الجاليات بعيداً عن مواطنهم. ومن ثم فهي أول فرصة للتحرر ، كانوا يطلقون العنان لعرائزهم وأهوائهم ، محاونين لإصاءها وسبيلان التضيق الذي يعانون<sup>(١)</sup>.

أما وسائل الترفيه بعد كان الأوروبيون يمضون قسطاً من وقتهم ببعض الألعاب الرياضية ، التي كان يمارسها الإنكليز في حلب ، في مكان يدعى " المرجة الحصراء " ولعبة اللباردو ، التي تمارسها أغلب الجاليات ، وكان النزاع يأخذ أثنائها مطهراً جدياً ، يصل إلى حد تمزيق الملابس ، وتحطيم الرؤوس<sup>(٢)</sup>.

كما حمل الأوروبيون تلك الألعاب إلى حياتهم الاجتماعية ، ليقتصوا أوقات فراغهم ، فإنهم نقلوا إليها من مواطنهم " لعب الورق " . وكانت هذه الأهمية منتشرة جداً بين أفراد جميع الجاليات الأوروبية على السواء. علماً بأنها لم تكن معروفة أبداً في البلاد العربية الإسلامية. وكان الأوروبيون يدعون بعضهم بعضاً إلى ما يمكن أن نسميه " حفلات لعب الورق " وكان يحضر هذه الحفلات بعض سكان البلد من المسيحيين الذين يعملون لدى الأوروبيين ، وقد تنقش هذه اللوح من اللهو بين الأهالي أنفسهم ، فأخذوا يمارسونه في منازلهم ، وتعلق بعضهم به إلى حد الإدمان عليه وكانت تؤدي الحاصلات الضخمة التي تصيب التجار العرجة أو المسيحيين من أهل البلد إلى إفلاسات تذلّل كيّل الجاليات وتقلّصها<sup>(٣)</sup>.

الطعام والشراب: كان الأجانب يتمتعون بحرية تشبه إلى حد كبير ، الحرية التي كانت لهم في مواطنهم الأم. وكانوا في بحبوحة من العيش داخل بيوتهم ، بالرغم من صيقها المكاني ، وكانت الحياة ميسرة لهم وسهلة وواسعة. فلم يخدمهم من أهل البلاد " الأرمن أو الروم " ومن مواطنهم ، ليهينوا لهم الأجواء التي كانوا يعيشونها في بلادهم ، وطباخوهم الذين يعدون لهم أصناف الطعام الملانة لأمرجتهم في حياتهم العادية، وأثناء المأدب.

وكانت تكاليف الحياة ضئيلة جداً ، وأقل مما يتصور أي أجنبي واحد ، فالخدم المحليون يكتفون إلى جانب بطاعتهم ببسطة قروش ، والمواد الغذائية متوفرة نوعاً وكماً في كل مكان ، وبأسعار رخيصة<sup>(٤)</sup>.

فالقنصل الفرنسي في حلب دارهيو كتف في منكراته عام ١٠٩١ هـ / ١٦٨٠ م (لحم العجول هنا يبيع جداً على الرغم من أن المسلمين لا يأكلونه أبداً لذلك نتجح من أجل الأوروبيين فقط).

(١) - لصباغ: الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٦٩٩ - ٧٠٠

(٢) - D. Arvieux. vl. p. ٤٠ - ٤١

(٣) - لصباغ: الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٧٠٧.

(٤) - لصباغ: الجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع نفسه ، ص ٧٠٨ - ٧٠٩.

وكذلك العشب بجميع أنواعها - التي تجهر بعناية كبيرة أثناء الولائم والطعام اليومي وفي النسائين هي من الأطعمة المفصلة ليس عند أهالي حلب فحسب بل لدى الأوروبيين أيضاً<sup>(١)</sup>.

ويعطي الطبيب الإنكليزي راسل في منتصف القرن الثامن عشر صورة واضحة عن موائد الطعام والشراب عند الأوروبيين في حلب، حيث ذكر: كيف تقدم جميع أنواع الأطعمة على موائد الأوروبيين عدا الأسماك البحرية التي لا يمكن الحصول عليها طازجة إلا في الشتاء، وكان الصالحون والخدم الآخرون من الأرمن، قد تعلموا الطبخ الفرنسي أو الإنكليزي، كما كانت تقدم الأطباق المحلية كشيء من التنوع في الطعام، وتكون الدعوات الرسمية في الغالب على المشاء وليس العشاء وخاصة في الصيف، وتكون خدمة المائدة في كليهما نفسها تقريباً، إذ يتم تناول طعام حيواني في الليل أكثر مما هم معتاد في الموائد الأرستقراطية في إنكلترا<sup>(٢)</sup>.

وقيل إن نهر قويق استمد اسمه من نفق الصفادع التي تتبع على جانبيه ، والتي لا تزال توجد بأعداد كثيرة وأحجام كبيرة ، ونوعيتها اللذيذة إلى درجة أن بعض الدواوين الأوروبيين يقولون إنه يجدر القيام برحلة إلى سورية لتناولها والتمتع بمذاقها. وكان يتناول هذه الصفادع الفرنسيون والمسيحيون الحلبيون.

إلا أنه قمة نوعاً آخر من الطعام من نهر قويق ، يتمتع بطلب أكبر بكثير من الطلب على الصفادع يتمثل في نوع معين من السرطان ، وهو محتلف تماماً عن أي من الأنواع المعروفة في إنكلترا ، ويعدّه الإنجليز من أطيب ما يقدم على موائدهم<sup>(٣)</sup>.

أما بالنسبة للأسماك فعرف الأوروبيون أولى تلك الأسماك باسم سمك إكلبس حلب وتناوله الإنكليز أكثر من أي نوع آخر من أسماك نهر قويق ، كما تناولوا نوعين فقط من الأسماك من نهر قويق وهما سمك الحياة والقنوضي ، وحصلوا على السمك البحري حيث كان يرسل نوعان فقط من سمك القد إلى الإنكليز من الاسكندرون، ويبادل أحدهما في النوعية ، والحجم أفضل من أنواع القد الإنكليزي.

وتم ترويض الجالية الفرنسية بكميات كبيرة من السمك بواسطة بحارة سفهم المرويين بمصايد أسماك أفضل من اليونانيين في الإسكندرون<sup>(٤)</sup>.

أم لحوم الحيوانات التي كانت تقدم للجائيات محدث عنها ولا حرج ، فالأبقار التي تدبج تقدم بصورة رئيسية على موائد الأوروبيين ، وتوجد أيضاً الخنازير البرية في التلال المجاورة ، وفي الريف حول قرية الجبول وبحيرة الملح ، وعادة ما يطلق الفلاحون النار عليها ، ثم يحملونها إلى المدينة على ظهور الحمير ويبيعونها ، وكانوا يأتون بها إلى إحدى القصليات الأوروبية.

(١) - مورمانس المرجع السابق ، ص ٢٣٦ - ٢٣٨

(٢) - راسل المصدر السابق ، ص ٢٥٣.

(٣) - راسل المصدر نفسه ، ص ٢٥٠.

(٤) - راسل المصدر نفسه ، ص ٢٤٥ - ٢٤٩

وأما لحم الغزال في الشتاء أو مواسم الصيد فطيب المذاق ، وشديد الحمرة ، وفي الربيع يصح كثير الدهن ، وتقدم العزلات التي يتم تسميتها في البيوت أحياناً على موائد الإفرنج<sup>(١)</sup>.

وكان المعتاد لدى الفرنسيين، للهوض عن المائدة حالما يتهون من أكل النقل ، لتقدم لهم غلايين التبغ ، أما الإنكليز فيطول جلوسهم في غرفة الطعام أكثر من الفرنسيين إذ تقدم لهم الحمر بعد أن يرفع العطاء عن المائدة ، تقدم كذلك الغلايين والقلبان<sup>(٢)</sup> لمن بهوى منهم للتدخين ، وهكذا يستغرق جلوسهم إلى المائدة ساعة ونصف الساعة وقت الظهيرة. ثم ينصرفون إلى القفولة. أما في المساء فقد يعتد جلوسهم رمزاً أطول، غير أنهم كانوا حريصين كل الحرص على ألا يعرطوا في شراب ، ولا يطيلوا السهر ، مخافة أن يظهر أثر ذلك عليهم في العد ، فيعيقهم عن مراولة أشغالهم ، ويخصص بالتالي من مكانهم عدد أبناء البلاد الذين يتعاملون معهم تجارياً<sup>(٣)</sup>.

أما الشراب فقد كان الإفرنج معيين من الصربية على جلب الخمر من بلادهم ، وينظر أنه لا توجد في بيوتهم الوسائل الخاصة لصناعته ، فإنهم يصنعون نبيدهم عادة في منطقة الجديدة ، والنبيذ الأبيض مستساغ ، إلا أنه رقيق جداً أو سيء ، ومن الصعب الحفاظ عليه في حالة جيدة من سنة إلى أخرى ، وندراً ما يظهر النبيذ الأحمر على موائد الأوروبيين ، وهو داكن اللون لا طعم له وفوي المفعول وثقيل على الرأس ، إذ يسبب هذياناً بدلاً من أن يبعث النعس ، ولا يحتسبه الأوروبيون في بعض الأحيان إلا بعد مرج ثلاث من النبيذ الأبيض إلى ثلاثين من النبيذ الأحمر<sup>(٤)</sup>.

ولم يسل الفرنسيون في معاهدتهم مع السلطنة العثمانية عام ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م خمرهم، إذ يلاحظ في المادة / ٥١ / ما يلي: " إذا أتى القناصل والتراجمة وسواهم من تابعي الحكومة الفرنسية بحجب لمؤنتهم في بيوتهم التي يسكنوها ليصنعوا منه حمراً ، أو إذا أتاهم حمراً لمؤنتهم فيمقتضى إرادة الباب العالي لا يجوز للتسجبة والأغوات وسواهم من عمال السلطنة أن يطلبوا صربية أو حبة لا حين السورود ولا حين النقل<sup>(٥)</sup>.

(١) راسل: المصدر السابق ، ص ٣٢٥ - ٣٢٦.

(٢) القليبان مفردا القليان كلمة فارسية ، وهي عبارة عن وعاء زجاجي يصوي الشكل دي عو طويل منحرف من الداخل ، يركب عليها رأس قصي مؤلف من كوب لتلقي التبغ ، متصل بوعاء بأفبوب مستقيم طويل ، حتى يصل إلى ثلثي القعدة ، ويتلقى من الرأس على شكل قوس وعند الاستعمال يملأ الوعاء بآماء حتى يمر الأنبوب المستقيم. (الانارجيلات)

انظر راسل: المصدر السابق ، ص ١٠٧

(٣) قسطنطين المرجع السابق ، ص ٣٩ - ٤٠ - ٤١

(٤) - راسل: المصدر السابق ، ص ٨٥

(٥) - المعاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع السابق ، قيد / ٥١ /.



أما الشراب المعتاد هو صنف من الخمرة صهباء وبهضاء مرة المذاق من صنع البلاد ، وحمرة كميت حمراء سلسة مصدرها بروفسا (جنوب فرنسا). أما الإنكليز فقد اعتادوا أن يحتسوا الحمر في الصيف ، قبل العشاء والعشاء ، جرعة من البينش<sup>(١)</sup> للمخفف جداً ، وهو شراب معش ، مبرد ، استساعه معظم لأوروبيين الباقين فقلوا الإنكليز في شربه. وقد جاراها في ذلك الكثير من المواطنين المسيحيين ، بل وبعض المسلمين أيضاً ، وقد يقربونه مجرد بالنلج أحياناً ، مع أنهم كلما يستعملون النلج في غير هذه الحالة ، على الرغم من وفرة في الألبان ، ذلك لأنهم يجدون في برودة الحمرة حارجة من القبو ومن الماء معروفاً من الصهرج ، ما يعنى عن النلج<sup>(٢)</sup>. وأكثر ما أعجب الأوروبيين في حلب من المأكولات ، الفواكه يشنى أنواعها ، وكانوا يتناولونها بكثرة ، ولقد أدهشهم استهلاك الأهالي الكبير لها ، حتى أن داريو قدر استهلاك مدينة حلب منها باستهلاك ثلاث مدن بحجمها في أوروبا. وقد أحضر الأوروبيون نبات الفرير من أوروبا وزرعوه على أسطح الحانات<sup>(٣)</sup>.

اللباس: كان الأوروبيون يعيشون أحراراً في منازلهم وحاناتهم ، ويطبقون فيها عاداتهم الاجتماعية الخاصة في معظم الأحوال ، إلا أنهم عند خروجهم وتنقلهم في الطرقات ، كانوا حريصين ما أمكن على أن يبدوا كأهالي البلاد أنفسهم. ولا سيما في ملابسهم والتي يرتدون. وبالعقل فإنهم بصعة عامة كانوا يخرجون وقد ارتكوا قطعاً وجبة مفراة في الشتاء ، على النمط العربي - العثماني ، ويطيلون شواربهم ولحاهم ، فاخيار الأوروبيين للباس الوطني كان احتياطاً لما يمكن أن يصيبهم من أذى ومضايقات الأهالي ، لو تميروا بلباسهم ، وطلباً للراحة في عملهم ، ولا سيما أثناء فصل الصيف الحار<sup>(٤)</sup>.

وهي عام ١١٦٤ هـ / ١٧٥١ م أحد الإنكليز في حلب يلبسون الأرياء الأوروبية ، بعد أن كان فريق منهم يترقب بالري الشرقي الذي كان معروفاً في ذلك العصر<sup>(٥)</sup>.

ويذكر الطبيب الإنكليزي راسل بأن الفاصل والتعدد من الرجال المحترمين كانوا يرتدون ثيابهم الأوروبية ، إلا أن الكثير منهم ، ولا سيما الفرنسيون والإيطاليون ، يرتدون الثياب الشرقية ، ويضعون القبعة والشعر المستعار فقط خلال وجودهم في المدينة ، ويصنعون العمامة حين يسافرون.

وجرت العادة فيما مضى بأن يرتدي جمع الإفرنج ، أو معظمهم الثياب العثمانية ، ويصنعون القبعة بهدف تمييزهم عن باقي السكان. وهي الآونة الأخيرة ، أخذ القسم الأعظم من الإنكليز يرتدي الثياب الإنكليزية ، في حين بقي عدد آخر من الأجانب يتبع العادة القديمة ، عدا القنصل ، والإفرنج الذين يقيمون فترات قصيرة في حلب.

(١) البينش: شراب طوي يد من سواقل مختلفة أو من عصير الفاكهة مع شيء من مشروب روحي

(٢) - راسل المصدر السابق ، ص ٢٥٣

(٣) - الصباغ: للجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٧١١

(٤) - الصباغ: للجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع نفسه ، ص ٧١٥ - ٧١٦.

(٥) - خلال المرجع السابق ، ص ١٠٧

وحوالي سنة ١١٨٤ هـ / ١٧٧٠ م امتثل القليل المشقي من الجالية التجارية الإنكليزية للعادات المتبعة، وبالإضافة إلى بعض الفرنسيين ، فلا يظهرون إلا من حين إلى آخر في ثيابهم الخاصة<sup>(١)</sup> ، ولم يكن ذلك قسراً، بل بحرية وميل<sup>(٢)</sup>.

أما القناصل الفرنسيون كانوا لا يتميرون عن غيرهم إلا باللباس الأوروبي المذوع حتى القرن الثامن عشر ، حيث صدر قرار في ١١٩٣ هـ / ١٧٧٩ م ينص على أن القناصل يجب أن يظهروا أثناء أعمالهم الرسمية وزياراتهم واجتماعاتهم الوطنية لباساً على النمط الفرنسي ، من الجوخ الأزرق الملكي ، المطرر بحسب رتبة القنصل ، مشريط أو مشريط عريضين ، ومذهبين على النمط البورغوني ، ومزين بأزرار من النحاس المذهب ، التي طبع عليها شعار الملك ومعطف قصير من القماش الصوفي الخفيف الأحمر المزين بحياوط الذهب وينطال من نفس اللون ، وقبعة ذات ريش ، وسيف<sup>(٣)</sup>.

وكان القنصل البندقي يرندي قطعاً طويلاً حتى قمميه ، من الساتل الأحمر (صنع في دمشق) وقد طرز بخيوط الذهب ، وأغلق من الأمام بأزرار مذهب ، ثم يحرم من الجوانب بنطاق من المحمل المطرر بخيوط الذهب. وفوق القنصل كان يرندي معطفاً واسعاً مع أكمام عريضة يطلق عليه " اللباس الدوقي " ويغطي رأسه بعمدة دمشقية، تنزل حتى صدغيه، وترتفع وتنتع من الأعلى<sup>(٤)</sup>.

**اللغة:** تكلم الأوروبيون الذين أقاموا في حلب ، كالإنكليز والفرنسيين والبنادقة واليهونديين وبعض رعايا السلطة لأخرين ، اللغة الإيطالية ، وكذلك العاملون في المحارن ، والكتبة وعدد آخر من السكان المحليين الذين يعملون لدى الإفرنج. وتحدث التجار الفرنسيون فيما بينهم ومع العاملين في المحارن ، بلهجة بروفانس. وفي حال وجود أشخاص آخرين ، كانوا يتحدثون الفرنسية أو الإيطالية ، ولم يتعلم اللغة العربية سوى عدد ضئيل من الأوروبيين ، حتى أولئك الذين أمضوا فترة طويلة في البلاد ، فلم يتعلموا أكثر مما يفيدهم في الحديث بالأمور البسيطة وادراً من بذل منهم ، عدا تعلم كتابتها أو قراءتها<sup>(٥)</sup>.

وقد اختيرت اللغة الإيطالية دون غيرها لتكون لغة التفاهم، وحاصة في حلب، لأن الأهالي أنفسهم قد اعتادوا عليها منذ القديم، وتكلمها المشرفون على المحارن وغيرهم من سكان البلاد، الذين تعلموا مع الفرنجة.

(١) - رسائل - المصدر السابق ، ص ٢٥٠.

(٢) - التوبجي المرجع السابق ، ص ٢٢٤.

(٣) - للصانع: للجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٧١٦ - ٧١٧.

(٤) - Berchet. p. ١٢.

(٥) - رسائل المصدر السابق ، ص ٢٥٠.

ولا بد من الإشارة إلى أن المراسلات الرسمية والخاصة بين الجاليات والوطن ، كانت تجري بلغة الدولة الرسمية للوطن الأم. ولقد حاول بعض الأوروبيين الوافدين تعلم اللغة العربية ودراستها في أوقات فراغهم ، إذ أنها اللغة الأساسية لأهل البلاد<sup>(١)</sup>.

وستنتج مع سبق بأقل من الأوروبيين تكبدوا عاء تعلم اللغة العربية ، لأن الوسطاء المسيحيين واليهود العاملين لديهم كانوا يرشدونهم فيما يخص تعقيدات حياة العمل المحلية<sup>(٢)</sup>.

أما ما يتعلق بالحياة الأسرية: فكان معظم أفراد الجاليات الأوروبية غير متزوج ، ويأتون إلى السلطنة العثمانية شباباً صغاراً ، لا تمكنهم أحوالهم من إعالة أسرة ، وكانت سلطات الوطن لا تشجعهم على الزواج ، لأن الروجة والولد يشكلان عبئاً في تلك البقاع ، وخطراً في الظروف التي كانوا يعيشون فيها<sup>(٣)</sup>.

وشذ عن تلك القاعدة بعض أفراد الجاليات الذين تزوجوا من أهالي البلاد ، ومن فتيات روميات بالذات، نتيجة اختلاطهم ببعض الأسر المسيحية ، ويذكر راسل بأنه وجد عدد من الرعايا الفرنسيين من مرتبة أدنى، توجهوا إلى الشرق ، ونتيجة زواجهم من المسيحيات المحليات أصبحوا عرقاً أو سلاً فرنسياً حليطاً يسمى " Mezza Razza ". وأسفر ذلك عن حدوث مشكلات عديدة ، نتيجة اضطراب القنصل إلى توفير الحماية لأشخاص كانوا يدخلون غالباً في أعمال وتراعات مع العثمانيين ، مما أدى إلى صدور فرمان ملكي منذ عدة سنوات ، استدعى بموجبه جميع الرعايا المتزوجين من معظم رعايا جلالته (ملك فرنسا) من الفرنسيين من الشرق وحول القنصائل سلطة إعادة الرعايا الذين قد يتزوجون مستقبلاً دون الحصول على إذن خاص من السفير في استانبول، إلى فرنسا على الفور مهما كانت مرتبتهم ، ونتيجة لذلك فأن بعض عدد الأشخاص الذين يطلبون الحماية ، وبقيت في حلب عائلات عديدة يقوم الأوروبيون برعاية بعضها<sup>(٤)</sup>.

وفي سنة ١١٢١ هـ / ١٧٠٩ م دعت شكوى غرفة للتجارة الملحة ، للوزير بونشار تران إلى الاهتمام بالقضية ، فأرسل إلى حاكم البيروغنس ، يطلب منه الأمر التالي: " بمنع صاحب الجلالة جميع الشبان من الأسر الفرنسية المقيمين في الإسكندرية للتزوج من فتيات سكان البلاد دون موافقة آبائهم وأمهاتهم، وتحت طائلة العقوبات ، وإعادتهم إلى فرنسا. أما الفرنسيون الذين حملوا زوجاتهم وأولادهم إلى الإسكندرية، فيجب أن يرسلوا أولادهم إلى فرنسا وبخاصة من كان عمره بين عشرة والحامسة والعشرين ".

وبقيت المشكلة تنثر بحساسيتها ودقتها أذهان المسؤولين في فرنسا. ففي عام ١١٢٩ هـ / ١٧١٦ م، طلب مجلس البحرية رأي العرف بشأن زواج الفرنسيين بروميات، فأجابته العرف بضرورة منعه موصحة

(١) - الصياح الجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٧٣٠.

(٢) - مارغوس المصدر السابق ، ص ٥٨.

(٣) - الصياح الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٦٧١.

(٤) - راسل - المصدر السابق ، ص ٢٥١ - ٢٥٢.

لأسباب "فبدلاً من ارتباط الفرنسيين في الإسكالات بسكان البلاد ، وانصرافهم عن العودة إلى الوطن، فإنهم في حالة عدم الزواج ، ميعودون حتماً إليه ، بعد حصولهم على ثروات شريفة، ويتزوجون من فتيات من الوطن، ويتمتعون بثرواتهم التي جمعوها، وبذلك يزدون من ثروة بلادهم، ويسعون المجال للعناصر الشابة، التي ابتدأت حياتها محدداً أن تحل محلهم، وتحصل على ثروة مماثلة، وبذلك يستفيد أكبر عدد ممكن<sup>(١)</sup>.

وفي عام ١١٢٢ هـ / ١٧١٠ م كلف الوزير بونشار تران حاكم الدروفنس أن يدرس مع غرفة التجارة ويعمق ما إذا كان من الملائم التصريح للمقيمين في الإسكالات أن تكون معهم نسائهم وأطفالهم ، وقد أجابت الغرفة سلباً. ومع ذلك ففي سنة ١١٢٩ هـ / ١٧١٦ م بحث مجلس البحرية الحالة الشاذة التي يعيشها تجار الإسكالات دون زوجات، ورأى أن الوسيلة الوحيدة لتحسين أحوالهم وصيبت أهواتهم، هو إصدار أمر في ١٧ آذار ١٧١٦ م /، الذي يسمح للنساء والبنات بالانطلاق للعيش مع أزواجهن وأبنائهن<sup>(٢)</sup>. وصدر الأمر الملكي في ١١ آب ١٧١٦ م والذي نص على ما يلي.

- ١- يحرم من حق التجارة في فرنسا، الفرنسيون الذين تزوجوا في الشرق من أجنبيات، وكذلك أولادهم.
- ٢- لا يسمح للمقيمين الفرنسيين في الإسكالات الزواج من أهالي البلاد، وإن تم هذا فإنهم يحرمون من حقوقهم.

٣- لا يمكن للمقيمين في الإسكالات أن يتقوا فيها نهائياً ، بل يجب أن تتجدد الجالية دون انقطاع.

٤- يسمح لهؤلاء المقيمين بالبقاء للمدة التي يجمعون فيها ثروة فقط.

وفي عام ١١٤٤ هـ / ١٧٣١ م وصل إلى السلطات المسؤولة ، أن بعض المقيمين في الإسكالات يرغبون بالإقامة نهائياً حيث هم، فصدر أمر بوجوب إجبارهم على العودة بعد انقضاء السنوات العشر التي سمح لهم بها منذ البدء.

ويبدو أن الترتيبات قد أملت في القرن الثامن عشر ، فعاد الإنكليز والفرنسيون إلى الزواج بحرية من الروميات اللاتي حافظن على عاداتهن الوطنية وأبنائهن إلا أن أولادهم من الإنكليز كانوا يرسلون إلى إنكلترا ليتربوا فيها وهو نص ما كانت فرنسا قد طلبته في أمر بونشار تران، عام ١١٢١ هـ / ١٧٠٩ م<sup>(٣)</sup>.

فسعت فرنسا من خلال معاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م إلى حماية الفرنسيين الساكنين في السلطنة سواء كانوا متزوجين أو أعزياً لا يجبرون على دفع الضريبة المعروفة بالحراج<sup>(٤)</sup>.

(١) - الصياغ الجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٦٧٣ - ٦٧٤.

(٢) - Masson p: ٤٦١.

(٣) - الصياغ الجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٦٧٥.

(٤) - للمعاهدة ١٧٤٠ م - المرجع السابق ، المبدأ ٦٧.

أما بروس مسترز فله رأي آخر وهو أن الأوروبيين كالإنكليز والهلنديين ، اتبعوا قاعدة ثالثة أملت عليهم عدم الرواح بالمرأة محلية ، وقلة كانوا قد استقموا روحانهم من أوطانهم الأم<sup>(١)</sup>.

إن ما ذكر سابقاً يخص الإنكليز والفرنسيين أكثر من غيرهم، إذ إن اللبائقة سمح لهم بإحصار أسرهم معهم، ويظهر أن حياة السائقة في حلب كانت أكثر انسجاماً مع حياة أهل البلاد، فحكم وجودهم القديم في سوريا، كانوا أكثر تكيفاً من غيرهم من الجاليات، بل إن بعضهم تزوج بحرية مع السكان، وأسفر لعدة طويلة، وأقام في بيوت واسعة، وعاش فيها حياة تشبه حياة السكان أنفسهم، أكثر مما تشبه حياة الأوروبيين<sup>(٢)</sup>.

**الأمراض:** يتعرض الأوروبيون حال وصولهم إلى حلب للإصابة بحمى لتعق على تسميتها (أوكا) أو (الإوزة) ويصاب المرء بهذا المرض مرة واحدة ، ولعل الإنكليز أكثر إصابة به من الإيطاليين ، وتصاب المرء عند الإصابة به أعراض أهمها حمى التهابية. كما يتعرض جميع الحلبيين فضلاً عن الأوروبيين والأجانب الآخرين الذين أقاموا فترة طويلة من الزمن في هذه المدينة ، إلى نوع من الطفح الجلدي يسميه الحلبيون (حبة السنة) ويطلق عليها الأوروبيون والمسلمون (آفة حلب أو حبة حلب)<sup>(٣)</sup>.

كما تعرضت حلب في القرن الثامن عشر لسلسلة من جائحات الطاعون (مرض الطاعون) ، فسلك الأوروبيون سلوك وقائي هم وكل المستخدمين الذين لهم صلات حميمة معهم ، وريائن لهم بالتجارة أو إخوانهم بالدين ، إذ كان الأوروبيون بصورة روتينية وبطريقة متددة يحجرون على أنفسهم في محمياتهم خلال أوقات الطاعون، فأتخذ الأوروبيون إجراءات منظمة للتحكم بملامسة الصانع الناس القادمين من مناطق ملوثة ، وقم أوقفوا التعاملات التجارية والشحنات حتى إصدار الأطباء شهادات صحية بطفة.

وكان الأوروبيون يقصدون تشجيع الإجراءات الرسمية للحجز ، ولكن دون نجاح ، ففي عام ١٢٠١ هـ / ١٧٨٦ م عندما تفشى الطاعون في ولاية حلب ، طلبوا من القاصي والحاكم المؤقت منع دخول قافلة إلى المدينة (حلب) وصلت من منطقة ملوثة بالمرض. فصدر أمر بهذا الموصوع ، ولكن بخياب أي إلزام حقيقي، كثير من المسافرين تجاهلوه<sup>(٤)</sup>.

إلا أن الأوروبيين نادراً ما كانوا يصابون بالوباء الذي يجتاح المدينة ، وذلك لأسباب منها ، أنهم كانوا أفضل تغذية من مجموع السكان ، كما أنهم لا يتناولون الخصار الفجة (دون طبخ) ، والعواكه عسيرة الهضم، هذا بالإضافة إلى معيشتهم في الطابق العلوي إذ كان يجعل بيوتهم أفضل تهوية من البيوت العادية ، حيث

(١) - بروس المرجع السابق ، ص ١٤٧

(٢) - الصباح جاليات الأوروبية ، ج ٦ ، المرجع السابق ، ص ٦٧٨ - ٦٧٩.

(٣) - راسل المصدر السابق ، ص ٢٨٧.

(٤) - ماركوس: المصدر السابق ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠.

الهواء رطب ، نتيجة التبخر الحاصل من البلاط الحجري ، الذي رصفت به تلك البيوت ، والذي كانوا يقومون يومياً غسله بالماء. إلا أن أهم سبب كان بعد عهم اللباء ، هو عدم اتصالهم بالأهالي ، واحتكاكهم المباشر معهم<sup>(١)</sup>.

### ج. علاقات الجاليات الأوروبية فيما بينها:

عاش الأوروبيون بصورة عامة مع بعضهم البعض في انسجام ، وتبادلوا الزيارات ، وأقاموا حفلات لعب الورق ، وحفلات موسيقية أسبوعية. وفي بعض الأحيان أقاموا حفلات تنكرية في عيد الكرنفال. ولم تؤثر المنافسة التجارية ، أو الانشقاقات الوطنية في أوروبا على العلاقات الاجتماعية بين الجاليات في ولاية حلب.

وفي أوقات السلم ، كان البريد المرمّل إلى إستانبول أو إلى جهات أخرى بواسطة المراسلين ، فضلاً عن بريد السفن المتجهة إلى أوروبا ، يورع على جميع الأوروبيين عن طريق الجاويش المعني.

وكانت فتاح للإبكلير فرصة إرسال مراسلين إلى إستانبول، الأمر الذي كان يتيح الفرصة للفرنسيين الكتابة إلى الوطن الأم. وفي مقابل ذلك ، كانت فتاح لهم فرصة رد الجميل للإبكلير عن طريق النقل بالسفن إلى مرسيليا.

وفي أوقات الحرب ، كان البريد من هذا النوع يتوقف ، بالإضافة إلى الحفلات العامة بين القناصل ، غير أن العلاقة الخاصة التي تكون قد نشأت بالمصانعة بين أشخاص يعيشون في بلد بعيد ، تكون الرغبة الشخصية حافزاً لإنشاء علاقات من الصداقة فيما بينهم ، تبقى مقدسة. إذ يستمر الأفراد في تبادل الزيارات ، ويتجنبون الخوض في الأمور السياسية أثناء أحاديثهم.

يصف أحد المشرّين الزيارات الرسمية التي يقوم بها الأوروبيون في الاحتفالات السنوية قائلاً لمراسليه " إنه يجب أن لا تتأخر الدهشة عندما يشاهد الدمامة المتبادلة بين الأشخاص الوافدين من بلدان مختلفة ، وذلك لأن الفرنسيين والإنكليز والهولنديين والإيطاليين يحدون أنفسهم منتمين إلى بلد واحد ، فقد كان المسكن المحليون يعدونهم كذلك ، وكانوا يطلقون عليهم اسم الإفرنج دون تمييز<sup>(٢)</sup>.

وكانت الجاليات الأوروبية في حلب على اختلاف جنسياتها تعيش مع بعضها في وئام وسلام بالرغم من اختلاف مصالحها التجارية ، وكانوا يجتمعون بين العزّة والأحرى<sup>(٣)</sup> ملاحظاً أنه في حالة شوب الحروب

(١) الصباغ: الجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٧٢٢.

(٢) - رسائل المصدر السابق ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٣) - حجاز: قصائد حبشية ، المرجع السابق ، ص ٩٤.

بين الدول الأوروبية ، تنقطع تلك الريارات الرسمية بين قناصل الدول المتحاربة ، أما علاقات الصداقة فلا تؤثر عليها حالة الحرب ، لأنها وليدة حب وتاخ حاكمت حياتها يد الفقر التي ألقت بهم في البلاد النائية ، فتراهم لا يدللون أي شيء من العادات التي ألفوها ، غير أنهم ، برضى متبادل ، دون أن يسي أي فريق ووجه نحو وطنه ، وفيما هم يحنون إلى اليوم الذي تعود فيه مياه السلم إلى مجاريها ، يتركسون السياسة جانباً في أحاديثهم ، محافة أن يصدر منهم ما يخل بأداب الاجتماع وحقوق الصداقة ، على أن للتآلف بين هؤلاء المغتربين توقف بطبيعته على ما في أهرادهم من استعتراد فطري له ، ومن ثم كان عريضة للتبدل والتحول بتبدل أولئك الأفراد عند تعاقب السنين. ولدينا خير مثال على ذلك ، قنصل فرنسا في حلب الميسيو توماس (M. Thomas) الذي تولى القنصلية الفرنسية في حلب رهاء عشرين عاماً ، بعد أن كان سكرتيراً للسفارة الفرنسية في إسطنبول ، ثم قنصلاً في ألجة (عاصمة الجزائر) وسلايك. فقد تمكن هذا الرجل بما فطر عليه من لطف ودمامة خلق وحفة روح ، وما حصه الله تعالى به من دكاء وفهم ، تعررها تربية حرة وثقافة عالية ، أن تجمع حوله قلوب جميع الأوروبيين على اختلاف أوطانهم. حتى غدت درة محباً لهم ، وجامعاً لشملهم ومجلس أنسهم ، يحلون فيها على الرحب والسعة ، بين أنس ذلك الرجل القاصل ، وحنان قريته الرؤوب ، ولطف استهما جدلية المجلس ، رشقة الأقوام ، وهي التي عرفها الكثيرون مند كانت طفلة ، قصية ، فكاحباً ، والتي استطاعت بمرحها ولطف معشرها أن تنتشر بين أولئك المغتربين جواً من الغنطة والنشاط ، قلما عرفوا له مثيلاً فيما غيرها من السنين<sup>(١)</sup>.

وكان التجار الأوروبيون يستضيفون بعضهم بعضاً معتمدين على الوصول النادر من الوطن لشحنات الذهب والحرير ولحم الخنزير ، فقد عمد أحد التجار الإنكليز إلى كتابة رسالة بعث بها إلى وطنه عام ١١٣٨ هـ / ١٧٢٥ م ، يقول فيها إنه بالرغم من تقديره العميق لشحة لحم الخنزير المملح والمقعد والشاي وعصير التفاح والبيرة التي وصلت أخيراً ، إلا أنه يستقد الزبدة واللبن.

أما المل والصجر فكانا يشكلان مشكلة بعد ذاتها ، إذ كان على الأوروبيين الانتظار طويلاً بين وصول قافلة وأخرى ، خصوصاً أن القوافل لم تكن تلتزم بجدول زمني معينة. فساعد إنتاج المسرحيات وإقامة جلسات القراءة المفتوحة التي شارك فيها الأوروبيون ، من كل الدول ، ليس فقط على عدم الشعور بمرور الوقت ، بل والإفادة من هذا الوقت. ولذلك نجد مجلات للطلبات قدمه تاجر إنكليزي في حلب ، عام ١١٦٦ هـ / ١٢٥٢ م احتوت على عناوين مثل مسرحيات شكسبير ، وتاريخ امرأة راقية ، ومذكرات فتاة هوى ، وحكايات بوكاشيو<sup>(٢)</sup>.

(١) قسطنطين: المرجع السابق ، ص ٤٥ - ٤٦ - ٤٧.

(٢) - يروس: المرجع السابق ، ص ١٤٨ - ١٤٩.

## التنافس التجاري بين الجاليات الأوروبية:

كانت تحارة حلب متطورة جداً ، إلى درجة تعظم مكانة للقناصل وممثلاتهم بدرجة السفراء في إسطنبول تقريباً ، وكانوا يعيشون حياة رغد كالمملوك ، وقد ساد التنافس الفردي والقومي والحكومي ، والعبارة في كل مكان وإرمان ، ولم تشكل حلب والقناصل وأفراد الجاليات الأوروبيون استثناء في عدم الإصانة بهذه الآفات الاجتماعية ، وكانت حلب في القرن السادس عشر والقرون التي تلت مدينة واسعة ونشطة التجارة ، وتكثر فيها الأرباح لدرجة تنافس أبناء الجاليات الأوروبية فيما بينهم بذلك بالجوء إلى طرق مشروعة وغير مشروعة لتحقيق مصالحهم والضرر بمنافسيهم ، ولكن مع الاحتفاظ بالمظاهر الخارجية المبدية على الاحترام<sup>(١)</sup>.

وكان هذا التنافس بين جاليات الدول الأوروبية وقناصلها في مناسبات عدة ، وكان يتجلى في حياة كل جالية بحرص أفرادها على تعقب أخبار الجاليات الأخرى الصغيرة منها والكبيرة على السواء ، وفي مراقبة تجارتها وعلاقاتها مع العثمانيين ، وفي استغلال شتى المناسبات للحدس عليها والإساءة لها لدى الأهالي والسلطات الحكمة ، وفي تشجيعها وشماستها بها عندما تتربى بها الحسانر والكوارث. ولم تكن الاحتكاكات بين تجار الجاليات المختلفة بنفس القوة في جميع الإسكالات ، فقد كانت شديدة في حلب مثلاً لوجود مختلف الجاليات بقوة تجارية مقارنة ، بينما كانت ضعيفة في الإسكالات الأخرى ، إن لم تكن معدومة<sup>(٢)</sup>.

ولكن هذا التنافس في ولاية حلب بين الجاليات برول وتختفي الأحقاد ، ولو بشكل مؤقت أثناء المحر التي تتعرض لها ، ففي أثناء الحملة الفرنسية على مصر عام ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م والتي كان لها عواقب وخيمة على التجار الفرنسيين الذين كانوا يقطنون في السطة العثمانية ، ويتمتعون بالحريات والامتيازات الواسعة ، حيث كانت بيوت هؤلاء الفرنسيين محترمة ومحصنة من كل أذى ، تم الاستيلاء عليها ونهبها أثناء الحملة الفرنسية ، وبينما كان أفراد الجالية الفرنسية في حلب يعيشون حياة حرة وكرامة ، فقد تم القبض عليهم وجرهم إلى السجون. فهؤلاء الذين كانوا يتمتعون بجمع نعم الحياة ، يشعرون الآن بألم الجوع والفقر<sup>(٣)</sup>.

فلم يغيب أفراد الجاليات الأوروبية الأخرى مكتوفي الأيدي متخرجين على ألباء جلدتهم ، يعانون من عذابات السجون ألوس شتى ، صارعوا إلى مد العون للفرنسيين من خلال إرسال الطعام وفرش للنوم ، ولولا هذه المساعدات ، لكان الجوع سيقتضي على المعتقلين. ولم يكتف الأوروبيون بذلك ، بل أعلم جميع قناصل المدينة ومنهم البريطاني سفراءهم عما يجري في حلب للفرنسيين ، لاتخاذ ما يلزم ، لأن هذا العيب على حبيب

(١) - سورمبار: المرجع السابق ، ص ٢٧٥.

(٢) - الصباغ: الجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٧٢٨.

(٣) - سورمبار: المرجع السابق ، ص ٦٢٤.



الفرنسيين سيقع على الأوروبيين الآخرين أيضاً ، كما طلب القناصل من سفرائهم الإسراع في معالجة هذه الأوضاع<sup>(١)</sup>.

هذا عن علاقات الجاليات الأوروبية فيما بينها ، أما العلاقات فيما بين أفراد الجالية نفسها ، والفرنسيون كانوا يعيشون حياة أكثر ألفة وانسجاماً ، يرورون بعضهم بعضاً ويحيون الولائم ، ولا شيء يعكس صغور حياتهم من تجارة أو انقطاع العلاقات بين الدول الأوروبية. وفي أوقات السلم كان الجوايش يعلم الفرنسيين عن إبحار السفن إلى أوروبا أو وصول بعض الأوراق الرسمية إلى إسطنبول<sup>(٢)</sup>.

أما بالنسبة لأفراد الجاليات البندقية والإنكليزية، فإن الرابطة بينهم أقوى ، وذلك لارتباطهم بعنصر رئيسي ، وهو القنصل في حلب ، ولحسوعهم لهينة واصحة السلطات في الوطن ، إلا أن تلك العلاقة هي علاقة تجارية أكثر منها علاقة صداقة وود. وكانت تقوم بينهم مراسلات ، يستوضحون فيها أحوال التجارة وأوضاع البلاد<sup>(٣)</sup>.

أما بالنسبة للقنصلية الهولندية فكانت هناك خلافات بين أعضاء الجالية ، ومرذها إلى الحسد الذي تسببه الأعمال بفكك النزاع بين القنصل والتجار الذين يرفضون دفع رسوم القنصلية ، فلم تكن نادرة. كما يذكر القنصل الهولندي كورنوليس بلو وحلفاؤه.

وفي حالات أخرى كان أعضاء الجالية الهولندية ، ينتهزون الفرصة في الريف بجوار حلب ، أو الذهاب إلى الصيد ، أو حضور المآدب مع المقيمين الأوروبيين الآخرين<sup>(٤)</sup>.

#### د - علاقات الجاليات الأوروبية مع الإدارة الرسمية العثمانية في ولاية حلب:

كان يمثل قمة هرم السلطة في ولاية حلب موظفان عثمانيان هما الباشا والقاضي. وفيما بينهما كانا ينفذان الوظائف الرئيسية في الولاية ، وكانا كلاهما غرباء ليسا حليبيين ، ولم بحق للسكان التعليق على تعيينهما ، فهما يشتريان منصبيهما مقابل مبالغ كبيرة. وغالباً ما يشعلان منصبيهما لمدة سنة واحدة فقط ، بعد ذلك يكلفان بمنطقة أخرى ، وكانت سلطتهما الإقليمية تمتد إلى خارج حلب ، حيث يرأسان الإدارة الإقليمية التي تشمل نفسها بالمدينة ، وكذلك بالمستوطنات العديدة والتجمعات القبلية حولها.

(١) - سورماييس للمرجع السابق ، ص ٦١٩.

(٢) - سورماييس المرجع نفسه ، ص ٣٧٠.

(٣) - للصبيغ. الجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٦٨٧ - ٦٨٩.

(٤) - للمدرس. المرجع السابق ، ص ٥٧.

كان الحكام الذين يترأسون الإدارة في ولاية حلب ، يشرفون على المحافظة على النظم ، وجمع الضرائب ، وكانوا يتبعون أعينهم على المناخ الموسمي والاقتصادي، ويتدخلون في الأزمات التي كانت تهدد النظام العام ، كما يحافظون على اتصالاتهم بمن هم أعلى منهم في إسطنبول<sup>(١)</sup>.

كانت ولاية حلب قريبة من مركز السلطة ، ومهمة من الناحية الاستراتيجية لأنها تسيطر على الطريق إلى جميع الولايات العثمانية الآسيوية والإفريقية ، وقد جرت العادة على أن تحكم ، حتى القرن التاسع عشر ، من جانب ولاية مرسلين من إسطنبول ، كما أن المتمسك هو المسؤول الذي يمثل الوالي في حال غيابه ، وهو طرف متكرر الحدوث في القرن الثامن عشر ، عندما يجرح الوالي إلى الحرب ، أو عندما يحدث تغيير لشاغل المنصب<sup>(٢)</sup>.

وبالنسبة للاحتيازات الممنوحة من الباب العالي لجميع الجاليات الأوروبية في ولاية حلب (التي كانت متشابهة تقريباً) من حيث المضمون. إذ نصت هذه الامتيازات ، بأن تقوم الحكومة ببسط حمايتها على جميع شعوب الإقليم بشكل متساوٍ ، وتتمتع بعدد كبير من المزايا ، إذ تعد القنصليات بمثابة أماكن محرمة ، بل لا يمكن لأي مسؤول عن العدالة دخول بيوت التجار بنون إذن ، وتقرص الرسوم على السلع باعتدال. وبحق لهم رفض أهلية المحكمة في جميع الدعاوى المرفوعة إليها ، إذا كانت للفرامة كبيرة ، ويرفعون الأمر إلى إسطنبول<sup>(٣)</sup>.

زيارة القنصل للباشا: كان الباشا والقاضي والمحصل يرحبون مقابلة رسمية معصلة لكل قنصل ، ولا يرد هذه الزيارة إلا للمحصل. وفي هذه المناسبات يخرج للقنصل وبرفقته التجار الموجودون تحت حمايته ، فصلاً عن جميع التراجمه التخرييب. ويجري استقباله في السراي بحفلة كبيرة. وبعد دخول القنصل بقليل إلى غرفة المغابلة ، يدخل الباشا وإلى جانبه ضابطان ، ويتجه مباشرة إلى مكانه على الأريكة ، دون أن يطر إلى الآخرين ، ولا يجلس القنصل إلا بعد أن يجلس الباشا ، ويكون قد أحضر له كرسيّاً رسمياً من بيته. ويقف اثنان من الضباط الرئيسيين بالقرب من الباشا ، ويقف رجال الجالية وراء كرسي القنصل ، ويدعون في بعض الأحيان وليس دائماً ، للجلوس على الأريكة. وما أن يجلس الباشا حتى يبدأ الترحيب بالقنصل ، بعبارة مهذبة ورقيقة للعبارة ، ثم يطرح أسئلة روتينية. ويرد عليه القنصل بتقديم الإطراءات ، ويمتدح شعبه بسبب تقديم جلالة الحماية لهم. كما تقدم للقنصل الحلويات والقهوة والتبغ والشراب والعطر على نحو متعاقب ، وفي الوقت نفسه يقوم خدم آخرون بتقديمها جميعها إلى الباشا ، وتنتهي الربع ساعة المخصصة عادة لهذا اللقاء ، ليأمر الباشا بوضع فرو واقوم على القنصل. وتقدم للأشخاص المرافقين له بعض المرطبات

(١) - ماركوس: المصدر السابق ، ص ٩٠.

(٢) - ماندراس: المرجع السابق ، ص ٥٦٦ - ٥٦٧.

(٣) - راسل: المصدر السابق ، ص ٢٥٧.

عدا التبغ. وعند وضع العرو على القنصل ، يتلقى كل منهم متديلاً من الشاش ، يقدمه الخادم بطريقة تثير دهشة الضيف ، لأنه حسب العادات الشرقية ، يتم حمل المتديّل في الصدر وليس في الجيب ، لذلك عندما يقدم الخدم المتديّل ، يرمونه بطريقة مفضة نوعاً ما داخل صدر المعطف ، دون اعتبار للاختلاف في اللباس الشرقي عن الغربي. وهذا يقدم جميع التراجمة هروص اطاعة للباشا ، بالجثو أمامه وتقبيل كم ثوبه. ويقب المتزجمان الوثيقتان بالقرب من كرسي القنصل ، والأول منهما يفهم بعملية الترجمة.

وعندما يستجيب الباشا لأي طلب ، أو عندما يكرر أي إطرأ فيه ومعالجة للقنصل ، يجثو التزجمان ، ويقبل حاشية ثوب الباشا ، وكبوع من الاستحسان تقدم للتزجمان الأول عيافة ، وللآخرين مناديل فقط<sup>(١)</sup>.

زيارة القنصل للقاضي: في أثناء لقاء القاضي الذي يجلس فوق عرش مرتفع ، مكور من وسائد الوحدة فوق الأخرى كي تكون أعلى من كرسي القنصل ، وهو تعبير متعالٍ حصص بهذه المناسبة ، لأنه في الأوقات الأخرى ، يجلس القاضي على الأريكة كما يفعل الأعيان الآخرون. ومن خلال اللقاء بأكمله ، يتسم سلوكه برسمية أكثر من سلوكية الباشا ، وتقدم القهوة والمرطبات الأخرى للقنصل فقط.

زيارة القنصل للمحصل: أما للمقابلة مع المحصل (المتسلم) تكون أطول هذه المقابلات ، وأكثرها بساطة ، ودون أي تكليف يجلس الجميع إلى الأريكة ، وتقدم لهم المرطبات بأنسب ، وعند انتهاء اللقاء يتلقى القنصل هدية تكون عبارة عن حصان ، وتقدم لحاشيته المتديّل.

وبعد كل مقابلة ترسل صرة (بقجة) إلى القنصل تحوي على قرطاق<sup>(٢)</sup> صيفي ، وشحاشير<sup>(٣)</sup> ، وقمصين وسروال من الشاش الحرير ، ومتديّل ورباط للسروال مطرز بشكل جميل ، وتوصف هذه الهبات بشكل أدق في قطعة مربعة الشكل من الحرير الأحمر بشكل بقجة.

ورداً على هذه الزيارة يقوم المحصل بزيارة لقنصل ، ويتم استقباله بهخامة زائدة في دار القنصلية. وعند انتهاء الزيارة تقدم له من بين أشياء كثيرة عدة أثواب من القماش ، وساعة حائط إنكليزية ، ترسلها الشركة الشرقية سموياً.

زيارة السردار للقنصل: يقوم السردار<sup>(٤)</sup> بزيارة القنصل مرة في السنة ، وهي بعض الأحيان يقوم بزيارته أعيان آخرون. ويؤوب عنه تراجمه يرد ريارتهم جميعهم. ويرسل في العيدين (الفطر والأصحي)

(١) قسطنطين. المرجع السابق ، ص ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٠.

(٢) قرطاق كلمة فارسية تعني الثوب الذي يلبس فوق القياب ، يعرف بالقميص ، وهو قميص غير مطبوع ، يصنع من نسيج قماشي. فنظر ، راسل المصدر السابق ، ص ٩٥.

(٣) - شحاشير: نوع من السراويل ، يصنع من قماش أحمر ، ويطلق عليه أهل حلب أحياناً اسم الجفتان انظر ، راسل المصدر السابق ، ص ٩٥.

(٤) السردار السر من العازمة بمعنى الرأس ، ودار بمعنى صاحب ، والسردار القنصل والحيطة أمين سر ، وهو منصب كبير في نظام الحكم العثماني.

رسائل يقدم فيها التهنئة إلى أفراد ديوان المدينة وكبار الأعيان الآخرين ، وتخصها هدايا من الشربات والخلويات. وترسل هدايا أكثر قيمة لعدد محدود من المسؤولين<sup>(١)</sup>.

وعلى الرغم من أن هذه المقابلات الرسمية والخاصة تكلف الجاليات الأوروبية مالا كثيرا ، حيث كانت الحكومات الأوروبية وسفراءها وقناصلها ونجارها يقدمون الهدايا والرشاوى إلى كبار رجال الدولة سواء كانوا في إسطنبول أو في الولايات العربية ، لتعبد بصوص المعاهدات<sup>(٢)</sup>. عدا عن أنها كانت مجال دعاية للجاليات بين أهل البلاد ، للذين كانت تدهشهم أبهة تلك الموكب وفخامتها وفي القرن الثامن عشر ، عدا الباشوات أكثر ترفاً ، ولشد طمعاً ، فلم يعودوا يكتفون بالهدايا المعتادة ، وإنما شرعوا ولأقل أمر بطلب ساعات ذهبية وطبائس من (العولان) وأقمشة حريرية مدهنة. فمثلاً فتصل فرنسا في حلب قدم تقريراً عام ١٢١٢ هـ / ١٧٩٦ م عند هبة الهدايا المقدمة إلى السلطات الحاكمة في حلب على مدى عام ، وقيمة تلك الهدايا. وهذه صورة عنها: هدايا لموظفي الولاية في رمضان والأعياد بقيمة / ١٠٥ قرش / ، أقمشة وساتان وخلويات عدد وصول الباشا (وهذا يمكن أن يتكرر عدة مرات في السنة) / ٣٥٠ قرش / ، هدايا مقابل معطف العرو الذي يهديه الباشا للقتل / ٣٥٠ قرش / ، هدايا مقابل مختلف الملابس التي أهداه الباشا للقتل / ١٢٠ قرش / ، هدايا عند وصول قاضي / ١٠٠ قرش / ، هدايا عند تعيين المحصل / ١٣٠ قرش / ، ساعة للمحصل عند ريارته للقتل / ٥٠ قرش / ، أقمشة مقابل الحصار المقدم من المحصل / ٢٠٠ قرش / ، هدايا للسردار والكيخيا وبقية الأشراف عند تعيينهم / ٥٠٠ قرش / ، خلويات وسكاكر لمختلف الموظفين في رمضان والأعياد / ٤٨٠ قرش / ، مشروبات وخلويات وسكاكر في الاسكندرية / ٥٠٠ قرش / . وبالتالي يكون مجموع ثمن الهدايا / ٢٩٣٥ قرش / .

وكان القناصل الأوروبيون يرون في الهدايا وسيلة لتكليل الصعوبات ، وتبسيط المفاوضات. ومن ثم استمرت لتؤدي دورها في تعدية الصداقة وحسن التفاهم بين المقيمين الأوروبيين وحكام ولاية حلب<sup>(٣)</sup>.

رغم أن وضع الإفرنج كان مريحاً عندما تسير الأمور بصورة طبيعية. لكن في أحيان أخرى كانت تسبب برودة أحد الباشوات مشكلات كثيرة ، سواء بالتهرب من تطبيق أحد بعود الامتيازات ، أو بانتهاك الامتيازات نفسها التي ترسخت نتيجة العادات في حلب لمدة طويلة. إلا أنه يمكن الملاحظة أن محاولات من هذا القبيل نكمت في أغلب الأحيان على للتراجمة المنصويين تحت الحماية ، أو للتراجمة الفخريين ، أكثر من الإفرنج أنفسهم. وبصطر الفصل عدداً للتفاهم عنهم. وعندما لا يمكن تسوية الأمر بشكل ودي ، فلا يبقى أمامه سوى اللجوء إلى إسطنبول. وإذا كان الأمر يتنطق بأمر عام ، عندها تصبح القضية عامة ، ويرفع

(١) راجع المصدر السابق ، ص ٢٥٨ .

(٢) - الشاوي. المرجع السابق ، ص ٧٢٨ .

(٣) - الصياح الجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٧٤٨ - ٧٤٩ .

قناصل عديدون طلبات إلى سفرائهم في وقت واحد. وعندما تستمر الخلافات من هذا النوع ، فلا تكون مرعجة للإفراج بقدر ما تكون (وفي معظم الحالات) للوأي ، لأنه رغم عدم تمكن السفير من الحصول على تفويض فوري بعد بدله جهوداً كبيرة ، فإن موضوع شكواه يبقى ماثلاً في دلكرة الباب العالي. إن عاجلاً أم آجلاً ، وحلال التعيرات السياسية التي ستحدث مستقبلاً ، يجد الوالي أن مناصبه يستعملون هذا الأمر لإثارة المشكلات ضده. ولهذا السبب يفضل معظم الولاة العيش بصورة ودية مع القناصل الذين يتجنبون بدورهم الاهتمام بالشؤون العامة التي لا تعيهم أبداً<sup>(١)</sup>.

وكما نتج بعض المشكلات والخلافات بين بعض المحصلين في حلب وبين بعض التجار الإفراج حول أمور تجارية ، مما يدل على وجود علاقات واسعة بين أصحاب السلطة في ولاية حلب مع تجار الجاليات الأوروبية. ففي طلب قدم من المقيم العام للملة المسيحية الفرنسية (قوته دي شورل غوفيه) بإستانبول ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٩ م عرص على الباب العالي جاء فيه أن أبخ محصل حلب السابق عبد الرحيم سيف زادة ، والساكن في إستانبول المدعو مصطفى آغا كان قد اقترض عام ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٥ م عشرة آلاف قرش من الفرنسي (ماركيل) المقيم في إستانبول، الذي أهد وعداً قاطعاً بتسديد هذا الدين بدلاً من ابن أخيه حلال / ٢١ / يوم في حلب ، إلى وكيله للمقيم في حلب المدعو (بلانسي). إلا أنه لم يتم تسديد المبلغ بالكامل بد سند / ١٢٠٠ قرش / من الدين وبقي / ٨٨٠٠ قرش / ، أحد بمطل في دفعها. لذلك صدر فرمان سلطاني يأمر بتحصيل المبلغ المتبقي وتسديده لصاحبه بالكامل<sup>(٢)</sup>.

وفي وثيقة أخرى ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٩ م يرفع قاضي حلب كتاباً إلى الباب العالي بخصوص الدين الذي يطالب به التاجر الفرنسي (بيص) من محصل حلب السابق المتوفى الحاج يونس آغا ، (٥٠٠ قرش) لذلك يرجو التاجر المذكور نأديته للدين من محلفات المحصل المتوفى للمستدين<sup>(٣)</sup>.

### هـ العلاقات بين الجاليات الأوروبية والقوى الاجتماعية المحلية في حلب:

إذا كانت العلاقات بين السلطات العثمانية الحاكمة في ولاية حلب ، والجاليات الأوروبية ، قد رسمت خطوطها الكبرى الامتيازات ، وهي عقود رسمية مكتوبة. فإن العلاقة بين الشعب وتلك الجاليات كانت علاقة تلقائية عفوية ، لم تؤثر بها معاهدات وعقود ، ولم تتمكن بدود الامتيازات من تجميدها في قوالبها أو التحكم

(١) - راسل المصدر السابق ، ص ٢٥٩

(٢) - فرمان رقم / ٢٣ / تاريخ فرماني (١٢٠٤ هـ) من السجل / ٢٠ / للأوامر العثمانية لولاية حلب ، ص ١٨ - ١٩. در الوثائق التاريخية بدمشق .

(٣) - فرمان رقم / ١٠١ / تاريخ فرمان (١٢٠٤ هـ) من السجل / ٢٠ / للأوامر العثمانية لولاية حلب ، ص ٧٠، در الوثائق التاريخية بدمشق

بها فهي احتكاك ومعاملة ومشعور ، لا بنود بقت أو لم تنفذ. وكان يسير هذه العلاقة ويؤثر بها الاتفاق أو الاختلاف بالذيل بين الأوروبيين وعناصر السكان المختلفة ، فالنسبة للأوروبيين الوافدين كان السكان في سورية يصم جماعة قليلة العدد تدين بالمسيحية منهم ، وجماعة كثيرة العدد تدين بالإسلام ، وفئة صغيرة اتحدت اليهودية ديناً لها<sup>(١)</sup>.

- العلاقة بين الجاليات الأوروبية والمسلمين: كان الرأي العام الإسلامي في الولايات العربية ومنها ولاية حلب بشكل مجتمعات دينية إسلامية مغلقة ، وكان المسلمون لا يعرفون أنذاك من أوروبا إلا وجهها القبيح المتمثل بحروب العرجة التي تعرضت لها أقاليم الشرق الإسلامي ، وما تخلل هذه الحملات المتعاقبة من حملة قام بها لويس التاسع ملك فرنسا إلى تونس عام ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م ابتغاء الاستيلاء عليها وتحويل أهلها إلى المسيحية ، ليعطي ضلله الذريع في دمايط والمنصورة ، حيث وقع في دل الأسر. وكانت رواسب تلك الحروب لا تزال ماثلة في أذهان سكان العالم العربي ، ويتناقلون أنباءها جيلاً بعد جيل ، ثم سمعوا بأنباء انتقال حركة حروب العرجة إلى أوروبا ، حيث واجهت السلطنة العثمانية تكتلات دولية صليبية دعت إليها البابوية في روما ، كل ذلك أعاق نمو العلاقات الاجتماعية بين سكان الولايات العربية والأوروبيين ، ووقفت في وجهها عدة عوامل ، وأهمها أزمة عدم الثقة بين الجانبين إذ كان العرب يسيطرون إلى الأوروبيين نظرة ملؤها الشك والحدس معا<sup>(٢)</sup>.

وبالمقابل كان شعور الأوروبيين تجاه المسلمين جميعاً شعوراً عدائياً تسيطر عليه بعضاء قديمة حفية ، وحقد دفين حملوه معهم من أوروبا قبل أن تحط لقدامهم أرض بلاد الشام ، وهذا الشعور المتعصب لم تحف من حدته النهضة العنصرية التي رأتها أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، ولا لتحرر الديني ، ولا الأفاق الجديدة المفتوحة ، بل بقي الشعور نفسه الذي تاجح في العصور الوسطى ، ودفع أوروبا إلى الحروب الصليبية. ولقد امتزج هذا الشعور الديني العدائي ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين ، برغبة استثمارية شرهة ، للسيطرة على منابع الثروة التجارية التي كان يغبض عليها هؤلاء المسلمون.

وراد الشقة بعداً بين الأوروبيين والمسلمين الدور الذي لعبه الوسطاء. فقد اعتمد الأوروبيون في سورية في أحد معلوماتهم عن أحوالها لا على الاحتكاك المباشر ، وإنما على اليهود والمسيحيين ، الذين كانوا هم الوسطاء ، وكان بعض أولئك يكون بعضاً وحقداً لمواطنيهم المسلمين ، ومن ثم كانوا يرسمون لهم في أذهان الأوروبيين صورة نسجها خيالهم من تلك التبعضاء وذاك الحقد ، وبذلك كانوا يوججون الشعور العدائي الدفين لدى الأجانب ، فيردادون انكماشاً وعزلة<sup>(٣)</sup>.

(١) - الصباغ. جاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٧٥١ - ٧٥٢.

(٢) - الشاذلي. المرجع السابق ، ص ٧٢٢ - ٧٢٣.

(٣) - الصباغ. جاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٧٥٢ - ٧٥٣.

ولكن الانزال بين الطرفين لم يكن عاماً ، فهو أقوى ما يكون بين المسلمين والإنكليز ، وأقله بينهم وبين النداقة الذين احتكوا بالمسلمين منذ القديم ، وحاولوا أن يأخذوا كثيراً من عاداتهم ، ويتربوا بربهم ، حتى غدوا وكأنهم من سكان البلاد. أما الفرنسيون ، فقد حاولوا جهدهم أن يقيموا صداقات مع المسلمين ، حيث نجح بعض الأفراد في هذا المجال ، وإن كانوا أقل. وحير مثال على ذلك داريو القنصل الفرنسي الذي يصفه الرحالة الهولندي كورنوليس دوبرويش<sup>(١)</sup> بأنه إنسان مهذب يجيد عدة لغات ، ومحدث لبق ، مراجع رائع ، كما أنه يهتم بالرسم والموسيقى وهو أيضاً على عادة أهل البلاد إذ له لحينه الطويلة ، كما حار على تقدير وصداقة العثمانيين والعرب مسلمين ومسيحيين<sup>(٢)</sup>.

ووصف داريو طباعه عن أهالي حلب بالقول " امتار أهالي حلب عن جميع البلاد العثمانية بحسن المعاملة والمعاملة واللطف ، وتلك الأخلاق المسجية فيهم لا كلفة فيها سواء كانوا عرباً أم أتراك ، ومنعهم تلك الأخلاق من إيقاع الضرر بغيرهم. وهم يودون للعرباء وخصوصاً الفرنسيين الذين لهم مودة فاقت على سواهم. ومعاملتهم في التجارة حسنة ومستقيمون فيها. وهم أهل غيرة دينية ، يحافظون على الشريعة الإسلامية أشد الحفاظ"<sup>(٣)</sup>.

وكذلك الطبيب الإنكليزي راسل الذي كنس يقيم في حلب في منتصف القرن الثامن عشر تحدث عن العلاقة بين الضيف والمضيف ، فوصفها بأنها علاقة مقدسة ، وتذكر دائماً باحترام بالغ ، ويتوقف قيام الصداقة على معرفة سابقة ، والعيش معاً في بيت واحد ، حيث تعتبر الصداقة إحدى الخصال الشرقية العظيمة ، وهي لا تزال منتشرة في سورية ، لكنها أكثر شيوعاً في القرى والمدن الصغيرة ، وبين الأعراب والبدو ، إن حسن الصداقة التي يتفاد للرحلة الأوروبيون على الطريق ، والسكان يقدمون لهم بيوتهم ، دون أن يطلب منهم ذلك<sup>(٤)</sup>.

اشتهر مسلمو حلب ببعدهم عن التعصب الدميم وبحسن معاملتهم للفریب والعرب ، مما جعل مدينتهم مركزاً لنشاط الأجانب من الأوروبيين المسيحيين طواف العهد العثماني بشهادة الرحالة الفرنسيين أنفسهم<sup>(٥)</sup>.

وكذلك الرحالة الفرنسي فولني (M. Volney) الذي زار حلب عام ١١٩٩ - ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٤ - ١٧٨٥ م وألف كتابه (رحلة إلى الشرق في سورية ومصر) تحدث فيه عن أهل حلب قائلاً " إن الحلبيين مسلمين ومسيحيين يُعندرون بحق أكثر سكان السلطنة العثمانية ثقافةً ، ولا يتمتع التجار الأوروبيون بالحرية كالتي يتمتعون بها في حلب ".

(١) - للمدرس المرجع السابق ، ص ٨٥

(٢) - الطباخ ، محمد راغب: أعلام النبلاء بتاريخ حلب المشهورة ، ج ٢ ، دار القلم العربي بحلب ، ١٩٢٦ م ، ص ٢٣٨.

(٣) - راسل: المصدر السابق ، ص ١٦٨.

(٤) - حميدة محافظة حلب ، المرجع السابق ، ص ٥٤

كما وصف فولني حلب قائلاً " حلب قد تكون أنظف مدينة في السلطنة العثمانية وأجملها بناءً والطعمها عشرة ، وأصحبها مباحاً ، والخلبيون هم أكثر أهل السلطنة تمدناً " . أيضاً يذكر فولني " في مدينة حلب كان وجود الجاليات الأوروبية ومبداًلاتهم معها تدر عليها أرياحاً طائفة ، وعائدة مادية ضخمة ، وبإلطف وإن احتلاط سكانها بهذه الجاليات كان على نطاق أوسع مما هو عليه الأمر في دمشق .

وهذا ما جعل حلب مدينة أكثر انفتاحاً على الوسط الخارجي وأكثر تأثراً بتطور الغرب ، وأشد تحرراً من الناحية الفكرية وبخاصة أوساطها المسيحية <sup>(١)</sup> .

وهناك أثر عميق أحدثته في نفوس العامة من الشعب ، تلك الحفوة العلية التي يستقبل ولاية حلب بها فواصل الجاليات الأوروبية أثناء زيارتهم الرسمية لهم . ولقد كان من نتائج ذلك أن أصبح يحترم أولئك الغرباء ويكرهم من لا تربطه بهم رابطة مصلحة أو تجارة . بل أن أهل السوق أنفسهم أخذوا ينظرون إليهم بعين الاعتبار والهيبة ، ولا يجسرون على انتهاك كرامتهم ، إلا إذا استقرهم الإفرنج ، إما بسوء سلوكهم ، أو استهانتهم بعبادات أهل البلاد وتقاليدهم <sup>(٢)</sup> .

إن معظم الأطباء الأوروبيين الذين كانوا يرأولون الطب في حلب ، هم من الفرنسيين والإيطاليين والإنكليز ، ومارسوا الطب كما هو سائد في بلدانهم ، وكان الخلبيون ومن مختلف الطبقات يستدعون أولئك الأطباء ممن أمضوا فترة من الزمن في حلب ، واكتسبوا معرفة جيدة باللغة ، وهم يحطون بترحيب حاس من قبل الأعوان . ويسود الاعتقاد بأن الأطباء الإنكليز حاصصة يصفون علاجات شديدة ، ولعل الطبيب راسل كان أول من عمل مع المسلمين على نطاق واسع ، إذ لم يبدل من سيقه ، منذ زمن طويل ، جهداً في تعلم اللغة أو لم يبدوا اهتماماً في اكتساب شعبية ، واكتفوا على عادات وتقاليد البلد <sup>(٣)</sup> .

ولم يكن أطباء القنصليتين البريطانية والفرنسية في حلب يقدمون المعالجة الضرورية لمواطنيهم المرصين والجرحي فحسب ، بل كان هؤلاء الأطباء يدعون إلى بيوت الأغنياء المسلمين والمسيحيين واليهود وحتى بيوت حريم المسلمين ، حيث كانوا يستقبلون باحترام ومحبة كبيرين . وكانت هذه الريارات ترفع من شأن أهالي حلب واحترامهم تجاه الشعوب الأوروبية ومكانة حكوماتهم <sup>(٤)</sup> .

ويمكن للأطباء والمرصين ، سواء كانوا أوروبيين أو خليبيين ، للدخول إلى الحرمات في جميع الأوقات عندما يقتضي حضورهم ، وعادة ما كان يقدم للطبيب النع والقهوة ، ولا يمكن رفضها لأنها تعبر عن الاحترام وحسن الصيافة . أما في الأسر التي اعتاد على ريارتها طبيب أوروبي ، وعندما كانت مريضته

(١) - أنطوني المرجع السابق ، ص ٢٨٢

(٢) - صطوف - المرجع السابق ، ص ٦٥

(٣) - راسل المصدر السابق ، ص ٢١٨

(٤) - سورمايان : المرجع السابق ، ص ٤٠٩ .



تتمثل للشعاء ، فإن تلك الرياسة تطول ليشيع فضول السيدات اللواتي يقص بطرح أسئلة لا حصر لها حول بلده . كما يتأين فصول التعرف على أحوال النساء الأوروبيات ، وطريقة لباسهن وعملهن ورواجهن ، ومعاملتهن لأطفالهن ، وكيف يقضين أوقاتهن<sup>(١)</sup>. مما يدل على وجود علاقات جيدة بين سكان ولاية حلب والأطباء الأوروبيين ، حيث فتح أهالي حلب بيوتهم أمام الأطباء الأوروبيين على الرغم من أن مجتمع حلب محافظ ، مما دل على وجود الثقة بين الطرفين.

ومن خلال الأوامر السلطانية يمكن التعرف أكثر إلى العلاقات بين الجاليات الأوروبية والمسلمين في حلب. ففي أمر سلطاني ١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م ينمّر بملاحقة الأشخاص الذين حاولوا الاعتداء على القنصل الإنكليزي المقيم في حلب ، حيث وقع خلاف بين القنصل المذكور وبعض الأهالي ، أدى إلى تجمع الأهالي بقصد الهجوم على القنصل والإصرار به بدافع وتحريض من الأعداء الروس الذين كانوا في حالة حرب مع السلطنة العثمانية. ولما كانت العهود والمواثيق المبرمة بين السلطنة وإنكلترا تفضي حماية رعايا هذه الدولة لذلك طلب الباب العالي الصرب بيد من حديد على هؤلاء التمتعدين ومعاقبتهم ، وعدم التسهل في المستقبل مع أي كان في مثل هذه القضايا<sup>(٢)</sup>. مما يصر حرص السلطنة على سلامة وحماية أفراد الجاليات من أي اعتداء يمكن أن يتعرضوا له.

كذلك صدر فرمان سلطاني آخر يلزم تسديد الدين من قنن السيد عباس طه رادة للتجار الفرنسي (بنصر) والمبلغ (٤٣٩٥ قرشاً) لعام ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م ، وهي مستحقة الدفع والدعي المستدين أنه أرسل حوالة بالمبلغ إلى صاحب الدين ، لكنها وصلت عن طريق الخطأ إلى جهة أخرى ، مما سبب التأخير في تسديد هذه الذمة ، وبناءً على الاسترحام الذي قدمه المقيم العام الفرنسي وشيخ الإسلام أقر بدفع هذه الذمة<sup>(٣)</sup>. يلاحظ أن الحوالات كانت تستخدم في المعاملات التجارية مما صر تطور التجارة في ولاية حلب.

كذلك صدر فرمان سلطاني بلورم ملاحقة المدرس علي أفندي طه الذي استدان مبلغ / ٢٤١٠٠ قرش / من شركة فرنسية تدعى (لولاق - دالين) بحلب بموجب سند مؤرخ عام ١٢٠٦ هـ / ١٧٩١ م يلتزم به المذكور بتسديد المبلغ ، وعندما حل موعد السداد أخذ يقدم حجج وأعذار واهية. وطلب من قاضي حلب

(١) - رسالة المصدر السابق ، ص ١٨٢

(٢) - فرمان رقم / ٢٨٢ / ، تاريخ فرمان (١١٨٣ هـ) من سجل / ٨ / للأوامر العثمانية لولاية حلب ، ص ٢٢٥ ٢٢٦ ، در الوثائق التاريخية بدمشق

(٣) - فرمان رقم / ١١ / ، تاريخ فرمان (١٢٠٦ هـ) من سجل / ٢٣ / للأوامر العثمانية لولاية حلب ، ص ٧ ، در الوثائق التاريخية بدمشق

ومحصلها تحصيل المبلغ المذكور وإعادته لأصحابه<sup>(١)</sup>. يدل ذلك على أنه كانت توجد علاقات تجارية واسعة بين أهالي حلب من جميع الطبقات مع تجار الحالبات الأوروبية.

**العلاقة بين الجاليات الأوروبية والمسيحيين:** شجع وجود القنصليات والجاليات الأوروبية على أرض حلب واحتلالها لمراكز مؤثرة للمسيحيين المحليين على الشعور بالأمان في مسائلهم العقائدية والتجارية ، وخاصة أن العقيدة السائدة في البلاد كانت تؤكد بأن الأجانب يعملون للدفاع عن المسيحيين<sup>(٢)</sup>.

إن العلاقة بين الأوروبيين والمسيحيين العرب من شتى المذاهب ، كانت علاقة مفتوحة فسي الميدان التجاري والاجتماعي. إذ كان المسيحيون يتولون مع الأوروبيين ، إلا أن المجتمع الدسائي بقي محدوداً جداً، لأن السادات المسيحيات الحلبيات لا يعرض سوى القعة العربية ، ولا يتكلم سوى عند محدود جداً من ذوي العرق المحتل اللغة الفرنسية (Mezza. Ressa). ولا يقوم بعض الإنكليز بزيارة السكان المحليين من معارفهم إلا في السنة الجديدة. وحتى أولئك الذين يستطيعون التكلم بالعربية ، فنادراً ما يتبادلون الزيارات، بينما البنادقة والفرنسيون والهولنديون أكثر اتصالاً بالمسيحيين من الإنكليز.

أقام الموارنة علاقات مع الإفرنج أكثر من أي طائفة أخرى. إذ كانوا يرسلون أطفالهم إلى مدارس الأديرة ليتعلموا اللغة الإيطالية ، بالإضافة إلى أشياء أخرى تؤهلهم للعمل في المصارف الأوروبية<sup>(٣)</sup>.

وقد حصلت بعض الرجات بين شيان من الجاليات الأوروبية وشابات من مسيحيي البلاد، بالرغم من عدم ترحيب الأوروبيين بهذا الأمر. وقد ارتاح بعض المسيحيين إلى العمل في كنف الجاليات الأوروبية، حتى أنه طلب إلى قناصلهم حمايتهم وصمهم إليها ، وهذا الأمر انتشر على نطاق واسع في القرن الثامن عشر، حيث ظهرت صمم الأمم الأوروبية فئة المحميين. وكان يتم هذا بموافقة السفير والسلطان، وتصدر براءة خاصة بذلك، وكان بعض المسيحيين يحرصون للحصول عليها، ليتخلصوا بواسطتها من سلطة الدولة العثمانية، ويستعيدوا من الامتيازات، وبخاصة الإعفاءات من الضرائب، ومنها ضريبة الجريبة، وكان القناصل بدورهم يشجعون هذا الاتجاه ليدعموا مراكز دولهم الأوروبية، ويثبتوا نفوذها عن طريق هذه الفئة<sup>(٤)</sup>.

(١) العرمن رقم / ١١٣ / ، تاريخ الخمران (١٦١٠ هـ) ص ٢٥ / للأمر العثمانية لولاية حلب ، ص ٥٩ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٢) - سورميان المرجع السابق ، ص ٢٨٨

(٣) - رنبله المصدر السابق ، ص ٢٥٤ - ٢٦٦

(٤) - Sauvaget p: ٢٠٥

وعندما كان عدد المترجمين العبريين قليلاً في السابق كان المنصب يقدم للمسيحيين فوئد كثيرة ويلقى المترجم احتراماً كبيراً ، وعندما توسعت دائرة هذه المنحة في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر الميلادي، قلت قيمة المنصب وأدت إلى بعض المشكلات في حلب<sup>(١)</sup>.

كما كان هناك علاقات تجارية بين أفراد الجاليات الأوروبية والمسيحيين في حلب ، فالسفير الإنكليزي المقيم في إسطنبول جيمس بورتر رفع عريضة للباب العالي معادها أن / ١٢٠ / شخصاً أرمينياً مقيماً في حلب كانوا قد استدانوا من التاجر البريطاني سرمن عام ١١٥٦ هـ / ١٧٤٣ م مبلغ (١٢٨٥٠ قرشاً) بالتكافل والنصام المالي. وبعد حلول موعد العدا تمعوا عن الأداة بشئ الحيل والأعداء ، بسبب وفاة التاجر (سرمن) فإن التاجر البريطاني درنون يطالب بهذا الحق ، وطالب بسوق سنة من المدينين الكاهنين إلى مجلس الشرع لضمان سداد الدين<sup>(٢)</sup>.

وكذلك صدر فرمان سلطاني آخر ١١٥٢ هـ / ١٧٣٩ م لتحصيل دين للتاجر الإنكليزي بولجر من التاجر الحلبي السيد حنا وتسليمها عن طريق القائم بالأعمال التجاري الإنكليزي في حلب<sup>(٣)</sup>.

وعلى الرغم من العلاقات المفتوحة بين الأوروبيين والمسيحيين الوطنيين، والحماية التي تمتعوا بها، فإن نظرة الأوروبيين إليهم لم تكن نظرة حب وود. وربما تكون الكلمة التي قالها دارهيو عن مسيحي حلب تعبر عن مكتوبات نفوس عدد لا يستهان به من الأوروبيين إذ قال " لقد أثبتت التجربة لي أنهم تافهون وخادعون وكادبون وسكارى" ويمكن أن يستنتج من ذلك، أنه على الرغم من التوافق الديني بين الأوروبيين والمسيحيين الوطنيين فإن الأوروبيين كانوا يشعرون بالاختلاف القومي، وبعدم المساواة في الحضارة والمدنية والتهديب - بحسب ادعائهم - ومثل هذا الشعور المتنافر قومياً كان متجسداً كثيراً من المسيحيين الوطنيين<sup>(٤)</sup>.

- العلاقة بين الجاليات الأوروبية واليهود في حلب: يأتي اليهود في حلب بالمرتبة الثالثة من حيث العدد والأهمية ، وكما في كل مكان تنوأ يهود حلب مكانة جيدة في الساحات التجارية والمالية<sup>(٥)</sup>.

بلغ عدد اليهود في حلب (٢٠٠٠) شخص ، وكانوا يسكنون أحياء خاصة بهم ، يصنعها الأوروبيون بأنها قذرة. وقد لعبوا دوراً مهماً وحظيراً في التجارة مع الأوروبيين ، فقد عملوا وسطاء بينهم وبين العثمانيين ، وأظهروا البهارة في التعاملات التجارية ، كما كانوا مترجمين ، ومشرفين على العمليات المصرفية ، وإليهم

(١) - سورمايان. المرجع السابق ، ص ٢٩٨

(٢) - الفرمان رقم / ٤٧٧ / ، تاريخ الفرمان (١١٦٣ هـ) من سجل / ١ / للأمر العثمانية لولاية حلب ، ص ٢٦٢ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٣) - الفرمان رقم / ١٠٧ / ، تاريخ الفرمان (١١٥٢ هـ) من سجل / ٤ / للأمر العثمانية لولاية حلب ، ص ٤٨ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٤) - الصباغ. الجاليات الأوروبية ، ح ٢ ، المرجع السابق ، ص ٧٦٢.

(٥) - سورمايان. المرجع السابق ، ص ٣٢١

بلجأ الأوروبيون عندما يريدون الاقتراض لدفع التزامات المعروضة عليهم ، التي كان اليهود عنصرًا فعالاً في إثارتها صدهم. ولكل هذه الأسباب كان الأوروبيون على احتكاك مستمر معهم ، إلا أن صلات العمل بينهم لم تنتج تفاعلاً ووداً بل على العكس من ذلك ، رادت الأوروبيين بغضاً وحقدًا على اليهود<sup>(١)</sup>.

وحير من وصف اليهود في حلب الفصل الفرنسي دارفيو إذ يقول "اليهود أسوأ شعوب العالم ، يبعصرون المسيحيين كالموت ، وهم دلمو للتحفز لإيادتهم، ويوجدون الفرص المناسبة لتحقيق مآربهم، ويعدرون - دون أدنى حياء - بالأنحاص الذين يحسنون معاملتهم ، ويتنعون منهم ، لذلك فإنهم كاذبون ومنافقون ، ويثيرون موطني الدولة ، وعلى الرغم من عدم استفادتهم من كل ذلك، إلا أنهم يستشون ويرتاحون بفعل الشر وصرر الآخرين. واليهود بشكل عام وسطاء تجاريون وصرافون يعرفون "من أين تؤكل الكتف". وليست هناك مهنة لا يعلمون بأسرارها. وكل شخص لديه خادم أو شريك يهودي عليه مراقبته ، وألا يفشي أسرارَه إليه. وبين اليهود أعياء عديدون يروهم مراهبون ، وليس بمفتور أحد منافستهم في ذلك<sup>(٢)</sup>.

أما الرحالة الهولندي كورنوليس دوبرويجين الذي أقام في حلب أحد عشر شهراً ١٠٩٤-١٠٩٥ هـ / ١٦٨٢ - ١٦٨٣ م شارك حلالها في حياة الأوروبيين في المدينة فيذكر " حينما كنت في حلب ، ذهبت مع بعض التجار لزيارة يهودي ، أكثر اعتباراً من كل أفراد جنائيته ، وهو يسكن مع جميع أفراد عائلته منزلاً جميلاً، عمره حوالي ثمانين عاماً ، يدعى يعقوب سبتون ، وقد استقبلنا بكثير من الحفاوة ، وقدم لنا وجبة حنيئة وجيدة<sup>(٣)</sup>.

ولم تكن علاقات الأوروبيين مع اليهود علاقات عمل فقط ، وإنما يزورون أحياءهم أحياء لأغراض شخصية غير شريفة . فمعظمهم يملكون بيوت دعارة سرية ، وأكثرية المغنيات والراقصات منهم. فالصلات الاجتماعية المتينة لم تكن قائمة بين اليهود والأوروبيين ، إذ أن الأخيرين حملوا ضدهم الترميت والحد من أوروبا ، ورادتهم صلاتهم العملية معهم بغضاً على بغض<sup>(٤)</sup>.

لقد استفاد المسيحيون واليهود من علاقاتهم التجارية مع الأوروبيين لأنها أكسبتهم خبرة وعلماً تجارياً واسعاً ، لذلك عندما غادر الأوروبيون بلادنا ، قام المسيحيون واليهود بالاطول محلهم ، وممارسة النشاط التجاري بشكل واسع جداً ، وهذا ما رفع من مركزهم في المجتمع الذي يعيشون فيه ، فأصبحوا عنصراً فعالاً ، ولهم دورهم الكبير في الحياة الاقتصادية.

(١) - الصباغ. الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٧٦٢.

(٢) - مورميان. المرجع السابق ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٣) - المدرس المرجع السابق ، ص ٨٨.

(٤) - الصباغ. الجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٧٦٢.

ومما تقدم نرى أن الجاليات الأوروبية تمتعت بحماية ورعاية السلطنة العثمانية ، ومحتهم الحرية في الحركة والتنقل من مكان إلى آخر بحثاً عن المتعة وقضاء أوقات الفراغ في سهول وبياتين حلب. والتمتع بكل مظاهر حياتهم اللاهية إلى حيث يقيمون، وأحاطوا أنفسهم بكل مظاهر الراحة والترف ، وخصوصاً الإنكليز ، الذين عرفوا كيف يستغلوا كل الفصول لقضاء أوقات سعيدة تسميهم الحنين والشوق إلى الوطن.

وعلى الرغم من بعض الحوادث للعارضة التي تعرضوا لها في ولاية حلب من قبل السلطات الحاكمة وطبقات الشعب ، والتي لا بد منها في أي مكان ، فإنهم سعدوا بحياتهم إذ سحرتهم حلب بجمالها وحضارتها العريقة.

وأيضاً كان انطباع الرحالة الأوروبيين الذين زاروا حلب وتبعوا بأحلاق أهلها ، ولطف معشرهم ، وحسن استقبالهم للصيوف

وقدموا لنا نماذج جميلة عن أهالي حلب الذين عاشوا بينهم لسنوات عديدة في القرن الثامن عشر الميلادي. وتكمن بعضهم بما لهم من علم وأدب وأحلاق دخول بيوت الحليين ، الذين اطمأنوا لهم ففتحوا بيوتهم بكل ترحاب ، على الرغم من كون المجتمع الحلبي مجتمعاً محافظاً.

## الفصل الرابع

الجاليات الأوروبية والإرساليات التبشيرية في ولاية حلب

الإرساليات التبشيرية.

وسائل الإرساليات التبشيرية.

موقف الدول الأوروبية من الإرساليات التبشيرية.

موقف السلطنة العثمانية من الإرساليات التبشيرية.

كان في حلب في مطلع العصر العثماني أربع طوائف مسيحية هي: الروم (الأرثوذكس) والأرمن والموارنة والسريان (اليغاقبة) ، كما كان هناك بعض العائلات الكلدانية أوكل الاهتمام بها إلى الفرنسيين ثم إلى المطران جرماتوس فرحات مطران الموارنة. وكُنَى على رأس كل طائفة مطران مقيم في حلب ، ويرتبط برئيس أعلى هو البطريرك. وبطريرك الروم مقيم في دمشق ، وبطريرك الأرمن مقيم في سبسي في كيليكيا ، وبطريرك السريان في ديار بكر أو ماردين ، وبطريرك الموارنة في قسطنطينية شمال لبنان.

ونظراً لأهمية حلب جعل الكثير من الطائفة مقرهم فيها. واعترف العثمانيون للبطريرك البويسي المقيم في إسطنبول بسلطة عليا على جميع المسيحيين من الطوائف البيزنطية ، كما اعترفوا للبطريرك الأرمني الذي أقاموه في إسطنبول بسلطة عليا على جميع المسيحيين الآخرين<sup>(١)</sup>.

وكانت الطوائف المسيحية في حلب قد اتفقت على أنه مهما وقع على نصارى حلب بطوائفها الأربع، أو على طائفة منهم بمفردها من الخسائر والجنايات والتجريم يعم ويلحق للجميع<sup>(٢)</sup>. لذلك شعر المسيحيون الحلبيون بالتضامن ، وأنهم يشكلون وحدة جماعية رغم تعدد طوائفهم ، وتعمدوا بذلك عن مناطق أخرى، حيث الخلاف الطائفي كان أكثر حدة.

وكان تجاور الكنائس والعيش في الأحياء نفسها ، والتزاوج بين الطوائف المختلفة قد خلق جواً من الألفة والوحدة<sup>(٣)</sup>.

كما كان لكل طائفة كنيسة خاصة بها للعبادة ، وظفوس وتقاليد ورجال دين ، ثم انقسم الروم والأرمن والسريان بفعل - الإرساليات التبشيرية الأوروبية - فعلياً على مدار القرن الثامن عشر الميلادي وما قبله ، وذلك ببرور طوائف كاثوليكية جديدة مع الكنائس الأم. حيث شكل الروم الأرثوذكس أكبر الطوائف المسيحية في سورية ، فكونوا حوالي نصف مسيحيي حلب<sup>(٤)</sup>. وكانت هذه الطائفة لا تزال على المذهب الأرثوذكسي ، إلى أن قام البطريرك نيو فيطوس السافري سنة ١٠٤٢ هـ / ١٦٣٢ م الذي صاحب رهبان بيبوين من بلدة (سافرا في قبرص) وجعلهم أساقفة معتمدين في مدارس دمشق ثم انتشروا في حلب وصيدا وغيرها من البلاد الشامية ، وشجعوا بدعوى إلى الكثرة في هذه البلاد سرّاً وعلناً ، حتى كثرت أتباعهم واستفحل أمرهم ، ونجم عن ذلك النزاع والشفاق بين أتباعهم وبين أيداء الطائفة الأرثوذكسية ، وكان يساعدهم فصل قبرص في حلب

(١) ديك : غناطيوس الحضور المسيحي في حلب خلال الألفين المنصرمين ، مطبعة الإحسان للروم الكاثوليك ، حلب ، ٢٠٠٣ ، ص

٣٢ - ٣٠

(٢) ثوبل : المرجع السابق ، ص ٧٣ - ٧٤

(٣) ديك : الحضور المسيحي ، المرجع السابق ، ص ٢٤.

(٤) - ماركوس : المصدر السابق ، ص ٥٢ - ٥٨.

والسفير الفرنسي في إسطنبول، ويقعون لهم أنواع المعونات. ودعمت السلطنة العثمانية الرهبان الروم الأرثوذكس، واستمر ذلك زمناً طويلاً، حتى آل الأمر إلى حوالت ١٢٣٤ هـ / ١٨١٥ م<sup>(١)</sup>.

أم طائفة الأرمن الكاثوليك: فإن وجود هذه الطائفة في حلب قديم بذليل وجود بعض أسر أرمنية كاثوليكية، مصلّى عليها في حلب نحو أربع مائة سنة منذ عام ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م. وذلك الأسر أخذت الكتلكة<sup>(٢)</sup> عن الموارنة أو عن الصليبيين حينما كانوا في سورية، أو أنها كانت كاثوليكية قبل أن تتوطن في حلب.

أما الموارنة على الرغم من قلة عددهم يشكلون طائفة حاصّة في حلب، والكنيسة المارونية هي الوحيدة بين الكنائس الشرقية التي انفصلت عن الكنيسة السريانية، وتبعت للسلطة البابوية، واحتفظت بلعنتها السريانية وعاداتها القديمة في حطوطها العريضة. وتجرى الطقوس والعبادات الدينية باللغة السريانية على الرغم من عدم معرفة الرعية بها. وحافظ جميع كهنة الكنيسة المارونية على أريائهم الخارجية القديمة بينما يردون القمصان اللاتينية أثناء للقداس والمراسيم الدينية المختلفة<sup>(٣)</sup>.

أما الكلدانيون: شكلوا طائفة صغيرة وصل عدد أبنائها إلى ١٥٠٠ شخص، إلا أنها نشيطة ومرددة مادياً، فقد بنت كنائسهم كالموارنة. وقد نرح معظم الكلدانيين إلى حلب من ديار بكر. وتعيش هذه الطائفة حياة داخلية هادئة وبحبوحة مادية، لأن معظم الرجال والشباب يعملون في المهن والتجارة. والكنيسة الوحيدة للكلدان تقع في حي العزيزية وإلى جانبها المطرانية<sup>(٤)</sup>.

وكانت السلطنة العثمانية تشرف على أمور المسيحيين الدينية في معظم أنحاء السلطنة من خلال بعض الفرمانات السلطانية الخاصة بتعيين رجال الدين، حيث رفع ممثلين من الطائفة الأرمنية في حلب، وعددهم ٩٨٢ يستريحون فيه عزل الراهبين ميكانيل ولؤديك بسبب خروجهم عن الأعراف الدينية، ومحاولتهم إدخال مذهب الإفرنج الكاثوليكي مما أفسد صمائر طائفتهم، ويطلبون تعيين الراهب أكوب بدل الراهبين المذكورين<sup>(٥)</sup>.

(١) - العروة المصنعة السابق، ص ٢٨٢ - ٢٨٤.

(٢) - الكتلكة: أو الدين الكاثوليكي المسيحي أو المذهب الكاثوليكي تمسحي اسم واحد، وهو مذهب مسيحي معروف يدين به اليوم ثلاثمائة مليون نسمة، ويمثل أصحابه أنه هو الدين الوحيد الذي بشر به السيد المسيح عليه السلام قبل عشرين قرناً وأخذ به رسوله أنواريون نبشروه بامرهم في كل العالم، نحت رئاسة الأساقفة الحاضرين للدير الأعظم بآر رومانيا اسمها فهو مشتق من لفظة يونانية معناها الجامعة والممتددة في كل الأرض. انظر محمد كرد علي: ج ٦، ص ٢٣٠.

(٣) - سورجانيان المرجع السابق، ص ٣٦٤.

(٤) - سورجانيان المرجع نفسه، ص ٣١٩.

(٥) - الفرمان رقم / ٢٩٦ / تاريخ الفرمان (١١٥٥ هـ)، من تسجيل / ٤ / للأوامر السلطانية لولاية حلب، ص ١٩١، دلو الوثائق التاريخية بمشوق.



كم صدر فرمان سلطاني بتعيين البطريرك كوركيس بن موسى على الطائفتين السريانية واليعقوبية ، للإشراف على أمورهم بدل من البطريرك الممتنع كوركيس بن شمعون ، وعلى المطارسة والقساوسة والرهبان في الأديرة والكنائس التابعة للطائفتين أن يتبعون تعليماته بكل ما يتعلق في حل أمر الطائفتين ، كما حوله الباب العالي الإشراف على الأوقاف والمتروكات لتلك الطوائف ، كما فوض بتعيين وعزل ونقل المطارسة والرهبان والقساوسة وكل من يعمل في الأديرة والكنائس<sup>(١)</sup>.

وفي فرمان سلطاني آخر مرسل إلى والي حلب وقاصيها ، بمنح براءة شريفه تفصي ببقاء المطران ميخائيل في منصبه للطائفتين السريانية واليعقوبية بدلاً من الراهب كوركيس ، وذلك بناءً على طلب رجال الدين من الطائفتين المذكورتين ، لحسن سلوكه<sup>(٢)</sup>.

## ١ - الإرساليات التبشيرية:

إن رجال الدين الذين غادروا أوطانهم في أوروبا ، وتوا ليمتقروا في ولاية حلب هم فئتين: أولاً رجال الدين المرافقون للجاليات التجارية الأوروبية ، وعددهم لا يتجاوز الاثنين لكل جالية ، وقد أرسلتهم الهيئات المشرفة على التجارة في أوروبا ، ليرصموا الحاجات الدينية والروحية لمواطنيهم. وكانوا يعملون في كنائس القسليات ، فيقيمون الطقوس الدينية ، ويلقون العظات على أفراد جالياتهم أيام لأحد ، وفي المناسبات المختلفة والأعياد. كما كانوا يؤدون دور الحكم في الكثير من الخلافات بين أفراد الجالية ، أو بين الفصل ومجموع أفراد الجالية.

ثانياً: رجال الإرساليات التبشيرية ، المنتمون إلى فرق والإرساليات دينية مختلفة ، وفدوا إلى حلب بهدف التبشير<sup>(٣)</sup>. فلم تكن حلب هدفاً لتجار الجاليات الأوروبية وحسب ، حيث كان لزاماً على الإرساليات التبشيرية أن تتبع التجار. الذين وجدوا فيهم مبعداً تبشيراً مهماً لهم بعد أن فشلت محاولات الحروب الصليبية. فعزروا غزو البلاد العربية سلباً وإيجاباً عن طريق نشر المذهب المسيحي الكاثوليكي. كما كانت القوافل التجارية تشجع طلاب العلم والرهبان المبشرين كاليسوعيين والكبوشيين والمارونيين بالتوجه معهم إلى حلب. ولم يبق حلب في استقطاب هذه الفئات الدينية سوى لبنان، فأسموا فيها الأديرة والمدارس ، كدير الأرض المقدسة

(١) - العرمان رقم / ٢٣٤ / تاريخ العرمان (١١٨٣ هـ) ، من المجلد / ٨ / تلؤف السلطنة لولاية حلب ، ص ١٨٦ - ١٨٧ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٢) - العرمان رقم / ١٧٨ / تاريخ العرمان (١١٩٦ هـ) ، من المجلد / ١٦ / تلؤف السلطنة لولاية حلب ، ص ١٣٤ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٣) - الصباغ الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٧٦٧ - ٧٦٨

الذي كان يقع في حارة القصابية ، وفيه أكبر كنيسة يؤمها الأجانب الكاثوليك ، ودير الآباء الكبوشيين ، والآباء اليسوعيين في حارة البنائفة ، ودير الكرملين في حارة الحمراء<sup>(١)</sup>.

بذلك كانت حلب مسكناً لرجال الدين الأوروبيين والعلماء الصليبيين والقواد والعملاء التجاريين والفنصليات ، وللوجود الأوروبي في حلب غايتان رئيستان منذ القرن السادس عشر. الهدف الأول ديني ولاحق تجاري.

لقد حاولت البابوية منذ القرن العاشر الميلادي وحتى يومنا هذا تشكيل شبكة لاتينية في جميع الطرق التي مرت عبرها جحافل الصليبيين من أبواب صربيا وحتى القدس الشريف ، وإنجاح مخططها أرسلت روم مبشرين شبان ومعلمين وحاذقين يحبون للمساعدة ، وعلى طريقهم نحو الشرق جعلوا مدينتين رئيسيتين وتحديداً حلب وإستانبول مركزي اجتماع وإطلاق لهم بعد بناء الكنائس والأديرة فيهما

ومن أجل نشر الإيمان كانت لحلب ميزات أكبر بكثير من إستانبول ، حيث تقع بصرى كنيسة اليونان الأرثوذكس التي تعارض بشدة للكاتوليكية، بل تعادياها ، بينما كان لحلب ميزات سياسية وجغرافية مميزة لتوسع البابوية هيمنتها داخل المدينة وفي محيطها.

وبعد تراجع البابوية في كيبيكا كان على الاجتياحات الدينية الاتجاه جنوباً إلى حلب المدينة التي تعد من أقدم المدن في سورية والتي كانت مدينة تجارية مزدهرة. وكانت همزة الوصل بين أوروبا وآسيا ، وبإستطاعتها أن تحور على دعم قنصل الدول الأوروبية اللاتينية.

وبعد ذلك كانت حلب تقع على مفترق الطرق الفشيطة التي تتجه إلى بلاد ما بين النهرين وفارس ، وتأسيس بعض المراكز التبشيرية يمكن أن يسهم في نشر العقيدة الكاثوليكية اللاتينية في بعض مدينها. وكان المبشرون من رجال الدين الأوروبيين يتجهون إلى حلب في بادئ الأمر، ويبقون فيها بعض الوقت، ويتسلحون ببعض المعلومات الضرورية ثم يعادزون المدينة لمتابعة مهمة التبشير.

وقد كبرت أهمية حلب لدى القاتيكال إلى درجة بناء مندوبية في نهاية القرن السابع عشر ، ووضعها تحت رعاية وحماية الفصالية الفرنسية في حلب ، وعين مرابطوا بيكه الذي كان القنصل الفرنسي السابق في حلب مندوباً وأسقفاً للبابوية ، وبشر الكاثوليكية بين أرمن وسريان وكلدان ديار بكر والموصل<sup>(٢)</sup>.

وقبل الحديث عن الإرساليات التبشيرية بشكل مفصل ، يجب التوقف للتعرف على كيفية تربية المبشرين وماهية أهدافهم الحقيقية

(١) - القونجي - المرجع السابق ، ص ٢٢٣

(٢) - سورمايان المرجع السابق ، ص ٣٦٥ - ٣٦٦

كيف يرعى المبشر المسيحي: ربي المنشرون في مدارس دينية خاصة في البلاد الأوروبية في كنائس أو أديرة ، مدد صفرهم ، فإذا أتموا هذه المدارس ذهبوا إلى كليات أو معاهد دينية ليكملوا دراساتهم الدينية ، وعلى هذا فهم يشؤون نشأة دينية بحثة.

فبينما يتعلم المبشر أمور دينه ، يأخذ في تعلم بعض العلوم الأخرى ، كاللغة العربية واللهجة العامية ، ليستطيع أن يفهم بالأولى ويحاطب الناس بالثانية.

ولا شك في أن أغلب المبشرين من القساوسة والرهبان الذين تربوا في الكنائس و لأديرة منذ طفولتهم ، يصبحون مخلصين للنصرانية<sup>(١)</sup>.

بواعث التبشير الحقيقية: يظن بعض الناس أن المبشرين يأتون إلى المشرق العربي لنشر الدين على أنه الهدف الأسمى ، والحق أن نشر الدين أمر ثانوي في جميع الإرساليات التبشيرية ، وقد نجد أشخاصاً قليلين يمولون إرساليات تبشيرية في الشرق. ثم أفراداً قليلين أيضاً يأتون في هذه الإرساليات لبشروا الدين حباً بنشر الدين ، على أن الكثرة المطلقة من الذين يمولون تلك الإرساليات ، ومن الذين يأتون فيها ، لا صلة بين أهدافهم الحقيقية وبين الدين أو المذهب المسيحي الذي يرعومون أنهم قد جاؤوا لنشره أو لتحويل طائفة مسيحية من مذهب إلى مذهب آخر<sup>(٢)</sup>.

أما بداية التبشير: فهناك مجموعة آراء حول بداية التبشير في المشرق العربي. وإحدى هذه الآراء يعيد البداية إلى القرن السابع عشر ، وذلك لأن القس الفرنسي اليموعي ميليز كتب كتاباً بالعربية عن الحروب الصليبية في الشرق ، حيث قال فيه (إن الحرب الصليبية الهائلة التي بدأها مبشرون في القرن السابع عشر ، لا تزال مستمرة إلى أيامنا. إن الرهبان والراهبات الفرنسيات لا يزالون كثيرين في الشرق. ولقد احتفظت فرنسا طويلاً بروح الحروب الصليبية وبالحنين إلى تلك الحروب التي لا زالت حية في نفسها.

وكانت من غايات الامتيازات الأجنبية ، أن تحتفظ فرنسا دائماً بالدور الذي يلعبه رهبانها ، وأن توسع ذلك الدور ، وقد اعترفت لمعرفتها وقنصلها بالحماية للمسيحيين ، تلك المهمة الصعبة التي لم تخلع عليهم إلا شرف حصول الصلاة في الكنائس. ولبحموا أعمال المبشرين في أنحاء السلطنة العثمانية ، وقد كان ممثلو فرنسا يساندون أعمال المبشرين ، وكثيراً ما كان لفرنسا في أكثر الأحيان ، قساوسة في أشخاص قنصلها ، وخصوصاً في القرن السابع عشر. وقد كانت تختار مقراءها وقنصلها من رجال الدين

فإن الرجل الذي عهد إليه الحصول على الامتيازات عام ٩٤٢ هـ / ١٥٣٥ م لفرنسا من الباب العالي ، كان يدعى ده لاهورست وهو راهب من فرسان القديس يوحنا الصليبيين.

(١) - فروخ ، عمر - حادي - مصطفى التبشير الاستعماري في البلاد العربية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٥٧ م ، ص ٣٤

(٢) - فروخ المرجع نفسه ، ص ١١٨ - ١١٩.

ومن أجل ذلك عين الراهب الصليبي ده لاقورمت صغيراً في إستانبول، فكان أول سفير لفرنسا في السلطنة العثمانية<sup>(١)</sup>.

مما أدى إلى قوة التبشير ، والذي وجد أنصاره الطريق أمامهم مفتوحاً وميسراً مع العوامل التي أعدها لهم النفوذ لاستعماري ، وأهمها الامتيازات الأجنبية ونفوذ القناصل وسيطرة الدول الأوروبية على بعض الأمور ، وقد كانت البعثات التبشيرية فاصرة على الدول الأوروبية التالية: فرنسا - انكلترا - إيطاليا - ألمانيا بولم يحدث كان لها نفوذها الاستعماري في البلاد العربية قبل القرن التاسع عشر<sup>(٢)</sup>.

رافقت الجاليات الأوروبية في حلب إرسالاتها التبشيرية التي كانت تتبع الكنيسة العربية الكاثوليكية في روم لتقوم بالخدمات الدينية لها ، وكان في مدخل كل خان جامع وكنيسة وكنيس لممارسة العبادات التوحيدية المختلفة<sup>(٣)</sup>.

#### وقد وجدت في حلب الإرساليات التبشيرية التالية:

الفرنسيون: سبق الفرنسيون جميع المشرقيين ، حيث جاؤوا إلى حلب في العهد الأيوبي لرعاية السجدة الأفرنج في قلعة حلب مؤقتاً. ثم عادوا عام ٩٧٩ هـ / ١٥٧١ م ، حيث استقروا في حلب بصحبة الجالية البندقية ، وأخذوا يهتمون بشؤون الأفرنج المقيمين في حلب.

كما دخل الآباء اليسوعيون في عام ١٠٣٥ هـ / ١٦٢٥ م حلب ، واتخذوا مقامهم في خان البنادق، ولم يخرجوا إلا بعد إلغاء رهبانيتهم سنة ١٧٧٣ م بأمر من الحبر الأعظم اكليموس الثالث عشر ، فنقلوا وجود الآباء اليسوعيين في حلب ، وتركوا ديرهم فيها للآباء اللعازاريين<sup>(٤)</sup>.

وم بين عامي ١٠٣٣ - ١٠٣٧ هـ / ١٦٢٣ - ١٦٢٧ م وصل إلى حلب بتوصية من ملك فرنسا مبشرون ينتمون إلى ثلاث رهبانيات: الكبوشيون والكرمليون واليسوعيون، وكان الكبوشيون واليسوعيون قادمين من فرنسا ، والكرمليون من المناطق الإسبانية والإيطالية وبينهم بعض الألمان. وبما أنهم قدموا مبدئياً لرعاية شؤون الأفرنج، فحددت إقامتهم بجانبهم في الحانات في منطقة الأسواق. كان الفرنسيون الرهبان الوحيدون بين الذين يشغلون حاناً بأكملها (حان الشيباني).

وتمكن الكرمليون والكبوشيون من استملاك مقر لهم مجاورين بذلك بقية التجار ، حيث استقر الكرمليون في حان الخمر ، والكبوشيون في حان القصادية. أغلقت مؤقتاً كنيسة الكرمليين بناءً على شكوى بعض الجوار الذين انزعجوا من أصوات الترانيم. ولأقوى اليسوعيون صعوبات أكبر لإيجاد مقر مناسب لهم.

(١) - فروح المرجع السابق ، ص ١٢٧ ، ١٢٢.

(٢) - البساطي المرجع السابق ، ص ٢٠.

(٣) - هلال، المرجع السابق ، ص ٣٥٢.

(٤) الجاسر ، لمياء: مدارس حلب الأثرية ، دار الرصوان بطب ، ط ١ ، ٢٠٠٠ م ، ص ٥٠٨ - ٥٢٥.

وبمعوة التجار الأوروبيين تمكنوا من استئجار غرفة في حان الفرنسيين وغرفة أخرى جهزت كنيسة وفي عام ١٠٣٨ هـ / ١٦٢٨ م استبدلوا أماكنهم بعية التوسع ولحقوا هناك صعوبات فاشتروا شقة في خان الحبال ، حيث يقع الفصل الفرنسي، وسكنوا فيه عام ١٠٤٣ هـ / ١٦٣٣ م وبدأوا تجهيز الكنيسة.

وفي عام ١١٢٢ هـ / ١٧١٠ م قام اليسوعيون بمحاولة ليجرؤوا من الحان ويسكنوا في دار في حي العلوم ، وهو حي إسلامي راق مما أثار هتة ، وسب مشكلات انعكست على سائر المسيحيين.

و يمتد العصر الذهبي للرساليات التبشيرية في حلب بين عامي ١٠٧١ - ١١٤٣ هـ / ١٦٦٠ - ١٧٣٠ م، ويشير تقرير صادر في آذار عام ١١٠٨ هـ / ١٦٩٦ م إلى عدد ٢٧ كهداً لاتيياً في حلب ، ثلاثة منهم أمضوا أكثر من ثلاثين عاماً، وأربعة منهم أكثر من عشرين عاماً. وهناك تقرير عام ١٧٦٠ م يفيد بأن عدد من المبشرين في حلب ١٢ كاهن بجانب أكليروس كاثوليكي لا يستهان به.

وكان المبشرون على اتصال دائم مع مراكزهم الرئيسة في فرنسا أو روما من خلال المراسلات. واهتم المبشرون بشؤون الجاليات الأوروبية لأن ذلك كان مبرر مكوّنهم في حلب لدى السلطات العثمانية. أما العمل الأساسي للمبشرين فكان الاهتمام بالمسيحيين المحليين بعية إعادة إتحادهم بالكروسي الرسولي الروماني وتوطيد الإصلاح الترينتينى لديهم<sup>(١)</sup>.

وبذلك تم الاتصال بالفكر المسيحي الغربي من خلال المبشرين الأوروبيين الكاثوليك ، الذين قدموا إلى حلب بكثافة ، ومن خلال الطلاب الإكليريكين الذين درسوا في مدارس روما ، أو في مدارس فرنسا في عهد الملك الفرنسي لويس الرابع عشر. وعادوا إلى الشرق صالعين باللغات الأوروبية ، وأسهموا مع المبشرين في نقل الفكر العربي ، وتجلّى نشاطهم في تدريس اللغات الأوروبية ، كما قاموا بترجمة العديد من الكتب الحديثة ولا سيما الدينية.

وأثّر بعض المبشرين اللغة العربية فأخذوا يترجمون الكتب الدينية ، منهم الأب اليسوعي بطرس فروماح الذي خدم في حلب في مطلع القرن الثامن عشر ، وتوفي عام ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م فيها ، وكان يعمد إلى الشمس عبدالله الزلخر ليصحح له النص ويهدبه.

وكان من نتائج الانفتاح الثقافي والروحي على العرب ، أن نشأت للكنائس الشرقية الكاثوليكية في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين ، حاول أيضاً أنصار التقارب مع روما الجمع بين شراكتهم مع الكرسي الروماني ، الكرسي الأول والشراكة مع سائر البطاركة الشرقيين ، إلا أن الدهية التي كانت سائدة آنذاك كانت ترفض هذا التقارب ، وتحاول المحافظة على لشخصية المسيحية الشرقية لأرثوذكسية . وتؤمن بصحة معتقدها الديني على المذهب الأرثوذكسي.

(١) - ديك ، الحصور المسيحي ، المرجع السابق ، ص ٢٦ - ٢٧ - ٢٨.

وتأرمت العلاقات بين الشرق والغرب ، حيث كان كل فريق يحظى الأمر الذي حال دون الجمع بين الطرفين . وبطراً للمعاورات المختلفة ثمرت الوحدة التي كانت قائمة داخل كل طائفة<sup>(١)</sup> .

ولم يكن الأمر سهلاً ، ولا سيما أن الرأي العام العربي والإسلامي كان ينظر إلى الدين الكاثوليكي بظروته على أنه دين غريب وعدو ، لأنه دين الصليبيين الذين حاربوا المسلمين في بلاد الشام ومصر والمغرب العربي من خلال الحملات الصليبية ٤٩٠ - ٦٩٠ هـ / ١٠٩٦ - ١٢٩١ م .

ولذلك أوصى المبشرون حتى لا يثيروا للسلطنة العثمانية ، بضم بشر أفكارهم التبشيرية بين المسلمين ، وأن يبشروا بين المسيحيين كاهن لا كجماعة ، ولأن يكون منهم رؤساء الطوائف بالذات .

ولقد نجح المبشرون إلى حد ما بين بعض الطوائف المسيحية الشرقية ، فإعداد عدد معتققي مذهبهم ، الذين كانوا يندوبونهم إلى كنيستهم اللاتينية . وتشكلت مع الزمن كنائس متحدة مع روم . ومنشقة عن كنائسها الشرقية مثل كنيسة الروم الكاثوليك ، والسريش الكاثوليك والكندلي الكاثوليك .

وكانت الطريقة التي اتبعها المبشرون ، تشجع تشكيل حزب مؤيد للإتحاد مع روما بين رجال دين الطائفة ، ثم صمم انتخاب واحد من هؤلاء لكرسي البطريركية حين شعوره ، وأخيراً العمل على تدعيم الجماعة الجديدة المتحدة حول البطريركية غير المعترفين بها بعد . وكان نتيجة ذلك أن قام نزاع بين رؤساء الكنائس الشرقية المحلية والمبشرين الكاثوليك اكتفى طابعاً قومياً . فقد أخذ رجال الذين الشرقيون يعملون بكل قوتهم لتحصيل طوائفهم من المبشرين الأوروبيين الأغراب مذهباً ووطناً ولغة . وكان لهذا أثره في النمو التدريجي للشعور القومي العربي في القرن التاسع عشر<sup>(٢)</sup> .

وبذلك اعتنق المذهب الكاثوليكي عدد من الكهنة بكونتر الموالون لروما ، واعترف بعض الأساقفة المنتخبين شرعاً من قبل البطاركة بالإيمان الكاثوليكي ، ولأقوى هؤلاء صغويات للبقاء في مراكزهم ، وانتخب بعض الكهنة الكاثوليك على رأس أبرشيات كان المؤمنون فيها مورعين بين كاثوليك وأرثوذكس . وتوصل بعضهم إلى الكرسي البطريركي . وظل التيار الكاثوليكي والأرثوذكسي يتعايش ضمن الكنيسة الواحدة ، وقام الصراع بينهما بعد . إذ كان يحاول كل فريق تسلط قيادة الطائفة والحصول على الاعتراف المدني من السلطان العثمانية<sup>(٣)</sup> .

وتأرمت الأوضاع في القرن الثامن عشر ، إذ لجأت السلطات العليا الأرثوذكسية إلى السلطات العثمانية ، من أجل نفي الأحرار الكاثوليك ، وقامت السلطنة بالتشديد على المبشرين اللاتين ، كي لا يزوروا العائلات الشرقية ، لكي لا يتردد الشرقيون إلى كنائسهم . وتندد المجمع الروماني على الكاثوليك كي لا يشتركوا

(١) - بك الحضور المسيحي ، المرجع السابق ، ص ٥٢ - ٥٤ - ١٠٦ .

(٢) الصباغ - لمجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني ، المرجع السابق ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

(٣) بك الحضور المسيحي ، المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

بالقداشات مع الأرثوذكس ، فقامت سلطات كنسية متوالية بين الكاثوليك و الأرثوذكس . ولما ينس الأساقفة الكاثوليك من إمكانية الحصول على الاعتراف بهم من قبل السلطات العثمانية ، وكانو ملاحقين ، لجؤوا إلى لبنان الذي كان يتمتع باستقلال شبه ذاتي<sup>(١)</sup>.

وفي عام ١١٢٩ هـ / ١٧١٦ م حصلت للمسيحيين ملاحقة في حلب ، بسبب حضورهم الصلاة المقامة لراحة نفس الملك لويس الرابع عشر في كنيسة القسطنطينية لقرسية.

وفي عام ١١٨٣ هـ / ١٧٦٨ م أصدر رؤساء الطوائف الأرثوذكسية المسيحية بحلب بياناً جماعياً ، لمنع تردد النساء المسيحيات إلى كنائس المبشرين الإفرنج الواقعة في الأسواق القديمة ، وداحل الحانات ، وذلك درءاً للأخطار التي تتعرض لها النساء في لرحام الأسواق والمرور أمام المقاهي . واعتصرص المبشرون الكاثوليك على هذا المنع ، وكتبوا إلى مجمع انتشار الإيمان المقدس ، مدعين أن رؤساء الطوائف الشرقية بحلب قد اتخذوا موقفهم المتزمت هذا لا حرصاً على الأخلاق ، بل عيرة من إعراس المؤمنين عن كنائسهم والتفافهم حول المبشرين ، فجاء أجواب من روما لصالح المبشرين<sup>(٢)</sup>.

ولذلك نشطت الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية بحملات في تقريب المسيحيين الشرقيين ، وإقامة الصلات الحميمة مع روما . وقدم قناصل الدول الأوروبية كل أشكال الرعاية والحماية والامتياز والذي كان جذاباً للسكان المحليين . كما وهرت الإرساليات التعليم والتنظيم والمساعدات المادية والأخلاقية في أزمنة الطاعور والبعجات ، وحصلت على إعانات مائية من روما دعماً للقضايا المحلية ، وكذلك قدم السفير والقنصل الفرنسي الدعم من أجل شراء النفوس المحلية المسيحية . ومقابل تقديمهم للسلطة البابوية.

ولم يستلزم التحول إلى الكنيكة تعبيراً ملحوظاً في الطقوس الدينية والعادات والمعتقدات الخاصة بالمتكاثكين ، إلا أنه عطلت بطرنتهم وهويتهم بأساليب مهمة ، فقد أصبحت روما للمركز الروحي ، وأصبح الكاثوليك الأوروبيون أحوة لهم بالدين ، وكان حاميتهم ومحسبيهم قد استحبوا من كنائسهم بانكسار مرير مصا أفلق العالم المسيحي الشرقي.

والموارنة هم الذين قبلوا السلطة البابوية كتصرب تعاوني ، أما هرمة الكنائس الثلاث الأخرى فقد حاربت بصراوة ضد الجهود التبشيرية للإرساليات ، إلا أنها أخفقت في التعطب عليها<sup>(٣)</sup>.

(١) - ديك : الحصور المسيحي ، المرجع السابق ، ص ٢٠٧ .

(٢) ديك : الحصور المسيحي ، المرجع نفسه ، ص ١٣٧ - ١٩٠ .

(٣) - ماركوس : المصدر السابق ، ص ٥٨ - ٥٩ - ٦٠ .

ورحلت سجلات المبشرين بتقديرات عديدة فاقت بكثير تلك التي أوردها اليسوعيون عام ١١٢٦ هـ / ١٧١٤ م ، عندما ادعوا أن عدد الذين بدلوا بالكتول<sup>(١)</sup> لديهم يومياً ترلوح بين خمسمائة وستمائة مؤمن. وإذا ما كانت هذه الأرقام صحيحة فإن ذلك يعني أن نسبة كبيرة من مسيحي حلب كانوا من الكاثوليك.

ودفع التحول المسيحي نحو الكاثوليكية بالهرمية الكنسية الأرثوذكسية إلى التقدم للسلطات عريضة بطانيون بالعمل على تقويم الوضع ، ونتيجة لذلك أرسل الباب العالي أمراً إلى والي حلب ١١٢١ هـ / ١٧٠٩ م ، يعلمه فيه بوجوب منع المسيحيين المحليين من حضور القداس اللاتيني الذي كان يحتفل به بانتظام في حائل الشيباني، وعلى نحو مرعوم للتجار الكاثوليك الفرنسيين. فكانت النتيجة إغفاء كل من كان يرتاد الحان المذكور لهذه العاية ، وإبداعه المسج.

وهي تقرير رفع إلى السلطان العثماني عام ١١٤٦ هـ / ١٧٣٣ م اعترف بطرقة الأرثوذكس في كل من إسطنبول والقدس وأطاكية ، باعتناق معظم من كان ملكياً بباقة الفرنجة (الكثككة).

أما فيما يتعلق بما تبقى من الرعية ، فقد أصر البطاركة على ولائهم ووفائهم للأرثوذكسية وللسلطان العثماني على حد سواء<sup>(٢)</sup>.

وهي عام ١١٩٦ هـ / ١٧٨١ م صدر من الباب العالي أمر إلى حلب ، أدل بطريرك هذه المدينة في إرام الإكليروس التابع له بممارسة الشعائر الدينية وفق الأعراف والطقوس الأرثوذكسية طالياً فيه إصلاح لأمر<sup>(٣)</sup>.

وهي إطار جماعة الروم ، وهي الأكثر عدداً ، انتهت عملية التحول إلى روما إلى أرمه عام ١١٣٥ هـ / ١٧٢٤ م وإلى انفصال تام بين الأرثوذكس واللاتين. وتصر قوة التحول هذه بمقدرة هذه الإرساليات وقوتها من ناحية ، بالإضافة إلى أسباب محلية أبرزها المصالح التجارية للمسيحيين ، وعدم ارتباط الروم أنفسهم إلى الرهبان الساطقين باليونانية ، وإلى دعم قناصل فرنسا. وفي نهاية القرن الثامن عشر ، أصبح اللاتين يمثلون الطائفة الأكثر عدداً.

واضطرت السلطات العثمانية للتدخل مرات عديدة ، وبناء على طلب من الأرثوذكس الذين تأثروا بالنزيف الذي كان يضربهم ويضعفهم ، ١٠٧١ هـ / ١٦٦٠ م ، ١٠٧٩ هـ / ١٦٦٨ م ، ١١٢١ هـ /

(١) التناول وهو أحد أسرار الكنيسة السبعة ، ويعوم به الكاهن ، حيث يقول به المؤمن جسد السيد المسيح عليه السلام ودمه الكريمين لمعمدة الخطي ، ولحياة الأبدية ، والمتمثلين بالبحر والخبز. انظر سيم روح - لصدر الأوروية في العصور الوسطى ، منشورات جامعة دمشق ، ط ٢ ، ١٩٩٩ م ، ص ١٧٢

(٢) - بروم المرجع السابق ، ص ١٦٦

(٣) - بروم المرجع نفسه ، ص ١٧٥



١٧٠٩ م ، ١١٧٣ هـ / ١٧٥٩ م ، ١١٨٢ هـ / ١٧٦٨ ، ١١٨٦ هـ / ١٧٧٢ م ، ١١٩٢ هـ / ١٧٧٨ م. ولكن تدخلها كان يتوقف على العموم لدى توقف للمهازل التي تضع بدورها حداً للعنف<sup>(١)</sup>.

وتم تسجيل انتصار لحركة المتحدين مع روما في طائفة الروم في حلب ، كما نجحوا في الاستحصال على أمر من والي حلب وقاصيها ، بجبر تعيين مكسيموس الحكيم وهو حلي. مطراناً على شؤون أبرشيته عام ١١٤٢ هـ / ١٧٢٩ م.

وقد صدر فرمان سلطاني موجه إلى والي حلب وقاصيها ، لمعاينة الراهب مكسيموس بالسجن أو النفي لقيامه بالفساد والتصليل ومحاولة تحويل الطائفة الرومية إلى طائفة إرجية كاثوليكية ، حيث قام بإجراء الطغوس الدينية حسب أوامر بابا روما ، مما يسبب حدوث فتنة بين الطوائف<sup>(٢)</sup>. وتمكن الكاثوليك في طائفة الروم من تولي هذا المنصب معظم القرن الثامن عشر الميلادي<sup>(٣)</sup>.

وكان لوجود تجار الجاليات الأوروبية الذين فتحوا الطريق إلى حلب ، أمام إرساليات المبشرين الوافدين إليها من العرب ، فما كان من هؤلاء إلا أن وجدوا في مريج المهاجرين الذين صاقت بهم أوطانهم ، وبناتوا هائمين على وجوههم في المدينة ، أرضاً صالحة لاحتواء وتثمين بدور عبيدتهم ، فجاءت تقاريرهم التي دفعوا بها إلى رؤسائهم حافلة بالحركة الدائمة لرجال ونساء قاموا بحجار عقائدي حولوا بموجبه ولائهم في الشؤون الدينية من البطريرك إلى البابا. وشكل الكاثوليك في نهاية القرن السابع عشر ، ثلاثة أرباع السريان<sup>(٤)</sup>.

ولوحظ بأن شأن الإرساليات التبشيرية كان محصوراً بين المسيحيين المحليين فقط ، لأن ارتداد المسلمين أو اليهود يعتبر أمراً خطيراً. ومن سوء تصرفات وسلوك المبشرين أنهم سبوا جدالات لاهوتية عميقة ، وظهر جيل من الكاثوليك المتعصبين وصيقي الأفق يحبذون الجدل العقيم عوضاً عن توحيد المسيحيين تحت سقف العقيدة الواحدة بالتفاهم المتبادل<sup>(٥)</sup>.

حيث بدأت تنتشر العقيدة الكاثوليكية والآداب اللاتينية بالتغلغل في المدن كأنطاكية وحلب واللاذقية وغيرها بسبب اجتياحات الصليبيين إلى بلاد الشام. وكانت النتيجة جدالات حادة وصراعات مستمرة بين الكيسين الكاثوليكية والأرثوذكسية على أرضية المانع المادية والخيرة ، وأفسحت المعارك الدينية السياسية مجالاً واسعاً لتدخل واسع للسلطنة العثمانية. وكانت روما وبحجة نشر الإيمان بدأت بالتدخل أكثر فأكثر بين

(١) - ريمور المرجع السابق ، ص ٤١٠

(٢) - الفرمان رقم / ٦٢٢ / تاريخ الفرمان (١١٦٣ هـ) ، من سجل / ١ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٣٤٥ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٣) - بروم المرجع السابق ، ص ١٦٩.

(٤) - بروم. المرجع نفسه ، ص ١٦٤.

(٥) - سورجاييل: المرجع السابق ، ص ٢٩٥

المسيحيين السوريين ، وحالكت للفتن بينهم ، ونجأت إلى الوسائل المسلمية للسيطرة على أرواح الهراطقة .  
وبالتالي حرت في مدينة حلب الإسلامية أحداثاً مأساوية وإراقة نماء غريزة عام ١٢٣٤ هـ / ١٨١٨ م ،  
حيث انفجرت الأحداث الداخلية بين اليونانيين أنفسهم (الروم) في حلب ، وأدى ذلك إلى سقوط ضحايا عديدة  
وقد أعلم غريغوريوس الخامس البطريرك المصكوبي للروم الأرثوذكس في إستانبول الباب العالي ١٢٣٤ هـ /  
١٨١٨ م حول وجود بعض الأفراد الذين لا يطعونه ولا يدفعون الصريبة المخصصة عليهم ،  
ويرفضون الصلاة في كنائسه ، ويتبعون الكهنة الكاثوليك الأجانب أو يصلون في بيوتهم ، ورداً على ذلك  
أصدر السلطان العثماني محمود الثاني فرمان في ٢٤ شباط عام ١٨١٨ م وأمر الوالي في حلب أحمد  
حورشيد باشا بما يلي:

١- نفي الكهنة المياليين لللاتين ٢- منع رجال الدين اللاتين من زيارة بيوت اليونانيين<sup>(١)</sup>.

تتنافس المبشرين: لو كان التبشير دعوة حير لما تنازعت الإرساليات التبشيرية فيما بينها بل لما  
تنافست فرقهم ومذاهبهم ، والدليل القائم على ذلك بمبشيريها أنه كان لأهل كل مذهب ديني ، وهم يبشرون  
به. هوئ سياسي معين ، ولقد كانت الدول تهتم بمبشيريها لا اعتقادها أنهم طلائع عودهم ومقدمات لتبسطها في  
الأرض<sup>(٢)</sup>.

و كان المبشرون يعملون بطرق مختلفة ، كالتعليم مثلاً على تهيئة شخصيات شرقية لا تقاوم التسلط  
الأوروبي. فكان التبشير الديني نفسه ستاراً للتبشير التجاري والسياسي وأساساً متبياً للاستعمار. وإن أكثر  
الفتن الداخلية في الشرق ، من دينية وسياسية واجتماعية ، إنما قام بها المبشرون ومن تبعهم<sup>(٣)</sup>. وأكبر مثال  
على ذلك اليسوعيون الذين كان لهم صولة في السلطنة العثمانية ، لأن الدول الغربية عموماً وفرنسا وإيطاليا  
والبابوية خصوصاً كانت تحميهم وتؤيدهم ، علماً أن فرنسا قد طردت اليسوعيين من بلادها ، في حين كانت  
تتفق عليهم في الخارج الكثير من الأموال. وذلك لأن فرنسا كانت ترسل هؤلاء إلى الخارج عمالاً سياسيين  
لها ودعم اجتماعية لأرائها وحالقي مشاكل في سبيل مصالحها. وكانت لهم في الخارج الصنم الذي  
يعبدونه. وكان اليسوعيون يعدون كل تعرض لفرنسا تعرضاً للبابا نفسه<sup>(٤)</sup>.

وإن المباشرة الشديدة التي خاضها اليسوعيون والعربيسكان ، للتبشير بالإنجيل ، أوردت بسرعة صداماً  
حاداً ، كانت له خيبة أمل كبيرة لدى القنصل والتجار الفرنسيين ، وقد أدت بالفرنسيسكان ، وكذلك  
بالبطريرك الماروني ، إلى طرد اليسوعيين. ففي بداية القرن الثامن عشر ، إرداد عدد المسيحيين المرتنطين

(١) سورفيس: المرجع السابق ، ص ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٢) - فروج: المرجع السابق ، ص ٥٤.

(٣) - فروج: المرجع نفسه ، ص ٥٧.

(٤) فروج: المرجع السابق ، ص ١٢١.

بروما كثيراً ، ويذكر أحد المؤرخين لتلك الفترة الحادثة التالية " لم يفأ القنصل عن الاحتجاج على تهوور المتديبين. ففي عام ١١٤٥ هـ / ١٧٣٢ م لصطر القنصل إلى معادرة كنيسة الفرنسيين في عيد الفرياس المقدس بسبب تقدم عدد ضخم من النساء الحنبيات للفرياس ، على الرغم من أوامر والي حلب " وبذلك ارداد عدم الطائفة الكاثوليكية في حلب ، بفصل الإرساليات التبشيرية والدعاية العقائدية ، وكذلك التظاهرات العنيفة أحياناً ، لمعارضهم من الطوائف القديمة الممثلة برؤسائهم لدى الإدارة العثمانية.

كل ذلك كان عاملاً في إضعاف تركيبة مدينة حلب ، وخاصة فيما يتعلق بوضع التابعين لها ، وحماية المسيحيين ، وأدى بالتالي إلى ترسيخ الطبيعة الإسلامية الرئيسية لولاية حلب<sup>(١)</sup>.

ويجب أن نعلم أن الهدف الأساس لأعضاء الإرساليات التبشيرية لم يكن نصير السكان ، بل كان لها أهداف سياسية واقتصادية واجتماعية سعوا لتحقيقها لمصلحة الدول الأوروبية التي بعثت بهم إلى حلب وغيرها من بلاد الشام. حيث كان المبشرون يصممون العداوة والبعضاء للعرب المسلمين ، وللمسيحيين المختلفين عنهم مذهباً. كما كانت للمبشرين أهداف شخصية شوهت اسم المسيحية في الشرق.

وأوجس المسلمون والمسيحيون المختلفون عنهم والسلطات العثمانية حجة من نشاطهم إذ نظروا إليهم نظرة الريبة ، ورأوا فيهم بؤائر تسلل استعماري غربي ، وأنهم يشتمرون وراء وطيفتهم التبشيرية. كما رأى هيهم الأرثوذكس تهديداً خطيراً لكرابهم الديني<sup>(٢)</sup>.

## ب - وسائل الإرساليات التبشيرية:

سلكت الإرساليات التبشيرية لتحقيق ما نصبو إليه من غايات وأهداف طرقاً شتى ، لذلك لم تترك باباً إلا وطرقته ولا وسيلة إلا واستعملتها. ومن أبرز تلك الوسائل كانت: المدارس والتطبيب وزيارة البيوت والوعظ والأخويات والجمعيات الدينية.

١- المدارس التبشيرية: حرص المبشرون على إفساد النبل الإنساني وجعل العلم ، الذي هو نعمة في سبيل تحرير الإنسانية ورقبها ، وسيلة إلى استعباد الأفراد والأمم ثم سوقهم بسوء الاستعمار إلى الاستكانة أمام سلطان السياسة المادي.

لقد سحر المبشرون اسم الله تعالى في سبيل تزويج بصائع أمهم ونشر الفساد الاجتماعي في العالم. وكانت من أولويات تلك المدارس أن تنقل للطلاب من مذاهب مختلفة إلى مذاهبها هي<sup>(٣)</sup>.

(١) دلفيد ، جان كلود ، جورج ، جيرار دو. حلب هي مدرسات العنمية ، ت. محمود حريزقي ، دار فلاحيرين ، باريس ، ٢٠٠٢ م . ص ٩٤-٩٥

(٢) - للشامي المرجع السابق ، ص ٧٤٥.

ويذكر الدكتور عبد الفتاح أحمد في كتابه: التبشير الصليبي والغزو الاستعماري أنه قد (وصل عدد من المبشرين اليسوعيين والعاراريين وغيرهم إلى سورية عام ١٦٢٥ م ، وأسسوا بعض المدارس في دمشق وحلب ، وقد أصبح واضحاً أنه من شأن المدارس التي يقومون بإنشائها في المناطق التي يصلون بفودهم إليها ، أن تعتبر بالدرجة الأولى مؤسسات للدعوة ، وطرح الفكرة العلمانية التي تحمل معها الآراء النصرانية، وتنتهي إلى تدوين شخصية الفرد)<sup>(١)</sup>.

وأدى افتتاح تلك المدارس ، إلى انتشار الثقافة الأوروبية ، فمثلاً المسيحيون في حلب، وأظهروا شعفاً وعشفاً للحضارة الغربية ولغتها ، فبنى كثيرون منهم هذه اللغة ، ونحدثوا بها كما لو كانت لغتهم الأم<sup>(٢)</sup>.

أما المدارس التي عمل الرهبان الأوروبيون على تأسيسها في حلب ، فقد عيّنت بتلقيش المعارف المستقدمة من أوروبا كالعلوم والرياضيات بالإضافة إلى اللغات الأجنبية. والجدير بالذكر أن هذه المدارس وصفت في عهدة اكليروس المتحدين ، الناطق باللغة العربية ، التزاماً بما فرضه الباب العالي عليه على الأوروبيين في ممارسة نشاطهم الديني ، ولكن مناهج الدراسة بقي في معظمه على ما هو عليه ، فلم يطرأ عليه أي تغيير. وما لبث أثناسيوس الثالث دباس ، وهو أحد المطارنة المؤيدين للكاتوليكية والذي كان قد درس فن أصول الطدعة في روما ، أن أسس في حلب أولى المطابع في السلطنة العثمانية عام ١٧٠٦ م. وبقيت المطبعة قيد الاستعمال لما يقارب عقداً من الزمن ، قبل أن تلقى معارضة من الطائفة الأرثوذكسية.

واستطاع اكليروس المتحدين الإفادة من تنصوص المطبوعة المشتملة على الخلاصة الجديدة للعقيدة المسيحية ، وعلى الكتب المقدسة وغيرها من النوازل الدينية باللغة العربية. ففي عام ١٧٢٥ م ، تلقى والي حلب وقاصها أمراً من الباب العالي ، يجبر فيه ثلماكين لستعمال وتوزيع المواد التربوية التعليمية والكتب المقدسة المطبوعة باللغتين اليونانية والعربية في مدارسهم بكل حرية<sup>(٣)</sup>.

كان الطلاب في المدارس التبشيرية يدرسون لغيرانية ، ويتدربون على القراءة والكتابة الإيطالية ، وعلى الرياضيات ، ويدرس الطلاب اللغات اليونانية والعربية واللاتينية والعربية ، وكان المبشرون يرغبون استقاء بعض الدعوات الكهنوتية لإرسالها إلى المدارس الرومانية.

وكان كتاب القراءة المعصل كتاب المزامير ، وكتاب الإقتداء بالمسيح. وكان التدريس يعتمد على الحفظ. وكان المبشرون يحرصون على أن ينقل الطلاب إلى أهاليهم كل ما يتعلمونه في المدرسة<sup>(٤)</sup>. ثم أصبح كتاب

(١) - فروخ المرجع السابق ، ص ٦٦ - ٦٧

(٢) - أحمد عبد الفتاح التبشير الصليبي والغزو الاستعماري ، دار الجهاد ، ط ١ ، ١٩٨٨ م ، ص ٨٠.

(٣) - النباع: المرجع السابق ، ص ٣٦.

(٤) - برومي المرجع السابق ، ص ١٧٢ - ١٧٣.

(٥) - كان الطلاب يحضرون قداس كل يوم ويتلون طلبة العزاء والصلاة الربية والسلام الملائكي وقانون الإيمان صباحاً ومساءً.

التعليم المسيحي من صلب تدريس اللغة العربية ، وبهمة الفتحى الفرنسى بيكيه قامت محاورات دينية للكنار والصغار في كنيسة السريان بإرشاد الآباء اليسوعيين<sup>(١)</sup>.

هذه المدارس التبشيرية لم تكن تقبل إلا للصبيان، ولم تكتشأ المدارس للبنات إلا في القرن التاسع عشر. واهتم المبشرون بتقفيهن الديني وكانوا يجمعونهن في الكنيسة يوم الأحد للتعليم الديني ، ويدربون بعضهن على تقفيهن الفتيات في بيوتهن<sup>(٢)</sup>.

وكان المدرسون في المدارس التبشيرية يتعرضون لمحاكم عملي بعد، بمثابة اختبار بصدق المدرسين الذين يعملون في المدارس المذكورة. بحيث يتم التأكد أنهم يعملون حثيثاً على تطبيق المبادئ التي يتفق عليها. ولهذا يكون كل المدرسين مبشرين للتعليم الأجنبي<sup>(٣)</sup>.

وهكذا بدل المبشرون كل جهد لاستخدام العلم والتعليم في سبيل التبشير. غير أن لتبشيرهم طاهر وبطناً. أما ظاهره فدعوة إلى سلوكهم لا يملكونه ، وذلك دعوة على كل حال لم تتم. وأما باطن التبشير فهو تفكيرك أوامر القربى الروحية بين المسيحيين في السلطنة العثمانية ، حتى يستطيع العرب أن يحكم الشعوب ويستقل بلادها اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً<sup>(٤)</sup>.

٢- التطبيب: لقد أدركت الإرساليات التبشيرية هذا الميل في البشر، فخرجوا عن كل نبل في الطبيعة الانسانية ، وسحروا الطب في سبيل غاياتهم يسمعون إليها ، فكانوا يقولون حيثما نجد بشراً تجسد الآمناً ، وحيثما تكون الآلام تكون الحاجة إلى الطبيب ، وحيثما تكون الحاجة إلى الطبيب فهناك فرصة مناسبة للتبشير. وهكذا اتحد المبشرون الطب ستركلاً للتقرب من المرضى.

ولا ريب في أن الطبيب يستطيع أن يصل إلى جميع طبقات المجتمع حتى أولئك الذين لا يحالطون غيرهم. ولذلك رأى المبشرون أنه بإمكان الطبيب المبشر أن يصل تبشيره إلى جميع طبقات المجتمع بواسطة المرضى الذين يعالجهم ، لذلك عنى المبشرون بالتطبيب على أنه وسيلة للوصول إلى غاية. فمثلاً اليسوعيون قد أسسوا أكثر أعمالهم التبشيرية في سوريا عامة وحنبل خاصة إلى جانب مركز التطبيب. وفي هذه المراكز وجهوا عنايتهم الأولى إلى كبار الموظفين وإلى الأعيان ، وكانوا يستعملون ذلك لأهداف تبشيرية<sup>(٥)</sup>.

(١) - ديك الحضور المسيحي ، المرجع السابق ، ص ٤٠.

(٢) - ديك الحضور المسيحي ، المرجع نفسه ، ص ٤١

(٣) - أحمد - المرجع السابق ، ص ٨١.

(٤) - فروخ - المرجع السابق ، ص ٤٠.

(٥) - فروخ - المرجع نفسه ، ص ٥٩ - ٦١.

### ٣- النشاط الرعوي: زيارة البيوت والإرشاد وسماع الاعترافات: إن نشاط المبشرين لدى المسيحيين

الشرقيين لم يكن مخصصاً به رسمياً من السلطنة العثمانية. ولدى الأزمات كان يحظر على الشرقيين التردد على كنائس المبشرين.

فكانت زيارة العائلات في البيوت تشغل الجانب الأكبر من نشاط المبشرين. فعندما يدخل المبشر أحد البيوت، حيث يعيش ثلاثة أو أربع أسر يلتف حوله النساء والأولاد، فيخرج صليبه من ثوبه ويديههم أنه لا يقبل منهم لا ذهب ولا فضة، ويرفض أي مأكّل. ويبدأ بالسؤال عن أحوالهم، وإذا كان الأولاد يمارسون الصلاة ويجعلهم يرسمون إشارة الصليب، ويعلمهم تلاوة الصلاة الربية ويحرصهم على طاعة أهل وتحاشي السرقة والشتائم ورفقة سوء. وعندما يعرضون عليه مشكلاتهم يفتق عليهم النصائح والتشجيع، ويعدّهم بالمساعدة، ويورع بسحاء الصور القويّة والميداليات، ويترك لهم كتيبات مخطوطة تشرح أسرار الإيمان الكاثوليكي.

ولا تقتصر زيارة المبشرين على البيوت فحسب، بل تشمل أيضاً أماكن العمل، فبينما الرجال يعملون في القبصريات حيث أنوال النسيج اليدوي يزورهم المبشرون. ويطلبون إليهم أن لا يتوقفوا عن العمل، بل أن يعيروهم فقط إصغاءهم ويصنعوا لهم قلوبهم. فينتقل المبشر إلى نقاط الحلاف بين العربيين والشرقيين فيكررون على ضرورة الرئاسة العليا الواحدة في الكنيسة. وكانت الكنائس الشرقية أكثر تساهلاً في هذا المصوغ، ولصاع الكثيرون للمبشرين وأقروا لهم بخطاياهم.

وكان المبشرون يعيرون أهمية كبرى لسماع الاعترافات ولاشتراك المؤمنين بالقداس يوم الأحد وتناول القربان المقدس<sup>(١)</sup>.

وكان الوعظ التوجيهي يجري في الكنائس الصغيرة التي أقامها المبشرون في أديرتهم، أو في محل إقامتهم. ويلاحظ أن كنيسة المواربة في حلب، قد وصفت بظاناً خاصاً لوعظ المبشرين، بحيث يكون أسبوعاً فأسبوعاً، أولاً لليسوعيين، ثم للكبوشيين، ثم للفرسييسكان، وأخيراً للكرمليين.

وكان الوعظ التبشيري يدوم أكثر من ساعة في كل مرة، ولم تكن السلطنة العثمانية مهتمة بتلك الزيارات والتوجيهات طالما أنها تجري في إطار رعاياها المسيحيين لا للمسلمين لكن تنه الرؤساء الروحيون الدييون للطوائف الشرقية الذين أخذوا يشعرون بعبود المبشرين الأوروبيين بتغلغل بين رعاياهم، واحتطاف واحد تلو الآخر، وقد بينوا للسلطنة العثمانية أن هدف المبشرين هو إخضاع مسيحيي حلب لسلطة البابا عدو السلطان، وأمام هذا، أصدرت السلطنة بالاتفاق مع الأساقفة للشرقيين أمراً بمنع المبشرين من

(١) ديك للحضور المسيحي، المرجع السابق، ص ٤١ - ٤٢

دحول مارل الروم والسريال وكناثسهم ، كما تحظر على المسيحيين الشرقيين الذهاب إلى الكناثس اللاتينية<sup>(١)</sup>.

٤ - ترجمة الكتب الدينية: شطنت حركة الترجمة مع دحول المبشرين مدينة حلب ، خاصة من اللعتين لإيطالية والفرسية ، إلى اللغة العربية.

ومع بهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر الميلادي بدأت حركة التأليف تنشط ، ويعود أهم أسبابها إلى الانفتاح الفكري نحو العرب الأوروبي ، وخاصة فرنسا ، التي كان لها دور كبير في نشر المعرفة - لحساب نشر المذهب الكاثوليكي - بواسطة قناصلها المقيمين في حلب ، ورهبانها المبشرين ومن أجل خلق جيل جديد من الكليروس المسيحي ليخدم الكتلة حب تعاليم روما ، لذلك تم تأليف وترجمة عدد كبير من الكتب إلى اللغة العربية أهمها:

كتاب ميزان الرمان تأليف الأب يديريغ اليسوعي ، تعريب الأب فروماج والشماس عبدالله الراحر ، طبع في حلب عام ١١٤٧ هـ / ١٧٣٤ م.

كتاب تأملات روحية ، تأليف أحد الرهبا الكرمليين طبع عام ١١٤٩ هـ / ١٧٣٦ م.

كتاب مرشد المسيحي ، تأليف الأب دونرمان ، تعريب الأب فروماج والشماس عبدالله الراحر ، طبع عام ١١٥١ هـ / ١٧٣٨ م.

كتاب أساطيل العالم ، للراهب الفرنسيكاني ديداكس ستيل ، طبع عام ١١٥٢ هـ / ١٧٣٩ م.

كما ألف أحد المبشرين الكوشيين كتاب الفلسفة لرياضية في اللاهوت الأدبي، طبع عام ١١٥٧ هـ / ١٧٤٤ م<sup>(٢)</sup>.

٥ - الأخويات والجمعيات للتقوية: عمد المبشرون إلى إنشاء أخويات تدرب المنتسبين إليها على التعمق في مفاهيم الإيمان والالتزام بالصلاة وأعمال البر. ولما تازت حلب بتنوع أخوياتها وكثرة المنتسبين إليها ، وقد تنافس المبشرون من مختلف الجمعيات الرهبانية في تأسيسها وتنشيطها وانحطط فيها العديد من الشرقيين. وكانت الأخويات مفتوحة لجميع الطوائف ، وجميع الأعمال ، ومنها محتصة بجهات معينة.

وبعد أن أسسها المبشرون أصبحت معظمها فيما بعد بإدارة الكليروس الشرقي الكاثوليكي. وأهم الأخويات:

١- الرهبنة الفرنسيةكانية الثالثة: أنحلها الفرنسيكان منذ القرن السابع عشر، وكانت تصم بنوع خاص المتأثرين بممارسات الطقس اللاتيني ، وانتشرت بشكل واسع في مطلع القرن الثامن عشر.

(١) - الصباغ الجليليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٨٢٢ - ٨٢٥ - ٨٢٦.

(٢) - كحالة ، جورييف. عبدالله الراحر الحلبي ، المطبعة الرقمية ، جامعة حلب ، ط ٢ ، ٢٠٠٦ م ، ص ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨.

٢ - كان اليسوعيين عام ١١٤٣ هـ / ١٧٣٠ م حلقة من المتعبدات يهتمون بإرشادهم، وقد ترجم لهم الأب فروماج قانون رعدة للزيارة.

٣- وفي عام ١١٩٩ هـ / ١٧٨٤ م أسس أحد المبشرين للعارفين الذين حلفوا اليسوعيين في حلب بعد حل رهبنتهم ، أخوية تقوية للأخوات المتعبدات للعائشات في العالم<sup>(١)</sup>.

### ج - موقف الدول الأوروبية من الإرساليات التبشيرية:

كس رجال الدين الأوروبيين هم المسؤولون عن بركات الشرق السياسية والحلقة ، وعن العنق التي كانت تحدث بين أهل الأديس والمذاهب ، وأن أهل الوطن الواحد على اختلاف أدينتهم ومذاهبهم ، كانوا دائماً ضحايا بريئة.

ولما رأى المبشرون أن الجهود الفردية في نشر المذاهب المسيحية الغربية في الشرق ، ذات مردود محدود ، لجأوا إلى سبيل أحسن تمهيداً وأشد تأثيراً ، وهي حكوماتهم الأوروبية طلباً لمزيد من العون.

وبعد أن رضى المبشرون أن يجعلوا أنفسهم والدين أمة طيعة في يد دولهم ، انتهزت تلك الدول هذه الفرصة ، وأخذت تساعد الإرساليات التبشيرية. ساعية من وراء ذلك تحقيق أهدافها السياسية والاقتصادية الخاصة باستغلال المبشرين والدين<sup>(٢)</sup>.

وساعد الدول الأوروبية الكثرة العددية في عدد الطوائف الدينية المسيحية ، فعملت مع البابوية على توثيق صلاتها بالطوائف الدينية غير الإسلامية وبزعمائها ومؤسساتها الدينية والتعليمية وغيرها. وأخذت تمدهم بالأموال ورجال الدين والتعليم<sup>(٣)</sup>.

وحاولت البابوية والدول الأوروبية اللاتينية شق صفوف الطوائف المسيحية النشطة في حلب ، لتحويلها إلى فرق متصارعة ومتضادة عبر دبلوماسيتها ومبشراتها كي تتدخل بينها وتسيطر عليها. فاشتد الصراع بين الطوائف ، حتى وصلت الأحوال إلى درجة احتلال أحد الطرفين لكنائس وأديرة ومؤسسات الطرف الآخر بمساعدة السلطات السياسية والعسكرية والقضائية ، وذلك برشوة تلك الجهات بمبالغ كبيرة ، وكان الخاسر الأكبر هو المواطن النقي البسيط في الطوائف المسيحية.

(١) - ديك الحصور المسيحي ، المرجع السابق ، ص ٤٢ - ٤٣

(٢) - فروج ، المرجع السابق ، ص ١١٣.

(٣) - الشاوي ، المرجع السابق ، ص ٧٤٧.



وفي كل مرة ، عندما يعين دبلوماسي أوروبي ، كان رعاء جميع الطوائف المسيحية تبارك له منصبه الجديد ، وكان هذا السيامي الأوروبي وبسبب حسه الدبلوماسي والمهام الدبلوماسية السرية التي حملها معه لصالح دولته يجلب أفراد الطوائف المسيحية<sup>(١)</sup>.

ولذلك كان لقنصل الجاليات الأوروبية علاقات طيبة ليس مع ولاية حلب وقصائنها ، بل مع رجال الدين أيضاً. وكان بين هؤلاء القنصل بعض الشخصيات كلقنصل الفرنسي دارميو الذي حصر فداديس الكنيسة السريانية والأرمينية في حلب عام ١٦٨٠ م. ووصف طقوسهما الدينية في مذكراته بشيء من التفصيل ، واشترك في الولائم التي أقيمت على شرفه<sup>(٢)</sup>.

ومع القرن السادس عشر الميلادي اتبعت في سياسة فرنسا ذلك الهدف الذي كان يصبو اليه الملك لويس التاسع إلى تحقيقه ، وهو إنشاء سورية بفرنجة في الشرق ، بل تلك الأمنية التي كانت أحب ما يداعب خيال الملك ، والتي وضعها في مذكراته بأنها لو تحققت فسوف لا تعتبروا أن تكون فرنسا المشرق ، دولة يسمها الطابع الفرنسي ، نجد في فرنسا الأم الروحية لها والدولة التي اتبعت عنها ، والوصي الطبيعي عليها. ومن أجل هذه العاية تولت الإرساليات التبشيرية ، وتولى مبعوثوا فرنسا وقنصلها إعداد العناصر التي تؤلف منها الدولة المرجوة سوريا الإفرنجية ، وتوجيهها للعمل في ظل سياسة معينة<sup>(٣)</sup>.

وعندما سلم الملك لويس الرابع عشر الحكم في فرنسا ، رسم في ذهنه تحقيق هدف حصول فرنسا على اعتراف رسمي من الباب العالي بحقوقها في حماية المسيحيين الكاثوليك في أرض السلطة العثمانية ، وكان المرمى البعيد له تحقيق السيطرة الروحية لفرنسا على السلطنة العثمانية عن طريق نشر المذهب الكاثوليكي مبتدئاً وفي حذر شديد ، بالطوائف المنشقة عن كنيسة روما ، ولم يكن ذلك ممكناً إلا بالتوسع في الإرساليات التبشيرية والامساك الفرنسية منها<sup>(٤)</sup>.

وتمكن السفير الفرنسي في إسطنبول من عقد معاهدة مع السلطان العثماني أحمد الأول في شهر أيار عام ١٦٠٤ م ، وبموجبها تجددت الامتيازات السابقة للموقعة عام ٩٤٢ هـ / ١٥٣٥ م ، وأضافت إليها امتيازات جديدة أهمها الاعتراف بملك فرنسا بحق حماية المسيحيين الكاثوليك من رعايا ممالك أوروبا في الشرق ، والسماح لرعايا ملك فرنسا ورعايا أصدقائه وحلفائه بزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين بكل حرية ودون أي عثر أو حظر.

(١) سورميان - المرجع السابق ، ص ٣٠٧

(٢) - سورميان : المرجع نفسه ، ص ٤٠٤ - ٤٠٥.

(٣) لغيت - المرجع السابق ، ص ١٠٣ - ١٠٤

(٤) - لغيت - المرجع نفسه ، ص ٩٩.

والمرة الأولى ورد ذكر رجال الدين الأوروبيين ، في معاهدة سياسية مع الدولة العثمانية ، حيث سمح لهم إذا شاؤوا أن يعيشوا في الأماكن المقدسة أو في أماكن أخرى من أراضي السلطنة ، وأن يعملوا بالطمأنينة وبحرية التنقل<sup>(١)</sup>.

وحصل نتيجة سياسة فرنسا ارتباط وثيق بين الكنائس الشرقية بأوضاع أوروبا ، ففي عام ١١٢٦ هـ / ١٧١٤ م احتفل في كنيسة الأناة للفرنسيين وفي سائر الكنائس بحلب الجبار من أجل راحة نفس الملك الفرنسي لويس الرابع عشر الذي نعي إليهم. وأبنة الأب اليسوعي هرنودي بخطاب بليغ<sup>(٢)</sup>.

وكذلك كان هناك أيضاً ارتباط وثيق بين القنصل والسفراء الأوروبيين في ولاية حلب مع وزراء الخارجية في دولهم ، فكانوا يقومون بإطلاعهم على كل ما يجري ، وخير مثال على ذلك ما قام به القنصل الفرنسي في حلب غسباردي بيليران ١١٣٥ - ١١٤٣ هـ / ١٧٢٢ - ١٧٣٠ م الذي كتب رسالة إلى وزارة الخارجية الفرنسية قال فيها " إن مطران الروم وافق للرعية على الحرية بمعتقداتها الكاثوليكية على شرط أن تلزم السكنى وتدفع له ما يترتب عليها من مال. ولكن ترجمان القنصل الفرنسي الياس فخر الطربلسي الملكي حرك الفتنة على المطران وتهده ، بأنه سيكتب إلى البطريرك في إسطنبول ليشتكوه بأنه غير الطقس اليوناني ، ويتدخل مع الرعية التي صارت إفرنجية. وكان موقف الترجمان المذكور مؤلماً ، لأنه كان سابقاً من أقرب الكاثوليك صداقة للمبشرين في طرابلس بكونوا قد نالوا له من البابا نكليموص الحادي عشر أوسمة وامتيازات<sup>(٣)</sup>.

كما جدد الباب العالي من خلال معاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م على الفرنسيين عتاقه بالحمية الفرنسية على نصارى المشرق ، وذلك جراء تأييد فرنسا الدبلوماسية للسلطنة العثمانية في الحرب الروسية العثمانية ١١٥٠ - ١١٥٢ هـ / ١٧٣٧ - ١٧٣٩ م<sup>(٤)</sup>.

وأهم بنود معاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م ما يلي: (إن الأساقفة التابعين للحكومة الفرنسية والقسيسين والرهبان الآخرين (من غير جنسية فرنسا) الذين يدينون بدين فرنسا من أية أمة ، وأي نوع كانوا إذا لم يتخطوا حدود مهنتهم ، لا يعارضون بتكدير عدد إقامة شعائرهم ووطناتهم في نواحي السلطنة ، حيث هم موجودون منذ القديم)<sup>(٥)</sup>.

(١) اسماعيل السياسة الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ١٥

(٢) قول: المرجع السابق ، ص ٤٨.

(٣) قول: المرجع نفسه ، ص ٥٩.

(٤) - بروكلين ، كارل تاريخ الشعب الإسلامية ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٤٩ م ، ص ١٥٩.

(٥) - معاهدة ١٧٤٠ م - المرجع السابق ، قيد ٣٢

إن الأساقفة والرهبان التابعون لحكومة فرنسا والمقيمون في أنحاء المملكة نصير المحافظة عليهم ، ما دهموا في حدود وظائفهم. ولا يقدر أحد على منعهم عن إقامة شعائر ديانتهم حسب عاداتهم في الكنائس التي يملكونها ، وكذلك الأمكنة التي يسكنونها.

وعندما يتجاوز رعايا المملكة العثمانية دافع الجزية (المسيحيون) والفرنسيون لأجل البيع والشراء أو لأشغال أخرى فلا يقدر أحد على تكديرهم خلافاً للتشريعة الإسلامية محتجاً بهذا التزاور .

وكذلك يسمح للفرنسيين بتلاوة الإنجيل في كل مكان يصور لهم فيه على وجه شرعي ضمن حدود واجباتهم بدون أن يعارضهم أحد<sup>(١)</sup> يلاحظ منح السلطنة العثمانية ممارسة الشعائر الدينية للجاليات الأوروبية.

إن سفير فرنسا وقناصلها وتراجمتها وتحارها وأرباب الصنائع ورياني للسفن ورجال البحرية ، والرهبان والأساقفة الفرنسيين ما رملوا في حدود وظائفهم ومبتغيتهم عن كل ما يخل بالصدقة وصديق الولاء ، يتمتعون من الآن فصاعداً بسود المعاهدات القديمة والحديثة التي يصير تنفيذها لصالح الأربع فئات المذكورة<sup>(٢)</sup>.

وحبر مثال على التدخل الأوروبي من أجل تحقيق مصالحهم عن طريق الإرساليات التبشيرية ، مما حصل في طائفة السريان وغلبة التيار الكاثوليكي فيها عن طريق رجال السياسة الفرنسيين. وحتى منتصف القرن السابع عشر ، كانت الكتلة حديثة النشوء في حلب ، وبعد تولد الإرساليات التبشيرية بدأ ساعد الكتلة يشتد في طائفة السريان التي كانت تتبع المذهب اليقوي. وبدأت الطائفة تشهد صراعاً ظاهراً بين المعتقد الجديد (الكتلة) واليقوية.

ولم يكن السبب في اشتداد ساعد الكتلة هو الهمم الروح القدس الذي حل في قلوب الهرائكة فأقروا بالإيمان الكاثوليكي ، بل كان هذا الإقرار نتيجة لا سبباً. أما السبب فيمكن وضعه في بندين: أولهما مذهبي ، يتمثل بنشاط الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية. وثانيهما سياسي. ويتمثل في تدخل الدول الأوروبية. وبخاصة فرنسا.

وشطت الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية محاولة اجتذاب المسيحيين وخاصة اليقوية إلى الكتلة ، وبجحت مساعيها ، فتم تنصيب أول بطريرك كاثوليكي على طائفة السريان ، كان قد تكلت على يد المبشرين اللاتين وهو البطريرك أندراوس اخيجان، والذي كان له أثر كبير في نشر الإيمان الكاثوليكي بين أفراد الطائفة السريانية.

(١) - معاهدة ١٧٤٠ م المرجع السابق ، البند ٨٢.

(٢) - معاهدة ١٧٤٠ م - المرجع نفسه ، البند ٨٤.

وقد وضع أندراوس يده بيد المبشرين الكاثوليكين لشره في بلاد ما بين النهرين ، بعد أن عاد من جولة هناك تعقد خلالها من انضم إليه في تلك الأصقاع، وقال: "إنه لو وجد في ماردين من المبشرين اللاتين لصربوا على أيدي المقاومين (اليعاقة) وكفهم عن إزعاج الرعايا في الكتكة ، فدت الرغبة في قلوب المبشرين الكبوشيين واليسوعيين في قصد تلك النواحي لشر المذهب الكاثوليكي (١).

إلا أن نشاط هذه الإرساليات لم يكن بمصي بيسر وسهولة ، وذلك أن المبشرين الكاثوليكين لم يكونوا يحاولون جذب الشرقيين إلى الكتكة فحسب ، بل كانوا يحاولون جاهدين حملهم على اعتناق الطقس اللاتيني أيضاً معتقدين أنهم ما لم يعتنقوه فإنهم لن يتعتبروا هائض الكتكة ، وسيظلون عرضة للردة ، وعلى الرغم من أن ذلك لم يكن صمم توجيهات الكرسي الرسولي الرسمي. وبالمقابل فقد كان الشرقيون يعدون الطقس الشرقي أمراً واقعاً يصرخ له البلبوات لأنهم مرغومون على ذلك (٢).

وهكذا نشب الصراع الذي ما لبث أن اكتسب بعداً جديداً هو البعد السياسي ، بتدخل السلطات المدنية الحاكمة في السلطنة العثمانية ، والسفير والقنصل الفرنسي في إسطنبول وحلب ، ذلك أن الكنيسة السريانية اليعقوبية كانت تتمتع بوضع متميز وبدعم من الحكام في البلاد التي دخلت تحت الحكم العربي ، وظلت تتمتع بالدعم نفسه في ظل الحكم العثماني الذي كان يهيم بشكل عام أن يظل مسيحيو الشرق بمعزل عن مسيحيي العرب (٣).

وأي نشاط للإرساليات الكاثوليكية في البلاد الخاضعة للحكم العثماني يمكن أن يصور من قبل معارضية كنشاط يحمل معار سياسية خطيرة ، وأنه تدخل يستجر نتائج تلحق الأذى بسياسة الدولة العثمانية ومصالحها. وذلك ما كان يسعى للتأكيد عليه البطاركة اليعاقبة في نزاعهم مع الكاثوليكين ، فاعتوهم بالفرج (٤).

وفي ظل الظروف العامة التي سادت القرن الثامن عشر - والرابع الأخير منه بشكل خاص - وتعرض السلطنة العثمانية للضغط السياسي والعسكري المتزايد ، من قبل الدول الأوروبية ، ومع اشتداد النزاع في طائفة السريان بين المطران جروة الكاثوليكي والبطريرك اليعقوبي ، كانت كلمة الفرج هي مفتاح موقف السلطنة العثمانية. حيث كان اليعاقبة يصورون هذه الكلمة على أنها امسلاخ رعيا السلطان عن رعيهم وتعاملهم مع أعدائه ، الأمر الذي استطاعوا معه أن يستميلوا السلطنة العثمانية إلى جانبهم. كما جاء في عرض قدمه البطريرك اليعقوبي إلى الصدر الأعظم يقول فيه: "إن المطران ميخائيل جروة اتفق مع

(١) - الفوار ، المرتاد في تاريخ حلب وبعداد (مخطوط دراسة وتحقيق ، رحلة ماجستير في تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، جامعة دمشق ، أشرف : أحمد طريي ، ١٩٧٧ م) ، ص ٤٧ - ٤٨.

(٢) - برك ، اضابطيوس: الشرق المسيحي ، المطبعة القبلية ، لبنان ، ١٩٧٥ م ، ص ١٥٨ - ١٦٠.

(٣) - برك ، الشرق المسيحي ، المرجع نفسه ، ص ١٥٤.

(٤) - الفوار ، المرتاد في تاريخ حلب وبعداد ، المصدر السابق ، ص ٤٩.

الإفرنج، وهذا محل بالإنجيل الشريف وحقوق الدولة العنية وبالبطريركية معاً، وهو ما يحمل التبعية العثمانية على التمرد على السلطان لاتفاقهم مع البابا وملك الإفرنج على ملكنا العظيم<sup>(١)</sup>.

وستطاعوا بهذه الدعاوي أن يستصعدوا الثرمادات المتلاحقة بحبس وبقي وتغريم رؤوس أتباع المذهب الكاثوليكي في طائفتهم وعلى رأسهم المطران جروة نفسه<sup>(٢)</sup>.

وكل ذلك لم يدفع الكاثوليكين إلى الحد من علاقاتهم مع فرنسا، بل إلى الحماية المؤثرة والشايط الفعال الذي كان يبذله السفير والقنصل الفرنسي في كل من إسطنبول وحلب، لإبطال معمول فرماتات البقي والحبس والتغريم التي كان يستصدرها اليعاقة واستبدالها بفرماتات تمنح الحرية الدينية للكاثوليك<sup>(٣)</sup>.

كانت تكف أتياع المذهب الكاثوليكي في الطائفة السريانية إلى الاعتماد عليهم، ونوحيق الصلات والروابط بهم والالتجاء إلى حمايتهم. وقد أوضح المطران جروة في رسالة إلى الملك لويس السادس عشر بتاريخ ١٠ كانون الثاني ١٧٨٣، في حطب هو الذي معنى برسالة العس أندراوس مطراناً ثم بطريركاً على السريان وأخرج له أمراً من الباب العالي في ضبط الكنيسة وطرده منها المطران اليعقوبي<sup>(٤)</sup>.

وأوضح المطران جروة في رسالته إلى الملك لويس السادس عشر أنه (وبعد اشتداد النزاع بين الكاثوليك واليعاقبة، ولم يبق لنا واسطة سوى أن نلتجئ إلى حلاتكم لكي ترفعوا البطريرك اليعقوبي عن هذه الكنيسة، وتضعوها تحت حمايتكم السعيدة وتحرروا إلى الصدر الأعظم، لكي يخرج أمراً من الباب العالي في إخراج مطرانيه حطب من برعة البطريرك المذكور، وأن تكون مطرانيه مستقلة بذاتها)<sup>(٥)</sup>. وبهذا يبدو ما كان لفرنسا من بد طولى في نمو وترعرع الكاثوليكية في الطائفة السريانية.

ولم تمر سنوات قليلة على كتابة هذه الرسالة حتى رسم المطران جروة بطريركاً، وانقسمت الكنيسة السريانية في عام ١١٩٨ هـ / ١٧٨٣ م إلى مشطرين (كاثوليك ولأرثوذكسي) لكل منهما بطريرك وكنيسة وأساقفة<sup>(٦)</sup>.

وحرصت بريطانيا على أن تحمي الإرساليات التبشيرية البروتستانتية خاصة، وكان نفوذ إنكلترا في ذلك الحين قد أصبح فعالاً في السلطنة العثمانية، فمن ذلك أن السلطنة العثمانية أرادت أن تمنع ناعة الأندجيل الدوارين من التجول في المدن والقرى، فما زال القناصل يتدخلون حتى حملوا السلطنة على العودة إلى السماح لهم بذلك. وليس ذلك فحسب بل كان قناصل بريطانيا يعملون أحياناً للتبشير. فما هو المستر سكين

(١) نقاشه: ديوبسيسو أفرام: عناية الرحمن في هداية السريان، مطبعة سيرا، بيروت، ١٩١٠، ص ٢٦٥ - ٢٦٦.

(٢) - العوار: المرتاد في تاريخ حطب وبتداد، المصدر السابق، ص ٥٠.

(٣) نقاشه: المرجع السابق، ص ٥١١.

(٤) - العوار: المرتاد في تاريخ حطب وبتداد، المصدر السابق، ص ٥١.

(٥) ديك: الشرق المسيحي، المرجع السابق، ص ٩١.

فتصل بريطانيا في حلب. سعى إلى تحصيل البدو في بادية الشام ليتوصل من هذا السبيل إلى اجتذاب أبنائهم إلى الصراية<sup>(١)</sup>.

#### د - موقف السلطنة العثمانية من الإرساليات التبشيرية:

كانت الدولة العثمانية بالنسبة إلى روح ذلك العصر ، متسامحة معهم ، فقد سمحت لهم بالانتشار في أنحاء سوريا ، ثم بإقامة الأديرة ، وكانت لا تتدخل في شؤونهم ، طالما لا يقتربون من المسلمين ، وطالما لا يقيمون كنائس جديدة ، ولا يقرعون الأجراس لاستدعاء المصلين ، ولا يقيمون الصلاة جماعية في بيوتهم الخاصة ، بل أنها سمحت لهم بارتداء ملابس رهبنتهم الخاصة. وقد بدأت معاملة السلطنة العثمانية طابعاً أشد بعد أن كشفت لها أهدافهم ، ورأت الانقسام الذي ولدته الإرساليات في صفوف رعاياها المسيحيين ، وأخذت تشك بنواياهم الصليبية العدوانية البعيدة المدى<sup>(٢)</sup>.

وقد كانت السلطنة العثمانية في مرات متعبدرة تعطن عمل الإرساليات في تحول مسيحيي حلب إلى الكشكة. ومع ذلك فقد بلغ عدد الذين انضموا إلى الكنيسة الرومانية في مدينة حلب في بداية القرن التاسع عشر رقماً كبيراً ، مما أدى إلى وجود خلافات في الكنيسة الشرقية ما بين المؤيدين للكنيسة الرومانية والمعارض لها<sup>(٣)</sup>.

إن السلطنة العثمانية عضت النظر عن النشاط التبشيري للإرساليات لعدة أسباب ، ومنها أنه بدأ في أول الأمر في الربع الأول من القرن السابع عشر الميلادي ، عندما كانت الدولة لا تزال قوية مهابة الجانب ، لم يكن هناك خطر يهدد أمنها الداخلي أو الخارجي. وكان نشاط المنشرين محدوداً في نطاق ضيق ، ولكن تغير الموقف بعد ذلك ، إذ لم يعد النشاط التبشيري يقتصر على النشاط الديني وهو تحويل الأهالي إلى المسيحية وإلى مذهب ديني معين ، بل أصبحت هذه الإرساليات أداة طيعة لينة في يد الدول الأوروبية تعتمد عليها في بسط نفوذها السياسي والثقافي والديني على البلاد التي سيطرت عليها أو تتطلع إلى امتلاكها ، وغدا النشاط التبشيري من أقوى الركائز الاستعمارية والتي هدفت إلى السيطرة السياسية والاقتصادية<sup>(٤)</sup>. لقد كانت السلطنة

(١) - فروخ. المرجع السابق ، ص ١١٨ - ١١٩.

(٢) - الصباغ: الجاليات الأوروبية ، ص ٨٢٢ - ٨٢٥ - ٨٢٦.

(٣) J sauvaget ، p ٢٢٦

(٤) - الشلوي المرجع السابق ، ص ١٠٢

العثمانية على حق حينما بدأت ، منذ أمد ، ترتب من حركات التبشير في السلطنة ، وذلك لأن المبشر يسوق الجيش إلى كل مكان .

وبذلك أخذت السلطنة تراقب المبشرين مراقبة دقيقة حتى تصيق عليهم . وكان العثمانيون يرتادون خاصة بالمبشرين البروتستانت لأن هؤلاء كانوا يتولون حلف العلم البريطاني في الأكثر والمبشرين اليسوعيين لأنهم يعملون للسياسة الفرنسية أيضاً . ولما تشعبت مطاعم الدول الأوروبية في بلاد الشام جعلت السلطنة تتف من المبشرين موقفاً حارماً ألقت في سبيلهم العراقيل وعزمت أن لا يحقوا نجاحاً في محططاتهم المربية على أن السلطنة العثمانية لم تستطع أن تتخذ سياسة عادية تجاه المبشرين ، لأن هؤلاء كانوا يأتون في الطاهر رعايا الكليز أو فرسبيين . فإذا استقروا في البلاد وأخذوا يقومون بالتبشير سرّاً ما أمكنهم . ولذلك كان هؤلاء كلما وجدوا مراقبة وسهراً من السلطنة العثمانية لجأوا إلى قناصلهم ، وكان القناصل يدافعون عنهم كرعايا أجانب في الطاهر أيضاً .

ولما أدركت الدول الأوروبية أن المبشرين آلة فعالة لتأييد النفوذ الأجنبي في السلطنة العثمانية أخذت تلك الدول الأوروبية تزيد من تظاهرها بدعم المبشرين . وكان المبشرون بنورهم يطلبون تأييد دولهم <sup>(١)</sup>

وكانت السلطنة العثمانية قد أصدرت فرماناً سلطانياً موجهاً إلى وإلى حلب وقاصيها ، يشير إلى ظهور الكثير من رهبان الطائفة الإفرنجية في بعض أنحاء السلطنة ، وهم ذوو نوايا سيئة ومقاصدهم فاسدة ويجوبون البلاد ويدعون الطوائف المسيحية (روم - أرمن - مولانية - سريان) إلى الانسحاب إلى الطائفة الإفرنجية الكاثوليكية ، مما أدى بالطوائف المسيحية الشرقية إلى الشكوى والتظلم من تصرفات رهبان الطائفة الإفرنجية ، وبسبب انتشار رهبان الطائفة الإفرنجية في الأماكن والبلدان التي يوجد بها لهم فصوليات ، فإنه من الضروري جداً عدم تجاوزهم لغيرهم ، ومنع تجوالهم حيث لا توجد مؤسسات قنصلية أوروبية <sup>(٢)</sup> . يلاحظ كيفية استغلال الإرساليات التبشيرية للفصوليات الأوروبية في ولاية حلب لممارسة نشاطاتها .

وكانت السلطنة العثمانية على حق من خوفها من المبشرين الذين لم يكونوا يحفظ بثيرون الفتن في السلطنة ، بل كانوا أيضاً يتجمعون لدولهم سياسياً وعسكرياً ، وكذلك كانوا يعرفون المسكن إلى معسكرات ، فقد كان الدور مثلاً يعتمدون على حماية انكثرا . لما للمولانية فكانوا يرون حليعهم الطبيعي فرنسا <sup>(٣)</sup> .

ولكن السلطنة العثمانية لم تكن تملك حرية الإرادة ولا حرية للتصرف حيال نشاط الإرساليات التبشيرية ، والذي كان له أوجع العواقب في زيادة الاضطراب الطائفي والمسيحي في ولايات الشام ، وبطاهر

(١) - فروخ . المرجع السابق ، ص ١١٧

(٢) الفرمان رقم / ٤٣٠ / تاريخ الفرمان (١١٣٨ هـ) ، من السجل / ٢ / للأمر السلطانية لولاية حلب ، ص ٢٦١ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق .

(٣) - فروخ . المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

عجز الدولة عن إرضاء حمّد لا يستهان به من مذاهب دينية وطوائف مسيحية أرادت أن تتحد من التبشير  
دريعة لإنشاء مراكز قوى لها داخل ولايات السلطنة العثمانية<sup>(١)</sup>.

وكانت معظم الطوائف المسيحية في حلب ترفع شكواها إلى السلطنة العثمانية ضد تصرفات رجال الدين  
المحاريير إلى الإرساليات التبشيرية والداعين إلى الكتككة ، فهي عريضة رفعها بطريرك الروم الأرثوذكس  
سلومستروس في أنطاكية وحلب إلى الداب العالي وهي عبارة عن شكوى من الرهبان (هوريا غوب - قسيس  
حناينا - ابن مظلوم - قسيس جرحس - قسيس نصر الله) من سكان حلب قد ارتدوا إلى الكنيسة الكاثوليكية ،  
ويدّوا يعيشون الفساد بين جميع السكان المسيحيين من رعايا السلطنة. كي يريدوا إلى الكنيسة الكاثوليكية ،  
حيث أن عددهم أخذ يزداد يوماً بعد يوم. لذلك صدر أمر سلطاني بوجوب إجراء محاكمة لهؤلاء الرهبان  
وفيهيهم إلى مناطق أخرى دون تأخير أو تدخل من أحد<sup>(٢)</sup>.

ومن خلال كل ما تقدم يلاحظ كيف سعت الدول الأوروبية إلى إيجاد ركيزة سياسية لها على أرض  
الشام ومنها ولاية حلب عن طريق جالياتها ، وإرسالياتها التبشيرية التي جاهدت للتبشير بالكتككة ، عن طريق  
استمالة المسيحيين الوطنيين المتكلكين ، إلى جانب الدول الأوروبية.

وقد شعرت الدول الأوروبية بقيمة المينامة الفرنسية في تثبيت يهودها في الشرق ، فسارعت إنكلترا إلى  
إرسال إرساليات بروتستنتية ، تقوم بالتعليم ، وبث أفكارها. للترويج للسياسة البريطانية ، ولخدمة مصالحها  
لاستعمارية.

وبذلك عملت الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية ، وبدعم من الجاليات الأوروبية في ولاية حلب ، إلى  
جذب المسيحيين الأرثوذكس إلى الكتككة ، مما أدى إلى خلق كيان كاثوليكي لهم ، ودخلهم في صراع مع  
الأرثوذكس المحليين ، مما أدى إلى انحياز السلطنة العثمانية إلى الأرثوذكس ضد الكاثوليك ، وكان الصراع  
عنيفاً توضح في عدة نقاط أبرزها:

عدم حضور الكاثوليك قدايس الأرثوذكس ، وحاولت السلطنة تقسيم مسيحيي الكنيسة الواحدة إلى  
كاثوليك وأرثوذكس ، من خلال إجراء قدايس مختلفين.

دافع القفر ، والعاصل في ولاية حلب عن الكاثوليك الجدد ، وأخذ للصراع شكلاً دولياً ، وإرداد عدد  
الكاثوليك شيئاً فشيئاً ، ولجأوا إلى الجاليات الأوروبية وكنائسهم وحائتهم ، إلى أن جاء إبراهيم باشا  
المصري عام ١٨٣١ م ، فحل المشكلة عن طريق إعلان الحرية الدينية ، وبناء كنائس. وهذا يظهر دور  
فرنسا الخفي في دعم محمد علي باشا ولبنه إبراهيم.

(١) - الشاوي: المرجع السابق ، ص ١٠٦

(٢) - العرمان: رقم / ٢٧٥ / تاريخ قفر من (١١٣٧ هـ) ، من سجل / ٢ / الأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٢٣ ، در الوثائق  
التاريخية بمشق



### أهم النتائج العلمية التي توصل إليها البحث:

يلاحظ من خلال فصول البحث السابقة ، تشجيع السلطنة العثمانية على توافد الجاليات الأوروبية (البندقية - العرسية - الانكليزية - الهولندية) إلى أراضي السلطنة ، وولاية حلب بصورة خاصة ، لأهميتها.

فقدت السلطنة العثمانية كل التسهيلات والامتيازات للجاليات الوافدة ، فوالت لهم أماكن السكن والحماية والرعاية ، وحفصت الرسم الجمركي على معظم صادراتهم ووارداتهم ، رغبة من السلطنة في تنشيط العمل التجاري. ولكن إقامة تلك الجاليات في ربوع ولاية حلب كان له نتائج أهمها:

- النتائج السياسية: كانت الجاليات الأوروبية الطلائع الأولى للاستعمار الأوروبي الحديث على بلاد الشام ، فهاجت تلك الجاليات بالتمهيد للاحتلال العسكري ، الذي بدأ في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين عن طريق معرفة جغرافية البلاد وسكنها ، ومعرفة مواقع القوى ونقاط الضعف. ونقلت الجاليات كل ما لاحظته إلى دولها ، عبر تقارير سفرائها وقناصلها المرفوعة إلى رجال السياسة في دولهم ، التي عملت وشكل جاد للسيطرة على بلاد الشام ، فقامت باستغلال حيراتها ونهب ثرواتها. مما دفع الدول الأوروبية للطالبة وبشكل مستمر بامتيازات تزيد من نفوذ وتحرك الجاليات في البلاد التي تقيم فيها. كما قامت الجاليات بتوصيح الأهمية الاقتصادية والإستراتيجية لتبقياع التي سكنها ، فجعلتها أسواقاً مهمة للخدمات (زراعية - صناعية - حيوانية) للارمة للصناعة الأوروبية الناهضة في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين. وليس ذلك فحسب، بل سارعت الدول الأوروبية عن طريق جالياتها ، لجعل ولاية حلب أسواقاً

لتصريف البضائع المصنعة الجاهزة للاستهلاك ، كون ولاية حلب تتميز بتعدد سكانها كبير. كما استفادت الجاليات من ولاية حلب كمعبر لاضطراري تجاري مهم إلى الشرق الأدنى.

- **النتائج الاقتصادية:** ارتفاع شأن البحر المتوسط كونه صلة الوصل بين أوروبا وبلاد المشرق، حيث كان يتم التبادل التجاري وحركة البشر (حجاج - تجار - رحالة - علماء - مبشرين) إلى بلاد المشرق بواسطة.

وراد في أهميته إشراف الدول الأوروبية التي لديها جاليات في بلاد الشام عليه مثل فرنسا وإيطاليا ، وسهولة وصول هولندا وإنجلترا إلى البحر المتوسط عبر مصيق جبل طارق. ومما زاد في أهمية الموقع الجغرافي لبلاد الشام وكثرة موانئه على البحر المتوسط ، لذلك سارعت الدول الأوروبية للانطلاق في بلاد الشام عن طريق إرسال رعاياها لربوعه.

مما انعكس على نشاط ميناء الاسكندرون ، على الرغم من مناخه السيئ ، اعتمدت عليه الجاليات الأوروبية أكثر من سواء من الموانئ في عملياتها التجارية.

ومثلما تألق البحر الأبيض المتوسط أيضاً تألفت حلب ، على الرغم من كونها مدينة داخلية ، حيث لعبت دور المستقبل والمورع الرئيس لما أمامها وخلفها من بلاد واسعة ، حيث حرص عليها موقعها ذلك ، حيث كانت تستقبل بضائع العرب الأوروبي المصنعة الجاهزة بواسطة البحر المتوسط ، ثم توزعها نحو المشرق الأدنى. كما كانت بضائع الشرق الأدنى تصل إلى حلب ، عبر قوافل طويلة من الجمال المحملة القادمة من العراق والهند وآسيا الصغرى، لتوزيعها إلى العرب الأوروبي بواسطة الجاليات الأوروبية. كما كان تجار الجاليات يشركون في شراء السلع المحلية الداخلية ، ويتحكمون بالأسعار ويحتكرون البضائع ، مما يؤثر سلباً على نشاط التجار المحليين في ممارسة عملهم التجاري.

كما ارتفع شأن الأقليات في ولاية حلب ، حيث لعبوا دور الوسيط بين أهالي البلاد المسلمين والجاليات الأوروبية ، وأهمهم المسيحيين (الروم والأرمن والسريان) ، وساعدهم في ذلك الرابطة الدينية.

وكذلك اليهود نتيجة خبرتهم التجارية وقوتهم المالية. لذلك مارس الوسيط دورهم وبشكل كبير الأعمال التجارية من خلال استيراد وتصدير البضائع ، ومزسوا العمليات المصرفية ، وعقد الصفقات التجارية. مما أكسبهم خبرة لا يستهان بها في التجارة ، لذلك عندما خرجت الجاليات الأوروبية من ولاية حلب ، كان هؤلاء الوسطاء هم المسيطرون على التجارة الخارجية فيها. مما ساعد في ارتفاع شأنهم في البلاد.

وكذلك نشطت بعض الزراعة والصناعات في حلب ، نتيجة ازدياد الطلب الأوروبي عليها بواسطة جالياتها ، مثل زراعة الفطر والعنب والتبغ. أما الصناعات فقد نشطت وبشكل كبير كالصناعات النسيجية وصناعة الصابون ، والدليل على ذلك ازدياد عدد الأتوال والمصانين في حلب.

- **النتائج الاجتماعية:** كانت العلاقات الاجتماعية بين الجاليات الأوروبية والمسلمين في ولاية حلب ، علاقات عادية على الرغم من الاحترام المتبادل بينهما ، بينما كانت العلاقات بين الجاليات ومسيحيي ولاية حلب محدودة ، حيث كانت العلاقات تجارية بالدرجة الأولى ، وذلك بمقتضى عملهم كوسطاء أو مترجمين ، فارتفع شأنهم. مما دفعهم للحصول على البراءات من لئف العالي عن طريق الحايات الأوروبية ، نتيجة شعورهم بمدى الاستفادة من القرب منهم.

كما ظهرت فئة اجتماعية صغيرة في حلب ، نتيجة التزاوج بين أفراد الجالية الأوروبية وفتيات من مسيحيي حلب ، وسميت هذه الفئة EZZA.MEZZA (نصف سل) مما سبب أحياناً مشاكل بين الجاليات والسلطات المحلية العثمانية الحاكمة في الولاية. لذلك سارعت الدول الأوروبية إلى منع أفراد جالياتها من التزاوج.

ونتيجة الاحتكاك بين أفراد الجاليات الأوروبية ومسيحيي البلاد ، تسربت بعض العادات الاجتماعية السيئة إلى المجتمع العربي بكافة فئاته. ومن هذه العادات (لعب الورق - التدخين - شرب الخمر).

- **النتائج الدينية:** جاءت البعثات التبشيرية بعد البعثات الدبلوماسية بجهود كبيرة من الدول لإستعمارية للسيطرة على البلاد ، فعملت الإرساليات التبشيرية وبدعم من الجاليات الأوروبية ودولهم وخاصة فرنسا على تقسيم الطوائف المسيحية الشرقية الأرثوذكسية المذهب في ولاية حلب إلى فرعين ، متنازعين وحاقدين كل واحد منهما على الآخر ، كما نجحت الإرساليات في إيجاد كائنات كاثوليكية مرتبطة بروما ، رغم سيطرة السلطنة العثمانية والشعب إلى الكاثوليكية على أنها عدو للسلطنة ، كونها معشقة للبابا عدو السلطان ، مما أسهم بشكل فعال إلى انقسام وحدة تركيبة للمجتمع العربي في ولاية حلب ، وأضعفت مقاومته أمام السدول الاستعمارية.

كما تمكن المبشرين من إدخال الثقافة العربية الأوروبية إلى الولاية المذكورة ، بواسطة المدارس التي أقاموها ، لإعداد وتحريج أجيال تؤيدهم وتعمل لصالحهم ، ومن خلال زيارة البيوت المسيحيين وأماكن عملهم والتطبيب وطبع الكتب الدينية حيث أدخلت أول مطبعة عربية إلى حلب في مطلع القرن الثامن عشر الميلادي. مما زاد في كمية الكتب المطبوعة وبخاصة الكتب الدينية ، التي تؤثر على عقول قارئها وتجعلها تؤيد وتعلم كل ما فيها لصالح دول الإرساليات التبشيرية.

وكما كانت فرنسا السباقة في إرسال الإرساليات التبشيرية لجذب مسيحيي الشرق. ليكوبوا وسيلة لها في التدخل بشؤون السلطنة العثمانية الداخلية ومطالباتها المستمرة باعتزاف السلطنة بحماية فرنسا على جميع المسيحيين في الشرق

ولم تنحصر فرنسا جهداً إلا وبنقلته في دعم الإرساليات التبشيرية لنشر الكثرة ، كونها تعتقد أنها البنت الأولى للكنيسة الكاثوليكية. وأرادت فرنسا السيطرة على بلاد الشام من خلال دعمها لإرسالياتها.

كذلك سارت بريطانيا على خطى فرنسا فأرسلت إرسالياتها التبشيرية البروتستانتية ، تقوم بالتعليم ، وبت أفكارها . ثم سارعت إلى إبعاد طلاب أدكياء من مدارسها التبشيرية إلى جامعة أكسفورد ليتعلموا فيها ، ويعودوا ليكونوا بؤرة تفاعل للنموذج البريطاني الاستعماري . مما أفسح المجال أمام إرساليات روسب التي سارعت في القرن الثامن عشر والتاسع عشر للميلاديين ، للسعي لإعلان حمايتها على الأرثوذكس بها ، أسوة بالعربيين ، هذا الصراع بين الدول الأوروبية أفسح المجال واسعاً للتدخل تحت ستار الدين لتحقيق أهدافهم ومشاريعهم الاستعمارية .

- **النتائج الفكرية:** لعبت الحملات الأوروبية في ولاية حلب دور مهم في توجيه اهتمام رجال العلم والآثار ، إلى أهمية بلاد الشام كونها مهد الحضارات الإنسانية والديانات السماوية ، والآثار العمرانية شاهدة على حضارة هذه البلاد . فقد كان للجالية الإنكليزية السبق في تنبيه علماء الآثار إلى مدينة تدمر وآثارها الجميلة ، إذ زارها ووصفها القس هاليفاكس ، الذي قام برحلة إليها سنة ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م ، وتابع دراستها في القرن الثامن عشر عام ١١٦٥ هـ / ١٧٥١ م . وكذلك قام علماء الآثار بسرعة عدد كبير من المخطوطات الشرقية ، وهي حالياً محفوظة في المكتبات الأوروبية نتيجة عملية النهب الفكري الاستعماري ، وكل ذلك تم ودعم بواسطة الجاليات الأوروبية التي شكلت نقطة استناد لهؤلاء العلماء الأتريين أثناء وجودهم في حلب .

وتحتوي هذه المخطوطات على اختصاصات كثيرة (التاريخ - الجغرافيا - الطب - الشعر - الفلسفة - الرياضيات - الشعر والنحو والمعاجم - علم التنجيم والفصاحة والقرآن الكريم والتفسير..... إلخ) . ومجموع المخطوطات الموجودة في مكتبة باريس ١٠٤٠ مخطوطة ، وفي مكتبة لندن ١٦٦٥ مخطوطة ، وفي مكتبة فلورنسا الإيطالية ٣١٨ مخطوطة<sup>(١)</sup> .

كما لعب الرحالة الأوروبيين دوراً كبيراً في التمهيد لعرض السيطرة الإستعمارية على البلاد العربية ، وخير مثال على ذلك الرحالة الفرنسي فولني الذي قدم معلومات قيمة عن رحلته إلى مصر وسوريا من كافة النواحي الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، واستند إليها نابليون في حملته على مصر وسوريا عام ١٧٩٨ - ١٧٩٩ م ، وبدأ الزحف الفرنسي نحو المشرق العربي ، علماً أن فرنسا كانت قد سيطرت على الجزائر عام ١٨٣٠ م ، وعلى تونس عام ١٨٨١ م ، كما احتلت بريطانيا مصر والسودان عام ١٨٨٢ م .

كل ذلك تم باسهم البعثات الدبلوماسية والتبشيرية والرحالة الأوروبيين التي كان لها أهداف سياسية استعمارية باطنية ، تختلف عن الأهداف المعلنة في الظاهر .

(١) رسل المصدر السابق ، ص ٣٠٣ .

وهكذا لاحظنا أن ولاية حلب استطاعت بحكم موقعها الاستراتيجي العام والتجاري الحاصل أن تستقطب عدداً من الملوك والأفراد وغير المسلمين ، وتفاعلت معها اجتماعياً واقتصادياً. كسبت من ورائهم شهرة كبيرة، وجمعت أموالاً كثيرة ، وانتارت بهما من سائر الولايات العربية في العصر العثماني ، انعدت عن غيرها بكثير من المواضع.

وما زالت حلب حتى اليوم ملتقى الأمم حياً باسمها التاريخي العريق ، ورغبة في موقعها الجغرافي واقتصادها المميز .

## مصادر ومراجع البحث

### المصادر:

#### أ - سجلات الأوامر السلطانية في ولاية حلب:

رقم السجل	رقم الوثيقة	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
٢	٦٩	١١٣٥	١٧٢٢
٤	٣٩٦	١١٥٧	١٧٤٢
٢	٨٤	١١٣٥	١٧٢٢
٢	٢٢٧	١١٣٧	١٧٢٤
٢	٣٧٥	١١٣٧	١٧٢٤
٢	٤٤٠	١١٣٨	١٧٢٥
٢	٤٣٠	١١٣٨	١٧٢٥
٤	١١٢	١١٥٢	١٧٣٩
٤	١٠٧	١١٥٢	١٧٣٩
٤	٣٦١	١١٥٤	١٧٤١
٤	٣٤٢	١١٥٤	١٧٤١

رقم السجل	رقم الوثيقة	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
٤	٣٥٦	١١٥٥	١٧٤٢
٤	٣٥٨	١١٥٥	١٧٤٢
٤	٣٩٦	١١٥٥	١٧٤٢
٤	٣٥٩	١١٥٥	١٧٤٢
٤	٣٦٠	١١٥٥	١٧٤٢
٤	٣٩٦	١١٥٥	١٧٤٢
٥	١١٣	١١٥٦	١٧٤٣
٤	٣٢٩	١١٥٦	١٧٤٣
٥	٤٧٦	١١٥٨	١٧٤٥
٥	٤٧٦	١١٥٨	١٧٤٥
٥	٧٨٦	١١٥٩	١٧٤٦
١	٢٣٣	١١٦١	١٧٤٧
١	٣٤٢	١١٦٣	١٧٤٨
١	٤٣٢	١١٦٢	١٧٤٨
١	٢٧٣	١١٦٣	١٧٤٩
١	٥٧٣	١١٦٣	١٧٤٩
١	٢٧٣	١١٦٥	١٧٤٩
١	٢٦٤	١١٦٣	١٧٤٩
١	٥٧٣	١١٦٣	١٧٤٩
١	٢٧٣	١١٦٣	١٧٤٩
١	٦٤٢	١١٦٣	١٧٤٩
١	٤٧٧	١١٦٣	١٧٤٩
١	٣٤٥	١١٦٣	١٧٤٩
١	٢٤٦	١١٦٣	١٧٤٩
١	٦٣٠	١١٦٣	١٧٤٩
٦	١٢١	١١٧٥	١٧٦١
٦	٣٣١	١١٧٧	١٧٦٣
٧	١٦	١١٧٧	١٧٦٣
٧	٩٧	١١٧٨	١٧٦٤

رقم السجل	رقم الوثيقة	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
٧	٢٢١	١١٧٩	١٧٦٥
٧	٢٤	١١٨٠	١٧٦٦
٧	٢٧٢	١١٨٠	١٧٦٦
٨	٦٦	١١٨١	١٧٦٧
٨	١٩٧	١١٨٢	١٧٦٨
٨	٩٥	١١٨٢	١٧٦٨
٨	٢١٨	١١٨٣	١٧٦٩
٨	٣٢٠	١١٨٣	١٧٦٩
٨	٢٨٢	١١٨٣	١٧٦٩
٨	٢٣٤	١١٨٣	١٧٦٩
١١	٣٢	١١٨٧	١٧٧٣
١٢	٢٠	١١٨٨	١٧٧٤
١٢	٢١	١١٨٨	١٧٧٤
١٢	١٢٣	١١٨٩	١٧٧٥
١٢	٢٦٢	١١٨٩	١٧٧٥
١٣	٨	١١٩٠	١٧٧٦
١٤	١٢٩	١١٩١	١٧٧٧
١٣	١٩٤	١١٩١	١٧٧٧
١٣	١٧٨	١١٩١	١٧٧٧
١٣	١٧٨	١١٩١	١٧٧٧
١٣	١٨٦	١١٩١	١٧٧٧
١٣	١٩٤	١١٩١	١٧٧٧
١٤	١٦٣	١١٩٢	١٧٧٨
٢٠	١٠١	١٢٠٤	١٧٧٨
١٦	٣٩	١١٩٥	١٧٨٠
١٦	٤٠	١١٩٥	١٧٨٠
١٦	٨٤	١١٩٥	١٧٨٠
١٦	٢٢٢	١١٦٦	١٧٨١
١٦	١١٤	١١٩٦	١٧٨١

رقم السجل	رقم الوثيقة	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
١٦	١٩٥	١١٩٦	١٧٨١
١٦	١٩٢	١١٩٦	١٧٨١
١٦	١٧٨	١١٩٦	١٧٨١
٢١	٢٦	١٢٠٣	١٧٨٧
٢٠	٣	١٢٠٣	١٧٨٧
٢١	٢٦	١٢٠٣	١٧٨٧
٢٠	٢٣	١٢٠٤	١٧٨٩
٢٠	١٠١	١٢٠٤	١٧٨٩
٢٠	١١١	١٢٠٥	١٧٩٠
٢٣	١١٩	١٢٠٦	١٧٩١
٢٣	١١	١٢٠٦	١٧٩١
٢٣	٨٢	١٢٠٧	١٧٩٢
٢٣	٣٦	١٢٠٧	١٧٩٢
٢٣	٣٧	١٢٠٧	١٧٩٢
٢٤	٣١	١٢٠٨	١٧٩٣
٢٤	٢٦	١٢٠٨	١٧٩٣
٢٤	١٥	١٢٠٨	١٧٩٣
٢٤	١٦	١٢٠٨	١٧٩٣
٢٤	٢٧	١٢٠٨	١٧٩٣
٢٤	٥٠	١٢٠٨	١٧٩٣
٢٥	٦٧	١٢٠٩	١٧٩٤
٢٥	٦٨	١٢٠٩	١٧٩٤
٢٥	١١٣	١٢١٠	١٧٩٥
٢٥	٥١	١٢١١	١٧٩٦
٢٥	٥٢	١٢١١	١٧٩٦
٢٥	١٤٩	١٢١١	١٧٩٦
٢٥	١٧٢	١٢١٢	١٧٩٧
٢٥	١٩٥	١٢١٢	١٧٩٧
٢٥	١٩١	١٢١٢	١٧٩٧



رقم السجل	رقم الوثيقة	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
٢٥	١٩٢	١٢١٢	١٧٩٧
٢٧	١٠٦	١٢١٣	١٧٩٨
٢٧	٣٤-٣٣	١٢١٣	١٧٩٨
٢٧	٣٠	١٢١٣	١٧٩٨
٢٧	٣١	١٢١٣	١٧٩٨

## ب - المصادر المطبوعة:

١	الأسدي ، خير الدين	أحياء حلب وأسواقها ، ت: عبد الفتاح رواس قلعة جي ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ٢٠٠٦ م .
٢	راسل ، ألكسندر وباتريك	تاريخ حلب الطبيعي ، ت: خالد الجبيلي ، شعاع نشر والعلوم ، حلب ، ط ١ ، ١٩٩٩ م.
٣	الطياح ، محمد راغب	أعلام السلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ج ٣ ، دار القلم العربي بحلب ، ١٩٢٦ م.
٤	العري ، كامل البالي الحلبي	نهر الذهب في تاريخ حلب ، ٣ أجزاء ، دار القلم العربي ، حلب ، ط ٢ ، ١٩٩٩ م.
٥	الفواز ، فواز	المرقاة في تاريخ حلب وبغداد (مخطوط دراسة وتحقيق ، رسالة ماجستير في تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، جامعة دمشق ، اشرف د: أحمد طربين ، ١٩٧٧ م) ،
٦	فرد علي ، محمد	خطط الشام، ٦ أجزاء ، مطبعة المفيد بدمشق ، ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٨ م.
٧	ماركوس ، إبراهيم	الشرق الأوسط عشية الحداثة حلب في القرن الثامن عشر، ت: ميثم حمام ، مطبعة جامعة حلب ، ٢٠٠٦ م.
٨	مراثي ، جيني بوحه	صور جدي ، مكتب كوسا للتصميم ، حلب ٢٠٠٦ م.

## ج المراجع العربية:

١	أبي مطور	لسان العرب ، دار صادر ، بيروت.
٢	أحمد ، صلاح	لجاليات في مدينة الإسكندرية في العصر العثماني ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الإسكندرية ، ط ١ ، ٢٠٠٤ م
٣	أحمد ، عبد الفتاح	للتشيعر الصليبي والعرو الاستعماري ، دار الجهاد ، ط ١ ، ١٩٨٨ م
٤	أردانارد ، سورمايان	تاريخ حلب ، ت: أنكسندر كشيبيان ، دار النهج حلب ، ٢٠٠٣ م.
٥	الأرناؤوط ، محمد	مشات محمد باشا دوكاجين في حلب ، مجلة الحوليات الأثرية العربية للسورية ، العدد ٤٣ ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٩ م.
٦	إسماعيل ، عادل وميل حوري	السياسة الدولية في الشرق العربي ، ح ٣ ، دار النشر للسياسة والتاريخ ، بيروت ، ١٩٥٩ م.
٧	إسماعيل ، عادل وميل إسماعيل	للصراع الدولي حول الشرق العربي ، دار النشر للسياسة والتاريخ ، بيروت ، ١٩٥٩ م.
٨	أصاف ، يوسف بيك	للمعاهدات الدولية التي عقدتها الدولة العلية مع الدول الأوروبية ، ط ٢ ، المطبعة العمومية ، مصر ١٩٨٦ م.
٩	أنطاكي ، سمير	صورة حلب لدى الزوار والرحالة ، مجلة عاديات حلب ، مطبعة جامعة حلب ، ٢٠٠٣ م.
١٠	ياحوك ، شوكت	التاريخ المالي للدولة العثمانية ، ت: عبد اللطيف الحارث ، دار المدار الإسلامي ، ط ١ ، ٢٠٠٥ م.
١١	بوحة ، أدولف	حلب وعلاقتها مع أوروبا ، جمعية عاديات حلب ، ع ٣٩ - ٤٠ ، ١٩٧٦ م.
١٢	نبيهم ، محمد جميل	العرب و الترك في الصراع بين الشرق والغرب ، ١٩٥٧ م .
١٣	القاسمي ، محمد	السفارات في الإسلام ، مطبعة مديونية ، القاهرة ، ١٩٧٧ م .
١٤	كوكيل ، فردينان	وثائق تاريخية عن حلب ، ح ٤ ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٥٨ م.
١٥	لتونجي ، محمد	التفاعل الاجتماعي في ولاية حلب بين العثمانيين والعرب ، مركز الدراسات والبحوث العثمانية ، رغبان ، ١٩٨٨ م.
١٦	لجاسر ، لمياء	مدارس حلب الأثرية ، دار الرضوان بحلب ، ط ١ ، ٢٠٠٠ م.
١٧	جب ، هاملتون ، وهارولد بوون	المجتمع الإسلامي والعرب ، ت: أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ح ٢ ، دار المعارف بمصر.

١٨	جبران ، نعمان	التجارة وغرفة للتجارة في حلب ، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، العدد ٤٣ ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٩ م.
١٩	حجار ، عبدالله ١	معالم حلب الأثرية ، منشورات جامعة حلب ١٩٩٠ م
٢٠	حجار ٢	إصاءات حلبية ، المكتبة الرقمية ، جامعة حلب ، ط ١ ، ٢٠٠٥ م
٢١	حجار ٣	قنصلية دير بوحة بحلب ، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية ، العدد ٤٣ ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٩ م.
٢٢	حريثاني ، محمود ١	تاريخ اليهود في حلب ، شعاع للنشر والعلوم ، ط ١ ، ٢٠٠٨ م .
٢٣	حريثاني ٢	حلب وعلاقتها الدولية عبر التاريخ ، مجلة لقنصاديات حلب. ع ٣ ، دار الوفاء للطباعة حلب ، ١٩٩٢ م.
٢٤	الحسني ، علي	تاريخ سورية الاقتصادي ، مطبعة يدفع للنور دمشق ، ت ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٣ م.
٢٥	حسن ، علي	الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية ، المكتب الإسلامي .
٢٦	الحصري ، ساطع	البلاد العربية والدولة العثمانية دار العلم للملايين، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٦٠ م.
٢٧	الحكيم ، دعد	التجارة وغرفة للتجارة في حلب من خلال الأوامر السلطانية ، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية ، العدد ٤٣ ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٩ م.
٢٨	حلاق ، عبدالله يوريكي	حلبيات ، مجلة الصدا ، حلب ، ١٩٨٣ م.
٢٩	الحمصي ، فايز	حلب القديمة ، منشورات المديرية العامة للأثار والمتاحف ، دمشق ١٩٨٣ م
٣٠	حميدة ، عبد الرحمن	محافظة حلب ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ،
٣١	حميدة ، عبد الرحمن	حلب وطريق التحرير ، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية ، العدد ٤٣ ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٩ م.
٣٢	خوري ، جورج	المصالح الامنعمارية لبريطانية والحفاظ على الإمبراطورية العثمانية ، مجلة دراسات تاريخية ، ع ٤١-٤٢ ، ١٩٩٢ م.
٣٣	خافيد ، جان كلود	إقامة تجار الجملة في خانات حلب ، ت: غادة الحسين ، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية ، العدد ٤٣ ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٩ م.
٣٤	خافيد ، جان كلود جورج ، جيرار دو	حلب في الدراسات العلمية ، ت: محمود حريثاني ، دار غلافاريون ، باريس ، ٢٠٠٢ م.

٢٥	الدباع ، عائشة	الحركة الفكرية في حلب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ومطلع القرن العشرين ، دار الفكر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٢ م.
٣٦	ديك : اعناطيوس ١	الحضور المسيحي في حلب خلال الألفين المصريين ، مطبعة الإحسان للروم الكاثوليك ، حلب ، ٢٠٠٣
٣٧	ديك ٢	الشرق المسيحي ، المطبعة البولسية ، لبس ، ١٩٧٥ م
٣٨	ديك ، شارل	السفيرة جمهورية لروستراطية ، ت: توبيق اسكندر وأحمد عبد الكريم ، دار الفرجاني طرابلس ليبيا .
٣٩	رافيق ، عبد الكريم ١	دراسات تاريخية ، العدين السابع عشر والثامن عشر ، ١٩٨٤ م
٤٠	رافيق ٢	الشرق العربي في العهد العثماني منشورات جامعة دمشق ، ط ٦ ، ١٩٩٩ م.
٤١	رجحي ، محمد	المصالح الفرنسية الاقتصادية في سورية ، مجلة دراسات تاريخية ، ع - ٢٧ - ٢٨ ، ١٩٨٧ م.
٤٢	ريجون ، اندره	لمدينة العربية حلب في العصر العثماني ، ت: ملكة أبيص ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ٢٠٠٧ م.
٤٣	رينوفا ، بيير وجان بانست دوروزيل	تاريخ العلاقات الدولية ، ت: فايز كم نقش ، دار منشورات عويدات بيروت ، ط ١ ، ١٩٦٧ م .
٤٤	ركريا ، أحمد وطني	جولة أثرية في بعض البلاد الشامية ، دار الفكر .
٤٥	رمان ، ربا	الخصائص المعمارية لحانات حلب ، مطبعة جامعة تشرين ، ١٩٩٤ م.
٤٦	زبد ، محمد	النشاط ، للتجاري في حلب خلال القرنين العاشر والحادي عشر ، مجلة التحولات الأثرية العربية السورية ، العدد ٤٣ ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٩ م.
٤٧	السياطي ، أحمد	للتشوير ولثراء في البلاد العربية والإسلامية ، مكتبة الإيمان للطباعة ، للقاهرة ، ١٩٨٩ م.
٤٨	سعت ، شوقي	حلب وتجارة الحرير وصناعته في العهدين المملوكي والعثماني ، مجلة التحولات الأثرية العربية السورية ، العدد ٤٣ ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٩ م.
٤٩	الشباوي ، عبد العزيز	الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ٧ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٧ ، ١٩٨٦ م.

٥٠	الصباغ ، ليلى ١	الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس والسادس عشر ، ح ٢ ، بيروت ١٩٨٩ م .
٥١	الصباغ ٢	المجتمع العربي لسوري في مطلع العهد العثماني ، منشورات وزارة الثقافة دمشق ، ١٩٧٣ م .
٥٢	الصباغ ٣	تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، مطبعة ابن حيان ، دمشق ، ١٩٨٢ م .
٥٣	الصلطوف ، عبد الكافي وآخرون	تاريخ أوروبا في العصر الحديث ، مطبعة الدودي ، دمشق ، ١٩٩٨ م .
٥٤	طربس ، أحمد	تاريخ المشرق العربي للمعاصر ، منشورات جامعة دمشق ، ط ٧ ، ٢٠٠٠ م
٥٥	عامر ، محمود	للكايل والأوزان والنقد ، مطبعة ابن حيان ، دمشق ، ١٩٩٧ م
٥٦	عبد السلام ، عادل	الموقع الجغرافي لحلب ، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية ، العدد ٤٣ ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٩ م
٥٧	عبد العسي ، عماد	السلطة في بلاد الشام في القرن الثامن عشر ، دار النفائس ، بيروت .
٥٨	عراريا ، هوري	الجاليات الأرمينية في بلاد عربية ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٩٩٣ م .
٥٩	عمر ، عبد الحريز عمر	تاريخ المشرق العربي ١٥١٦ - ١٩٢٢ م ، دار النهضة ، بيروت ١٩٨٥ .
٦٠	عيسوي ، شارل	لتاريخ الاقتصادي للبلاد الحبيب ١٨٠٠ - ١٩١٤ م ، ت: رؤوف عباس حامد ، مركز دراسات الوحدة العربية ، مكتبة أبو در العساري ، صنعاء
٦١	الحادري ، مطيع	صناعة السجيد البدوي بحلب ، اقتصاديات حلب ، العدد ٢ / دار الوفاء للطباعة حلب ، ١٩٩٣ م .
٦٢	غاييه ، هاليندر وغيرت ، أويغن	حلب ، ترجمة: صحر علي ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، وزارة الثقافة ، دمشق ٢٠٠٧ .
٦٣	الغنتيت ، محمد علي	الغرب والمشرق من الحروب الصليبية إلى حرب السويس ، مطابع الدار القومية .
٦٤	غرايبة ، عبد الكريم	سورية في القرن التاسع عشر الميلادي ١٨٤٠ - ١٨٧٦ م ، مطبوعات معهد للدراسات العربية للعالمية التابع لجامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٦١ - ١٩٦٢ م .
٦٥	غوستوف	تاريخ التحرير في بلاد الشام ، مجلة الشرق ، العدد الخامس .

٦٦	فارس ، محمد كمال	خانات حلب ، مجلة اقتصاديات حلب ، ع ٣ ، دار الوفاء للطباعة ، حلب ، ١٩٩٢ م.
٦٧	فرح ، نعيم	للمضارة الأوروبية في العصور الوسطى ، منشورات جامعة دمشق ، ط ٢ ، ١٩٩٩ م
٦٨	فروح ، عمر مصطفى حادي	التبشير الاستعماري في البلاد العربية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٥٧ م .
٦٩	العوار ، فوز	حوادث حلب اليومية ١٧٧١ - ١٨٠٥ م ، دار شعاع للنشر والعلوم ، حلب ، ط ١ ، ٢٠٠٦ م.
٧٠	القاسمي ، محمد سعيد وأخرون	قاموس الصناعات النشمية ، ت: طاهر القاسمي ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، ط ١ ، ١٩٨٨ م .
٧١	قسطن ، وديع	الإفرنج في حلب في القرن الثامن عشر ، مطبعة الصاد ، حلب ، ١٩٦٩.
٧٢	قلعه جي ، عبد الفتاح رواس	حلب القديمة والحديثة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٩ م.
٧٣	كحالة ، جويريف	عبدالله الراخر الحلبي ، المطبعة الرقمية - جامعة حلب ، ط ٢ ، ٢٠٠٦ م
٧٤	كشيشيان ، الكمنذر	إسهامات المواطنين الأرمن في الحياة العامة للبلاد السورية منذ أقدم العصور وحتى يومنا ، حلب ، ٢٠٠٧ م.
٧٥	كوثر ، نوبالد	الدولة العثمانية ١٧٠٠ - ١٩٢٢ ، ت: أيمن أرماري ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ٢٠٠٤ م.
٧٦	كوستائيني ، فيرا	علاقات البندقية التجارية مع حلب ، ت: نبيل اللو ، مجلة جمعية العاديات بحلب.
٧٧	لوتسكي ، فلاديمير	تاريخ الأقطار العربية الحديث ، دار التتقم موسكو ، ١٩٩٢ م .
٧٨	مسترر ، بروس	المدينة العثمانية بين الشرق والعرب حلب وأرمير واسطنبول ، ت: زلي ديلان ، مكتبة العبيكان الرياض .
٧٩	مانثران ، روبير	تاريخ الدولة العثمانية، ت: بشير السباعي ، دار الفكر للدراسات والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٣ م.
٨٠	المحامي ، محمد فريد بك	تاريخ الدولة للغة العثمانية ، ت: إحسان حقي ، دار النفائس ، ط ٨ ، بيروت ، ١٩٩٨ م .
٨١	المدرس ، حسين و أوليفية سالمون	العلاقات بين البلاد المحفظة ومورية العثمانية في القرن السابع عشر وأربعمئة عام من العلاقات التفصيلية ١٦٠٧ - ٢٠٠٧ م ، ت. محمود حريثاني ، قيد النشر.

٨٢	مشقوق ، عبد الله	الامتيازات الأجنبية ، المطبعة الأدبية ، بيروت ١٩٢٢ م .
٨٣	المنجد ، صلاح الدين	النظم الدبلوماسية في الإسلام ، دار الكتاب الجديد ، بيروت لبنان ، ١٩٨٣ م
٨٤	ناجي ، عبد الجبار	دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر .
٨٥	نسكايا ، إيرينا سميليا	البنى الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي على مشارف العصر الحديث ، ت: يوسف عطا الله ، ط ١ ، القارابي ، بيروت ، ١٩٨٩ م .
٨٦	نقاش ، ديونيسيوس أفرام	غاية الرحمن في هداية السريان ، مطبعة صبرا ، بيروت ، ١٩١٠ م .
٨٧	هلال ، فؤاد ١	حلب للقديم والحديث ، مطبعة جامعة حلب ، ٢٠٠٦ م .
٨٨	هلال ٢	التحولات الثقافية والاقتصادية المهمة في حلب خلال الثلاثة قرون الماضية ، مجلة عاديات حلب ، مطبعة جامعة حلب ، ٢٠٠٣ م .
٨٩	يحيى ، جلال	العالم العربي الحديث ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٦ م
٩٠	البيسيف ، نيكيتا	طرق المواصلات في بلاد الشام ما بين القرنين السادس عشر والعشرين ، ت: بدر الدين الرفاعي ، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ، ١٥١٦ - ١٩٣٩ م .

#### د - المراجع الأجنبية

١	Berechet (guglielmo)	Relazioni dei consoli veneti nella sinia tonino ، ١٨٦٦
٢	D Arvieux	Memoires du chevalier D. Arvieux Extradinaire alaporte consul Alep dalege tomes .
٣	Kaksumi Fukasaw	toilerie of commerce ed levant. ed CNE ١٩٨٧
٤	SANDEROEN (George)	the travels of ghon sanderson in the levant edited par by sir William Foster London halkluyt society ١٩٣١ .
٥	sauvagel	alep ، paris ، ١٩٤١
٦	wood (A C)	A history of the levant company. London ١٩٣٥



## الملاحق

### الولاية العثمانية في حلب

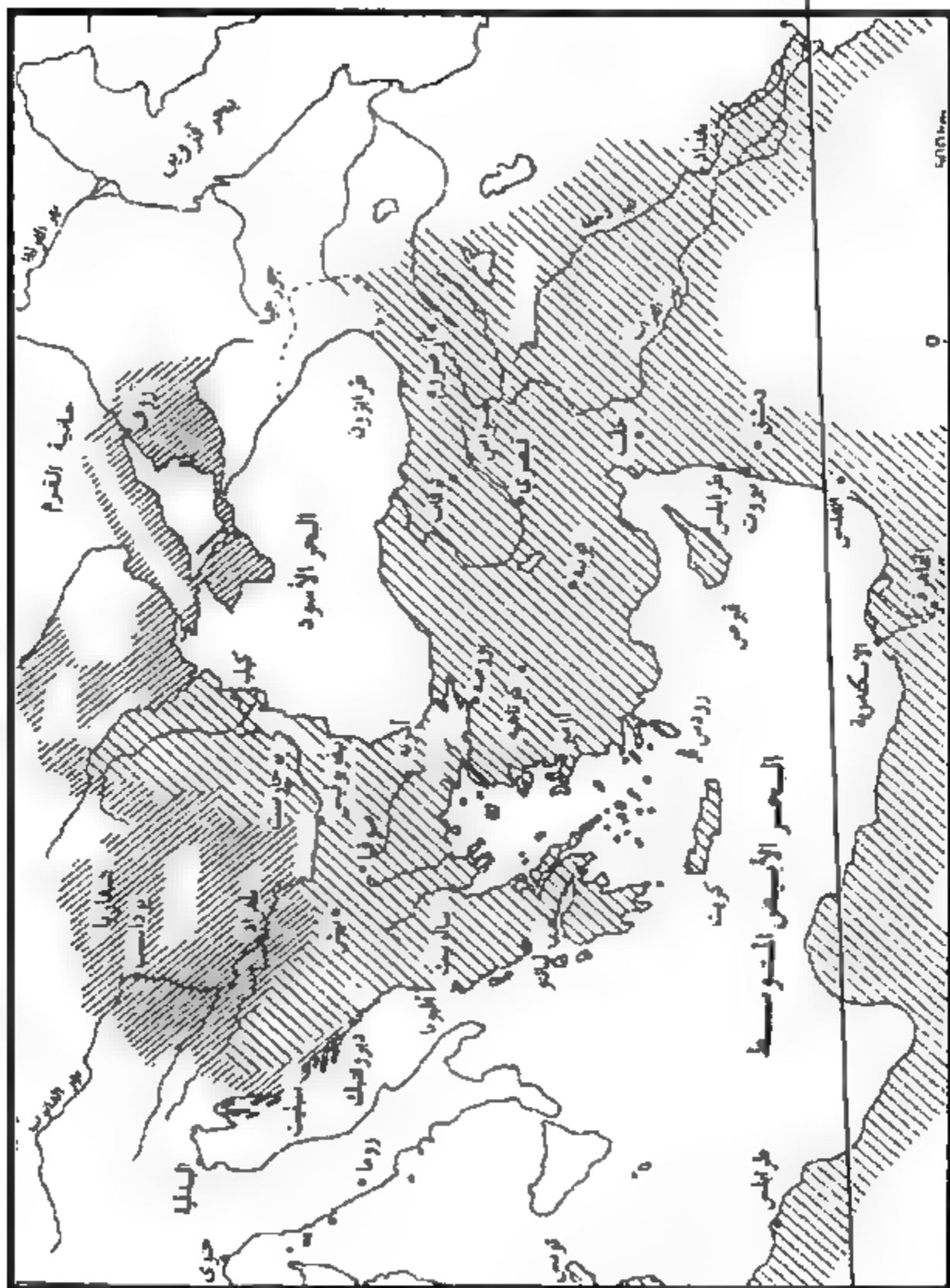
١١١٢ - ١٢١٥ هـ / ١٧٠٠ - ١٨٠٠ م

مستسل	اسم الوالي	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
١	يوسف باشا	١١١٢	١٧٠٠
٢	جوربالي علي باشا السلحدار	١١١٥	١٧٠٣
٣	محمد باشا الجركس	١١١٥	١٧٠٣
٤	الحاج قيران حسن باشا	١١١٦	١٧٠٤
٥	أبازة سليمان باشا	١١١٦	١٧٠٤
٦	ابراهيم باشا	١١١٧	١٧٠٥
٧	عبدي باشا	١١١٩	١٧٠٧
٨	يكردار محمد باشا	١١٢٠	١٧٠٨
٩	ابراهيم باشا السلحدار	١١٢٢	١٧١٠
١٠	طوبال يوسف باشا	١١٢٥	١٧١٣
١١	محمد باشا الجركس	١١٢٧	١٧١٥
١٢	علي باشا مقتول باشا	١١٢٧	١٧١٥
١٣	عبد الرحمن آغا الحلبي (باش جلويش)	١١٢٧	١٧١٥
١٤	مصطفى باشا	١١٢٨	١٧١٥
١٥	سليمان باشا السلحدار	١١٢٨	١٧١٥
١٦	عثمان باشا	١١٣٠	١٧١٧
١٧	مورملي علي باشا	١١٣١	١٧١٨
١٨	رجب باشا	١١٣١	١٧١٨
١٩	عارف أحمد باشا (رئيس كتاب)	١١٣٣	١٧٢٠
٢٠	رجب باشا	١١٣٤	١٧٢١
٢١	كورد ابراهيم باشا	١١٣٦	١٧٢٣
٢٢	علي باشا بن موح أفندي	١١٣٧	١٧٢٤
٢٣	محمد باشا السلحدار	١١٣٨	١٧٢٥

٢٤	عارفي أحمد باشا	١١٣٨	١٧٢٥
٢٥	علي باشا	١١٤١	١٧٢٨
٢٦	الوزير كوجك	١١٤٢	١٧٢٩
٢٧	ابراهيم باشا	١١٤٣	١٧٣٠
٢٨	محمد باشا	١١٤٣	١٧٣٠
٢٩	أحمد باشا بولاد	١١٤٧	١٧٣٤
٣٠	عثمان باشا	١١٥٠	١٧٣٧
٣١	يعقوب باشا	١١٥٣	١٧٤٠
٣٢	حسين باشا	١١٥٥	١٧٤٢
٣٣	الحاج أحمد باشا	١١٥٧	١٧٤٤
٣٤	علي باشا حكيم باشي راده	١١٥٨	١٧٤٥
٣٥	الحاج أحمد باشا	١١٥٨	١٧٤٥
٣٦	أحمد باشا كوبرلي زاده	١١٥٩	١٧٤٦
٣٧	أحمد باشا	١١٥٩	١٧٤٦
٣٨	حسين باشا	١١٦٠	١٧٤٦
٣٩	كور وزير	١١٦٠	١٧٤٧
٤٠	إسماعيل باشا عثمان باشا	١١٦١	١٧٤٨
٤١	سعد الدين باشا العضم	١١٦٤	١٧٥٠
٤٢	أحمد باشا	١١٦٥	١٧٥١
٤٣	صاري عبد الرحمن باشا	١١٦٥	١٧٥١
٤٤	الحاج أحمد باشا	١١٦٥	١٧٥١
٤٥	عبد الله باشا	١١٦٦	١٧٥٢
٤٦	راغب باشا	١١٦٨	١٧٥٤
٤٧	أمير الحاج اسعد باشا	١١٦٩	١٧٥٥
٤٨	عبدي باشا القراري	١١٧٠	١٧٥٦
٤٩	علي باشا قائمقام	١١٧٠	١٧٥٦
٥٠	حسين باشا	١١٧١	١٧٥٧
٥١	محمد باشا محسن باشا	١١٧١	١٧٥٧
٥٢	عبد الله باشا جنجي للصندر الأسبق	١١٧٢	١٧٥٨
٥٣	عبدي باشا قراري	١١٧٢	١٧٥٨

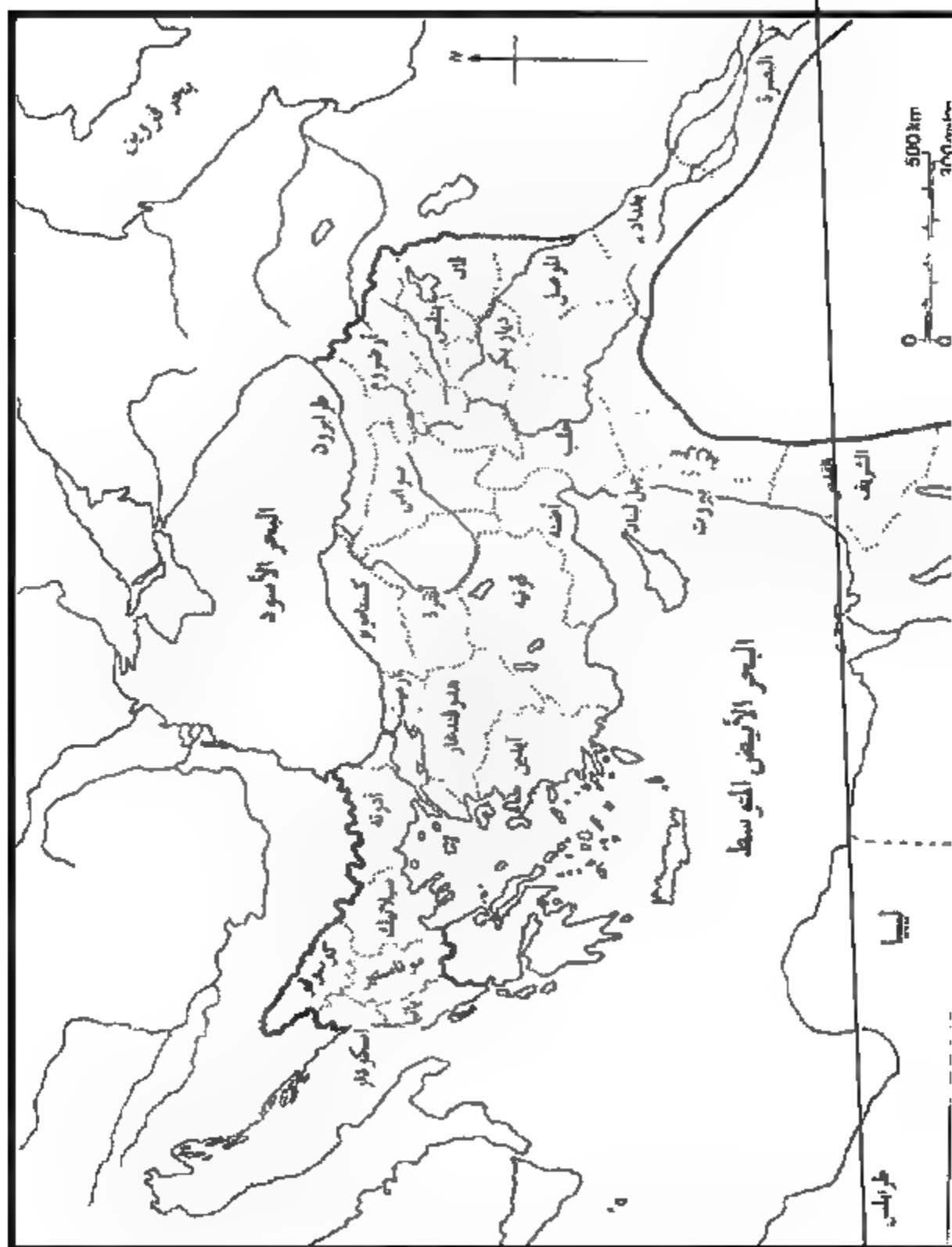
١٧٥٨	١١٧٢	مصطفى باشا الوزير	٥٤
١٧٥٩	١١٧٣	عبدى باشا قراري	٥٥
١٧٦٠	١١٧٤	نكر باشا (نكر أفندي أمين المطبخ)	٥٦
١٧٦١	١١٧٥	مصطفى باشا الصدر الأسبق	٥٧
١٧٦٣	١١٧٧	محمد باشا العظم	٥٨
١٧٦٣	١١٧٧	محمد باشا بن مصطفى باشا ابن فارس ابن ابراهيم الشهير بعظم زاده	٥٩
١٧٦٥	١١٧٩	أحمد باشا ميرميران	٦٠
١٧٦٦	١١٨٠	علي باشا كور أحمد باشا زاده	٦١
١٧٦٦	١١٨٠	حمزه باشا السلحدار	٦٢
١٧٦٧	١١٨١	ياغلقجي زاده محمد أمين باشا	٦٣
١٧٦٨	١١٨٢	رجب باشا	٦٤
١٧٦٩	١١٨٣	محمد باشا أحمد باشا زاده منصورف سلايك	٦٥
١٧٦٩	١١٨٣	محمد باشا من ولاية روملي	٦٦
١٧٧٠	١١٨٤	عبد الرحمن باشا	٦٧
١٧٧١	١١٨٥	محمد باشا عظم زاده	٦٨
١٧٧١	١١٨٥	حسين باشا الداماد	٦٩
١٧٧٢	١١٨٦	الحاج عثمان باشا	٧٠
١٧٧٤	١١٨٨	محمد باشا	٧١
١٧٧٥	١١٨٩	محمد باشا بن محمد باشا عثمان بك زاده	٧٢
١٧٧٥	١١٨٩	جناحه لي علي باشا	٧٣
١٧٧٥	١١٨٩	عزت باشا	٧٤
١٧٧٧	١١٩١	ابراهيم باشا الميرميران	٧٥
١٧٧٩ <sup>(١)</sup>	١١٩٣	مراد باشا	٧٦

خريطة الامبراطورية العثمانية خلال الحقبة ١٦٨٣ - ١٨٠٠م<sup>(١)</sup>

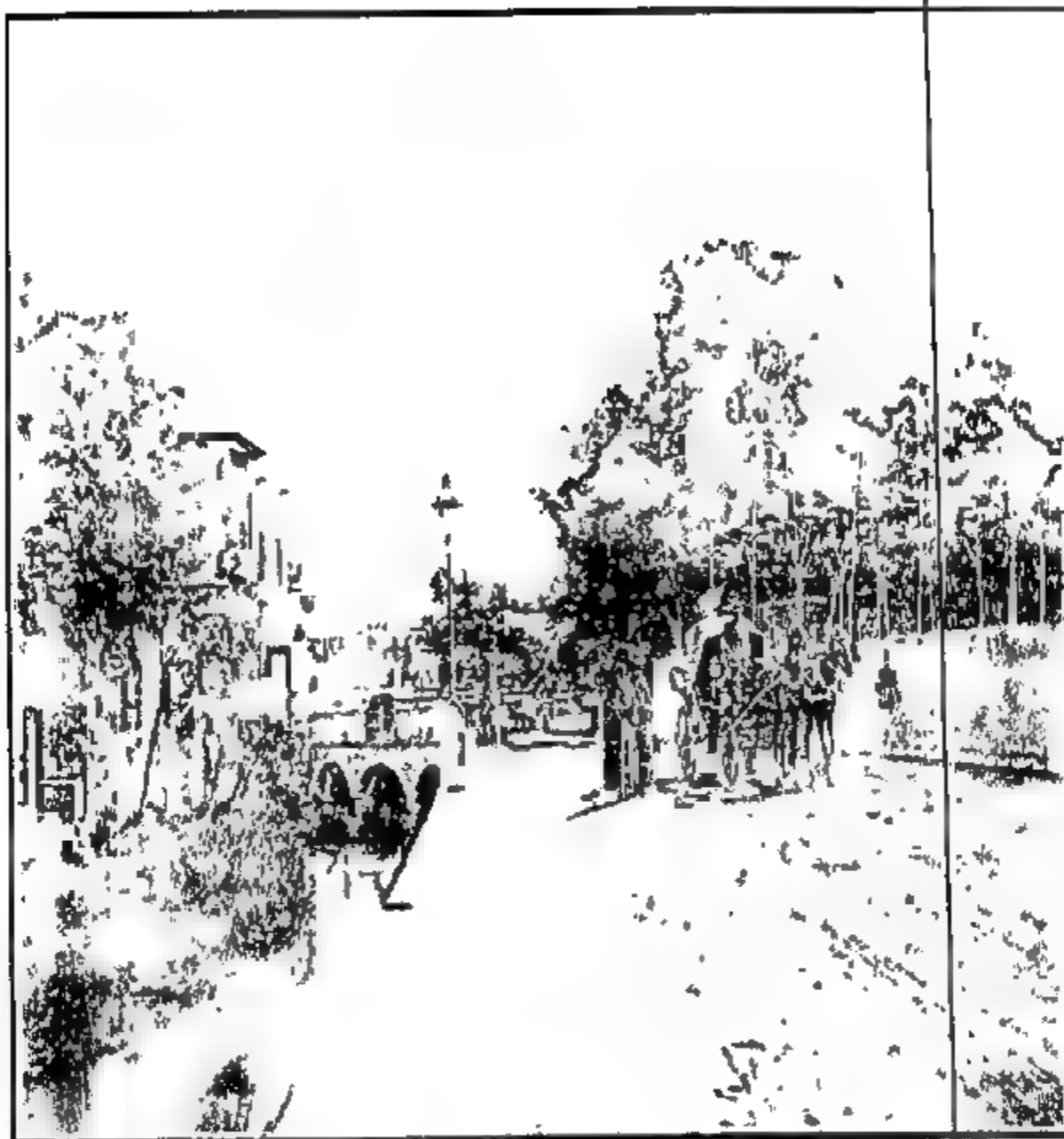


خريطة الولايات التابعة للدولة العثمانية<sup>(١)</sup>

(١) - كراتوت ، نوبالد: الدولة العثمانية ١٧٠٠ - ١٩٢٢ ، المرجع السابق ، ص ٩٠



(١) - كورتوب، دودالد. للدولة العثمانية ١٧٠٠ - ١٩٢٢، ت: أمين أرمناري، مكتبة السيكن، الرياض، ٢٠٠٤ م، ص ٩٠.



Caleche au bord du fleuve. (Quartier Kellab)

عربة حشور على صفة النهر. (م. الكلاب)

(التفت عام ١٨٦٥ م) ١١

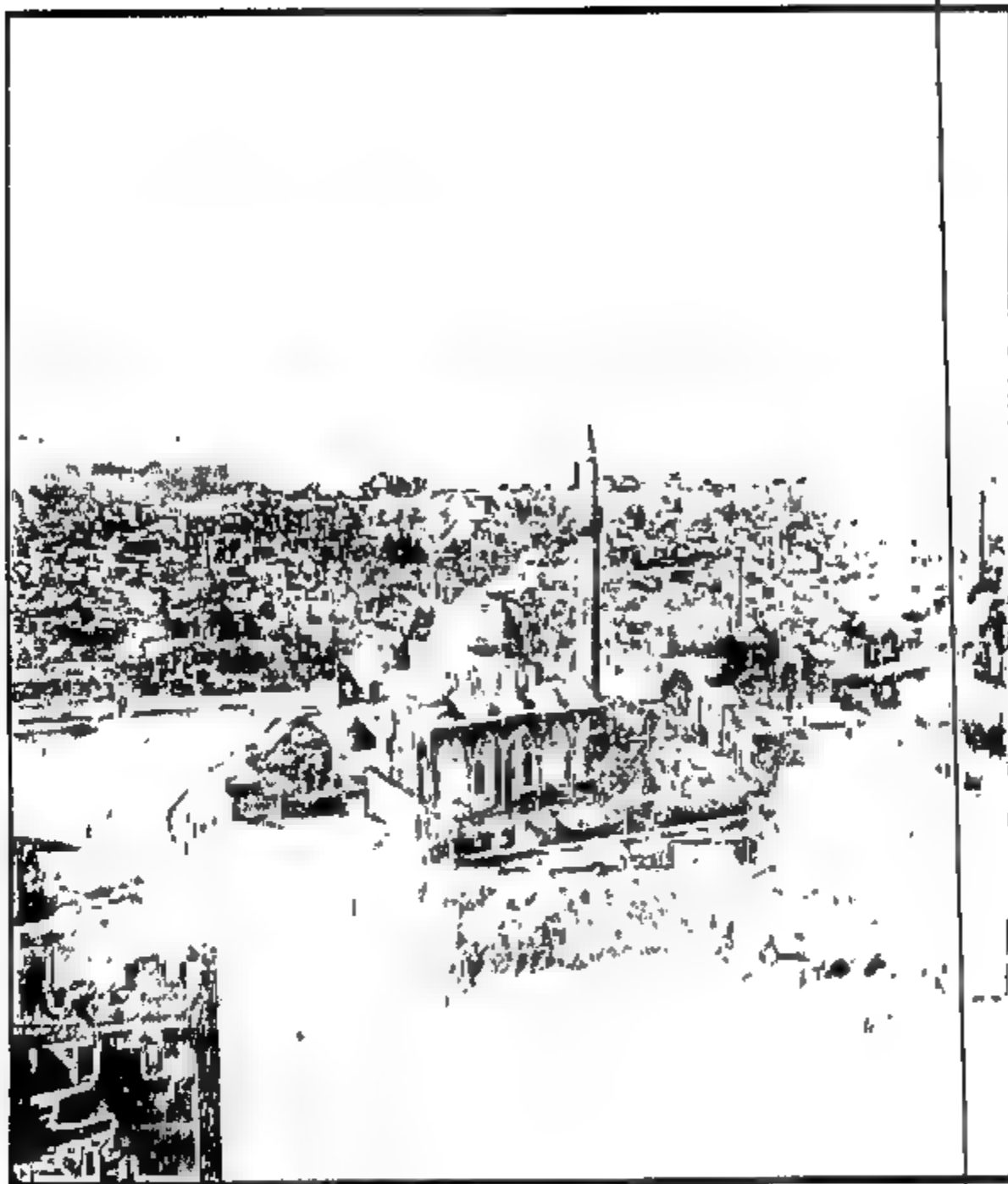
(١) م. رايش . جيني بوجه صور جدي ، مكتب كوسا للتصميم ، حلب ٢٠٠٦ م. (أخذت جميع الصور في هذه الرسالة بالتي تعود إلى عام ١٨٦٥ م من ذا المصدر).



Carrefour Bab el-Faraj Caré Kerdani.

مفرق باب الفرج - قهوة الكرداني.

(التقطت عام ١٩٦٥ م)



Alep. (vue prise de la citadelle)

حلب (منظر مأخوذ من القلعة)

(التقطت عام ١٨٦٥ م)

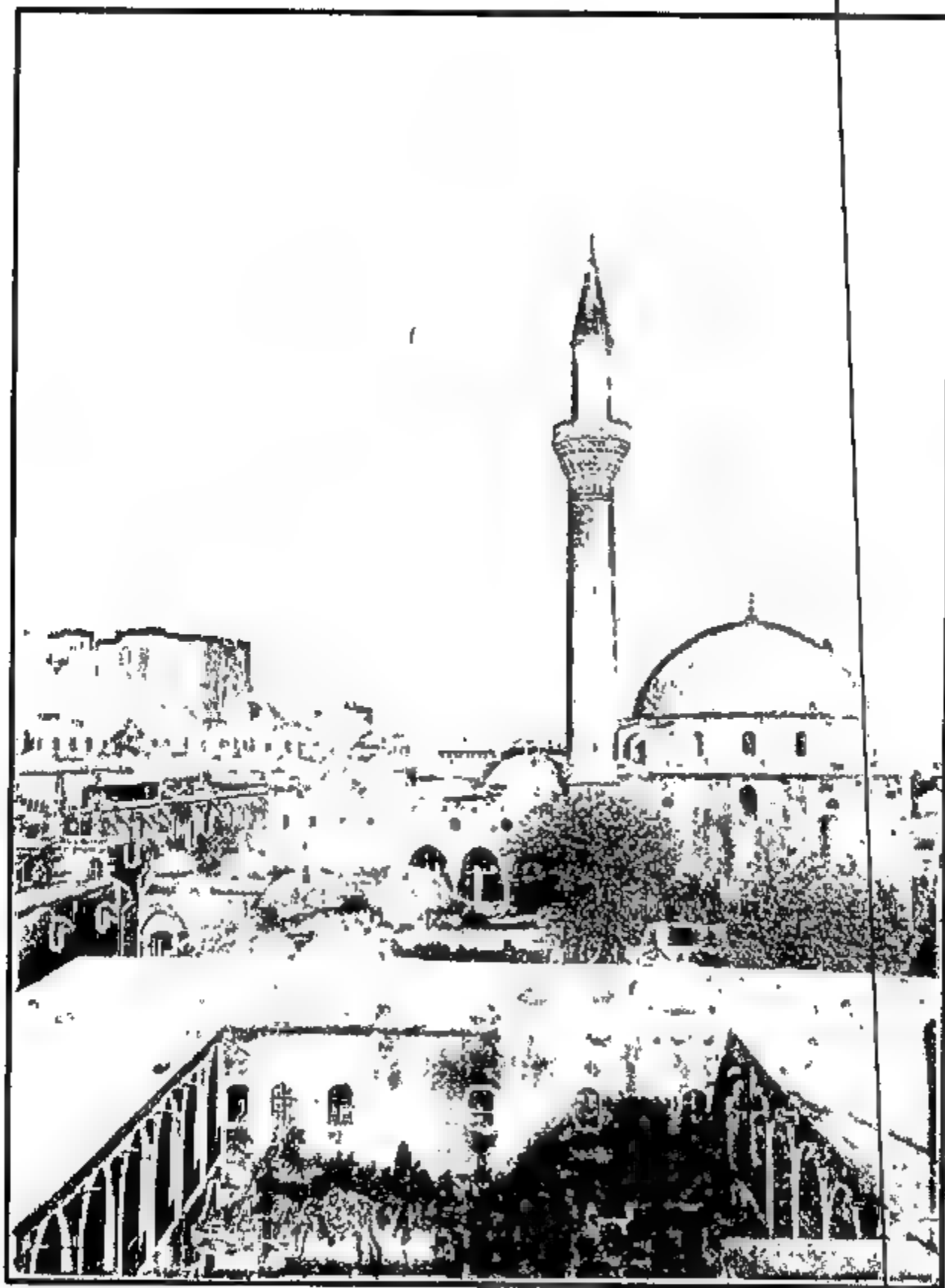




Les souts d'Alep.

اسواق حلب

(التقطت عام ١٨٦٥ م)



Khan mosque et la citadelle

خان جامع و القلعة

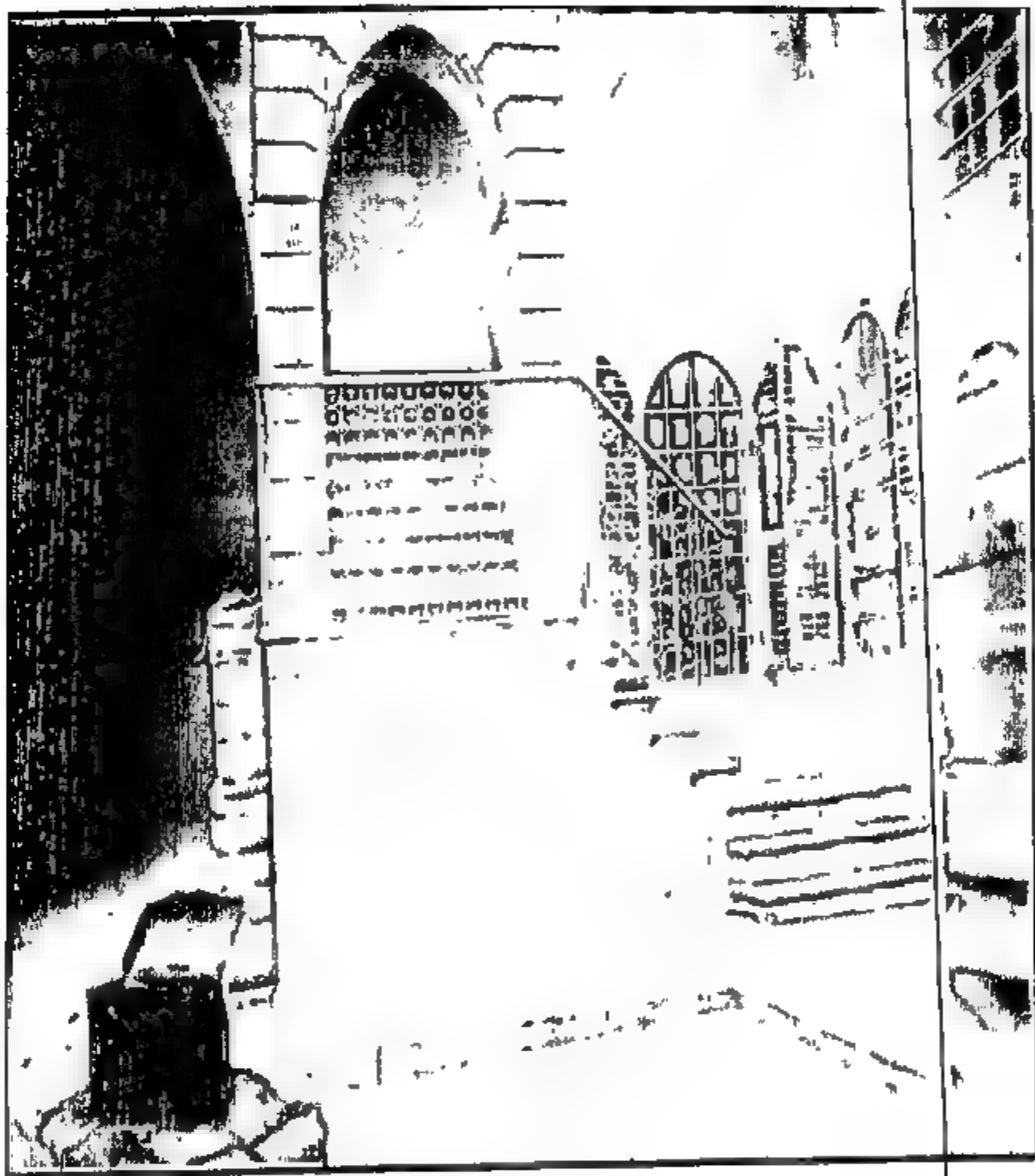
(ألفطت عام ١٨٦٥ م)



Salon maison Poche

عرفة الاستقبال في بيت بوخه

(التقطت عام ١٨٦٥ م)



مدخل بيت بوخه شيد عام ١٥٣٩. (أول قنصلية لفرنسا في دمشق) (التي تقطعت عام ١٨٦٥ م)

Entrée maison Poche, construite en 1539 (Premier consulat de France)

(التقطت عام ١٨٦٥ م)



خان الوزير. (الواجهة الخارجية) (Khan al-Wazir. (façade extérieure))

(التقطت عام ١٨٦٥ م)



(التقطت عام ١٨٦٥ م)



Porteur d'eau.

سقاء الماء.

(التقطت عام ١٨٦٥ م)



Portelaix kurdes. (hammats)

(التقطت عام ١٨٦٥ م)

حمالون

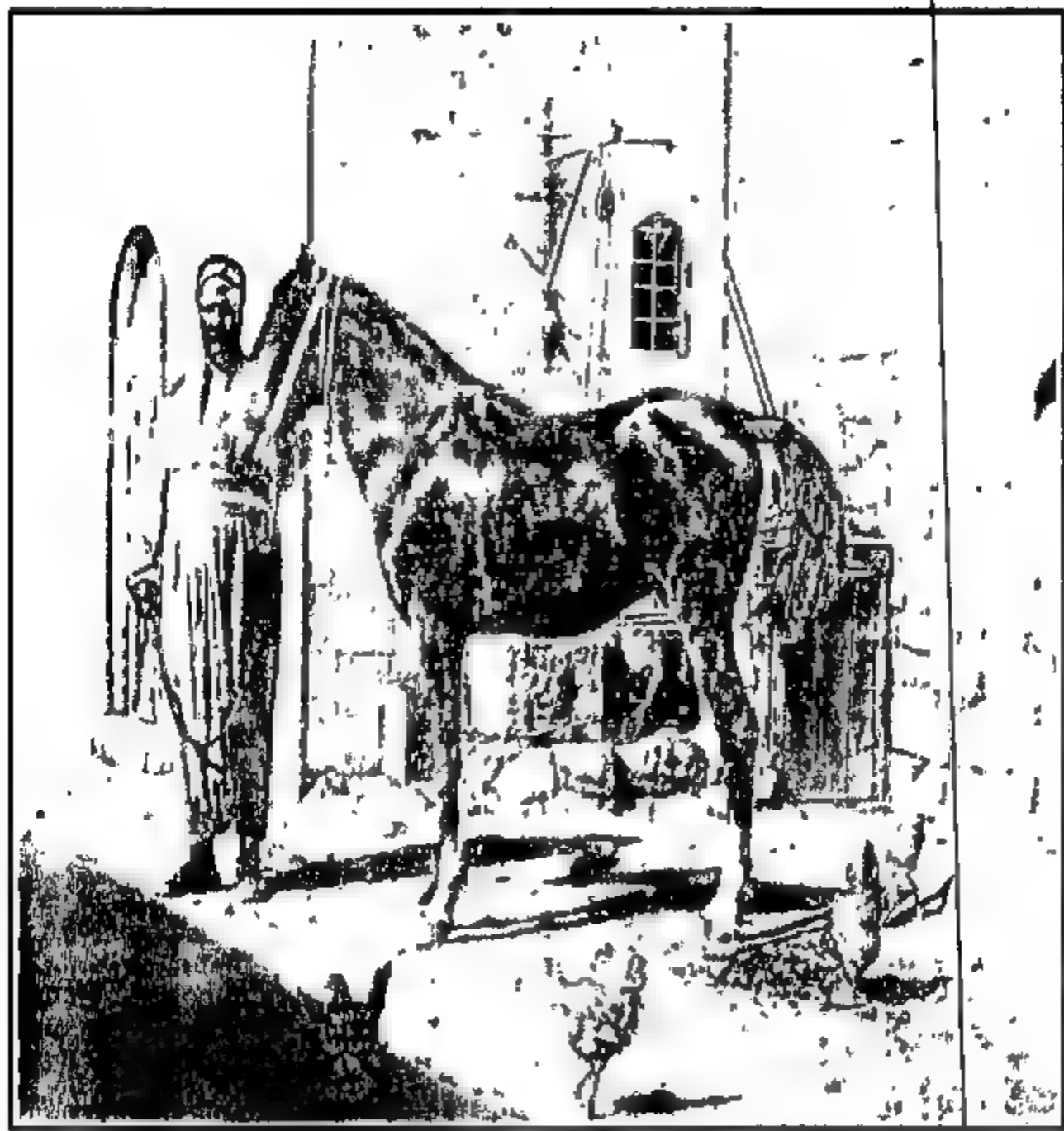




Caravane de chameaux au repos (à l'extérieur d'un caravansérail)

فائلة جمال نسريج. (خارج احدى الحانات)

(التقطت عام ١٨٦٥ م)



لاد (Sayès)

ملس

(التقطت عام ١٨٦٥ م)



Une caravane.

٢١١

(انقطعت عام ١٨٦٥ م)



كواس من حرس القنصلية (kawass)

فؤاد من حرس القنصلية.

(التقطت عام ١٨٦٥ م)



Consul à Alep.

قنصل في حلب.

(التقطت عام ١٨٦٥ م)



L'officier ottoman.

الضابط العثماني.

(التقطت عام ١٨٦٥ م)



Consul de France à Alep.

قنصل فرنسا في حلب.

(التقطت عام ١٨٦٥ م)



Consul d'Italie à Alep.  
(Adolphe Sola et sa femme)

قنصل إيطاليا . ( ادولف صولا و زوجته )

(انقطعت عام ١٨٦٥ م)





Le départ pour la parade.

الانطلاق للعرض.

(التقطت عام ١٨٦٥ م)



Randonnée archéologique.

نزهة أثرية.

(التقطت عام ١٨٦٥ م)

## محتويات البحث

الصفحة	العنوان
٢	المقدمة:
٥	المدخل:
٦	الأهمية الاستراتيجية لموقع حلب الجغرافي وبيئتها الطبيعية.
٩	توسع السلطنة العثمانية في بلاد الشام وأوضاع ولاية حلب.
١٢	الامتيازات الأجنبية الممنوحة من السلطنة العثمانية للدول الأوروبية.
١٦	أسباب اهتمام الأوروبيين ببلاد الشام عامة وحلب خاصة.
١٨	بداية وجود الجاليات الأوروبية في ولاية حلب.
٢٢	<b>الفصل الأول: النظام الإداري للجاليات الأوروبية في ولاية حلب</b>
٢٣	السلطات الوطنية التي ترتبط بها إدارة الجاليات في بلادها الأصلية.
٢٥	السفراء الأوروبيون في العاصمة العثمانية (إستانبول).
٣٥	القناصل الأوروبيون في ولاية حلب.
٤٩	الهيئة الإدارية والعاملون في القنصليات الأوروبية في ولاية حلب.
٦٠	<b>الفصل الثاني: النشاط الاقتصادي للجاليات الأوروبية في ولاية حلب</b>
٦١	الأوضاع العامة للتجارة.
٦٤	تجارة الجاليات الأوروبية في ولاية حلب خلال القرن الثامن عشر.
٧٦	للتبادل التجاري (الصادرات والواردات).
٨٣	النفوة.
٨٧	الجاليات الأوروبية والوسطاء المحليون.
٩١	الصعوبات التي واجهت تجارة الجاليات الأوروبية.
١٠٥	طرق المواصلات التجارية ووسائل النقل والموانئ البحرية التي اعتمدت عليها ولاية حلب.
١١٣	<b>الفصل الثالث: الحياة الاجتماعية للجاليات الأوروبية في ولاية حلب</b>
١١٤	أماكن السكن.
١١٦	حياة الجاليات الخاصة.
١٣٣	علاقات الجاليات الأوروبية فيما بينها .

١٣٦	علاقات الجاليات الأوروبية مع الإدارة الرسمية للعثمانية في ولاية حلب .
١٤٠	علاقات الجاليات الأوروبية مع للقوى الاجتماعية المحلية في حلب.
١٤٩	<b>الفصل الرابع: الجاليات الأوروبية والإرساليات التبشيرية في ولاية حلب</b>
١٥٢	الإرساليات التبشيرية.
١٦٢	وسائل الإرساليات التبشيرية.
١٦٧	موقف الدول الأوروبية من الإرساليات التبشيرية.
١٧٣	موقف السلطنة العثمانية من الإرساليات التبشيرية.
١٧٦	<b>أهم النتائج العلمية التي توصل إليها البحث</b>
١٨٠	<b>مصادر ومراجع البحث</b>
١٩١	<b>الولاة العثمانيون في حلب ١١١٢ - ١٢١٥ هـ / ١٧٠٠ - ١٨٠٠ م</b>
١٩٧	<b>الصور</b>
٢١٨	<b>محتويات البحث</b>